أجاثا كريستي

نهاية المطاف

ترجمة
احمد حسن

الحرية
للنشر والتوزيع

اسم الكتاب	نهاية المطاف
ترجمة	أحمد حسن
الناشر	الحرية للنشر والتوزيع
	٣ ميدان عرابى وسط البلد - القاهرة
	ت: ٢٦١٥٦٤٦ - ٥٧٤٥٦٧٩
	م: ٠١٢٣٨٧٧٩٢١
رقم الإيداع	٢٠٠٧/١٩٧٧
الترقيم الدولى	43 - 85 - 23 - 206

الحرية للنشر والتوزيع

3 ميدان عرابى وسط البلد - القاهرة

0123877921 - 5745679

اليوم العشرون، الشهر الثانى من الفيضان

وقفت رينسنب تنظر عبر النيل. وكانت أصوات أخويها ياموس وسوبك المرتفعة تصل إليها من البعد خافتة.. كانا يتناقشان فيما إذا كانت الجسور فى مكان معين تحتاج إلى تقوية، وكان صوت سوبك كالمعتاد عاليا ومليئا بالثقة، ومن عاداته أن يؤكد أرائه بسهولة وإيمان، وكان صوت ياموس منخفضا ومتذمرا يعبر عن الشك والقلق. وكان ياموس، وهو الابن الأكبر، دائما فى حالة قلق من شئ أو أخر. وكانت إدارة الضيعة أثناء غياب أبيه فى الإقطاعية الشمالية - إلى حد ما بين يديه، وكان حريصا وميالا إلى توقع المتاعب حيث لا توجد، وكان رجلا ضخما بطئ الحركة وليس به شئ من مرح وثقة سوبك.

وكانت رينسنب تتذكر منذ طفولتها هذين الأخوين الأكبر منها وهما يتناقشان بمثل هذه الطريقة، وشعرت فجأة بالأمان - لقد عادت إلى البيت مرة أخرى.. أجل لقد عادت إلى البيت.

ولكن حينما نظرت مرة أخرى عبر النهر اللامع أحست بالثورة والألم (ففاى) زوجها الشاب قد مات (فاى) بوجهه الضاحك وكتفيه القويتين أصبح مع اوزوريس فى مملكة الموت، وها هى رينسنب - زوجته المحبوبة- فى تعاسة. وكانا قد أمضيا ثمانى سنوات معا، وقد ذهبت إليه وهى تكاد تكون طفلة - والآن هاقد عادت وقد ترملت ومعها ابنة (فاى)، (تيتى) إلى منزل أبيها وخيل إليها فى هذه اللحظة أنها لم تترك المنزل أبدا، وراقت لها هذه الفكرة، ستنسى هذه السنوات

الثمانية المليئة بالسعادة التى اندثرت بالألم والفقدان.

نعم أنسيها وعودى مرة أخرى رينسنب، ابنة امحتوب كاهن القبور، الفتاة التى لا تفكر ولا تشعر بألم، فحب الزوج كان شيئا قاسيا، وقد خدعت برقة هذا الحب ودفعت الثمن بهذا الحزن الذى تشعرين به الآن. وتذكرت الكتفين القويتين البرونزيتين والفم الضاحك. والآن كان (فاى) قد حنط. لف فى الضمادات ومضى فى حمى هذه الدنيا يبحر على النيل ويصطاد السمك ويضحك للشمس، بينما تكون هى مستلقية فى القارب وعلى ركبتيها تيتى الصغيرة تضحك له.

ومر بخاطر رينسنب: لن أفكر فى هذا، لقد انتهى الأمر أنا هنا فى البيت وكل شئ كما كان، وأنا أيضا قريبا سأعود كما كنت، وسيصبح كل شئ كما كان من قبل، لقد نسيت تيتى، وها هى الآن تلعب مع الأطفال الآخرين وتضحك).

وفجأة استدارت رينسنب ومضت عائدة إلى المنزل ومرت بحمير مسوقة نحو النهر، ومرت بحقول القمح وبالمنازل القائمة خارج السور ثم بالبوابة والى فناء الدار. وكان مكانا ممتعا جدا ففيه بحيرة صناعية وعلى يمينها نبات الفل المزدهر والياسمين وتظللها أشجار التين، وكانت تيتى والأطفال الآخرون يلعبون هناك وأصواتهم الحادة الواضحة مرتفعة، وكانوا يجرون داخل وخارج الكوخ الصغير المقام بجانب البحيرة. ولاحظت رينسنب أن تيتى تلعب بأسد خشبى يفتح ويقفل فمه بخيط، وهى لعبة كانت فيما مضى لعبتها هى، وكانت تلعب بها وهى طفلة، وفكرت مرة أخرى بارتياح: لقد عدت إلى البيت ولم يتغير اى شئ هنا، كل شئ كما كان. هنا الحياة آمنة مطمئنة. وأصبحت تيتى الآن هى الطفلة، وأصبحت رينسنب إحدى الأمهات اللاتى هن فى

حمى أسوار البيت، ولكن الإطار و الجوهر غير متغيرين.

وتدحرجت كرة يلعب بها احد الأطفال حتى وصلت إلى قدميها فالتقطتها ورمتها له وهى تضحك.

ومضت رينسنب إلى البيت مارة بالغرفة الوسطى الكبيرة المزينة باللوتس الملون والخشخاش، ثم إلى الجزء الخلفى من المنزل المخصص للنساء، وقابلتها أصوات ساتيبى وكيت المرتفعة وهما تتناقشان كالمعتاد، وتمهلت وهى تتأمل بارتياح هذه الأصداء المألوفة - صوت (ساتيبى) العالى المسيطر العاتى- و (ساتيبى) هى زوجة أخيها (ياموس) وهى امرأة طويلة جميلة تنقصها الرقة، ذات صوت مرتفع، وكانت مسيطرة على الخدم، والجميع يخافون سلاطتها ويهرعون لتنفيذ أوامرها، وكانت بقوة شخصيتها تجبرهم على القيام بالمستحيل.

وكن ياموس نفسه يكن لزوجته القوية العزيمة أكبر الاحترام، ويتقبل تأنيبها بطريقة طالما أثارت رينسنب.

وخلال الفترات التى كان يسكت فيها صوت ساتيبى كان يسمع صوت (كيت) الهادئ العنيد. وكيت امرأة ليست بالجميلة، وهى زوجة سوبك الوسيم المرح، وهى متفانية فى أولادها، ونادرا ما تتكلم او تفكر فى شئ آخر. وكانت طريقتها فى المناقشة مع ساتيبى هى إن تردد بإصرار اى شئ تكون قد قالته، ولا تتزحزح عنه، وكانت لا تنفعل ولا تراعى، ولو للحظة، أى شئ سوى وجهة نظرها فى المشكلة. وكان سوبك متعلقا بزوجته ويرتاح إليها ويتحدث معها فى جميع أموره، لأنه مطمئن إلى أنها تتصنع الإصغاء وتجارية ولكن فى الحقيقة عقلها مشغول فى مشكلة من مشكلات أولادها طوال الوقت وتنسى كل ما

قاله بمجرد إن ينتهى من قوله.

وصاحت ساتيبى: (إن هذه إهانة. ولو كان لياموس إرادة فأر لما قبل هذا البتة. من المسئول فى غياب امحتوب؟ انه ياموس وكزوجة ليامـوس يجب أن يكون لى أنا الاختيار الأول فى الوسائد والمراتب المنسوجة وهذا العبد الأسود الذى يشبه سيد قشطة يجب أن.. وقاطعها صوت كيت العميق: لا لا يا صغيرتى لا تأكلى شعر العروسة، انظرى هذا شئ أفضل -حلوى- آه كم هى لذيذة.

- أما أنت يا كيت فقليلة الذوق ولا تستمعين حتى الى ما اقوله - أنت لا ترين- إن سلوكك شنيع.

- إن الوسادة الزرقاء كانت دائما ملكى.. آه انظرى إلى انكا- أنها تحاول أن تمشى.

- انك غبية مثل أولادك يا كيت، وهذا ليس بالشئ القليل! ولكنك لن تتخلصى من الموضوع بهذه الطريقة، فان لى حقوقا كما أقول لك.

وتنبهت رينسنب إلى خطوات خافتة خلفها، واستدارت وانتابها الشعور المألوف بعدم الارتياح عندما رأت المرأة هينيت واقفة خلفها، وكان وجه هينيت الهزيل ملتويا بابتسامتها نصف الذليلة المعتادة.

وقالت هينيت: لم تتغير الأمور كثيرا يا رينسنب - كما ترين بلا ريب - ولا أعرف كيف إننا كنا نتحمل لسان ساتيبى! وبالطبع تستطيع كيت إن ترد عليها، ولكن ليس بوسع البعض الأخر إن يفعلوا ذلك فأنا اعرف مكانى - أرجو ذلك على الأقل - وأعرف عرفانى لوالدك لأنه منحنى مسكنا وطعاما وملبسا، آه إن أباك رجل طيب، وأنا حاولت دائما ان اعمل قدر استطاعتى فانا دائما اعمل - أساعد هنا وهناك-

ولا انتظر شكرا أو عـرفـانا. ولـو كـانت والدتك العـزيزة قـد عـاشت لاختلف الوضع، فـقـد كـانت تقـدرنى وكنا مـثل أخـتين. وكـانت امـرأة جميلة وقد قمت بواجبى وحافظت على وعدى لها، فقد قالت لى وهى تموت (هينيت اعـتنى بالأولاد) وقـد بررت بوعـدى وافنيت نفسـى فى خدمتكم جميعا، ولم انتظر شكرا ولا طلبت هذا الشكر، ولم اشك أبدا وكان الناس يقولون، مـا هذه إلا هينيت العـجوز وهى لا قـيمـة لهـا ولا يفكر فى احـد، ولماذا يفكرون فى؟ اننى فـقط أحـاول أن أسـاعـد. وتسللت مثل ثعبان البحر من تحت ذراع رينسنب الى الحجرة الداخلية وقالت: فيمـا يختص بالوسائد – بعد إذنك يا ساتيبى– ولكنى سمعت سوبك يقول.

وتركت رينسنب المكان وقد استيقظ فيها كرهها القديم لهينيت – عـجبـا أنهم جـمـيعـا يكرهون هـينيت! والأسـبـاب هـى: صـوتهـا البـاكى واشـفـاقهـا الدائم على نفسـهـا وسـرورهـا الخـبيث بإشـعـال النار فى المناقشات. وفكرت رينسنب، اه حسنا ولم لا؟ هذه كما تعتقد طريقة هينيت لتسلية نفسها، ولا ريب إن الحياة كئيبة بالنسبة لها. والحقيقة إن هينيت تكد وتكدح ولم يعترف أحد بجميلها قط، ولا يمكن أن يشعر احد بامتنان نحوها لأنها تلفت الأنظار بإصرار نحو أفضالها لدرجة أن أى شعور كريم قد يشعر به المرء تجاهها يتجمد تلقائيا.

ومر بخلد رينسنب إن هينيت إحدى اللاتى كتب عليهن أن يخلصوا للغـيـر ولا يجـدوا أحـدا يخلص لهم، وهى غـيـر جـذابة وغـبـيـة، ولكنهـا تعرف دائمـا مـا يجـرى، فـان طريقتهـا فى المشى بدون صوت وأذنيـهـا الحـادتين وعينيها الفضـوليتين تجـعل من المستحيل أن يبنى شئ لفترة طويلة سـرا عليهـا. وأحـيـانا كنت تحتفظ بمعلومـاتهـا لنفسـهـا وأحـيـانا

أخرى كانت تتنقل من شخص لأخر تهمس، وتقف خلف الكواليس وهى سعيدة بمراقبة نتائج أقوالها. وقد طلب كل فرد فى البيت، على حدة، فى وقت من الأوقات من أمحتوب إن يتخلص من هينيت، ولكن امحتوب رفض أن يستجيب لهذا وربما كان أمحتوب هو الشخص الوحيد الذى يعزها، وكانت هينيت تقابل رعايته بتفان يثير غثيان باقى العائلة.

ووقفت رينسنب مترددة لحظة وهى تستمع إلى الضجة المتزايدة من زوجتى أخويها، وقد ازدادت النيران بتدخل هينيت، ثم اتجهت ببطء نحو الغرفة الصغيرة حيث كانت جدتها (أسا) تجلس بمفردها، وفى خدمتها بنتان صغيرتان زنجيتان، وكانت أسا مشغولة بفحص ثياب من التيل كانتا تعرضانها عليها وكانت تزهوهما بطريقة حبية.

نعم كان كل شئ كما هو. ووقفت رينسنب تستمع بدون أن يلاحظن وجودها. وفكرت إن العجوز (اسا) قد ضمرت قليلا. هذا كل ما فى الأمر، ولكن صوتها وكلامها ما زالا كما كانا لم يتغيرا، بل إن رينسنب تكاد تتذكر الكلام كلمة كلمة كما كان منذ ثمانية أعوام عندما تركت المنزل.

وتسللت رينسنب إلى الخارج مرة أخرى دون أن تلاحظها جدتها أو الامتان ووقفت لحظة إمام باب المطبخ المفتوح المنبعثة منه رائحة بط محمر وكثير من الكلام والضحك.

ووقفت رينسنب ساكنة تماما، وعيناها نصف مقفلة وكان باستطاعتها من المكان الذى تقف فيه أن تسمع فى إن واحد كل ما يدور حولها: الأصوات العديدة المتنوعة المنبعثة من المطبخ. النبرة

العالية الحادة لصوت أسا العجوز، نبران ساتيبى الرفيعة الحادة ونبرات كيت الخافتة العميقة التى تتردد بإصرار. مجموعة من الأصوات النسائية مثرثرة ضاحكة شاكية زاجرة ومتعجبة. وفجأة شعرت رينسنب بالاختناق وهى محاطة بهذا الجو النسائى الصاخب. النساء - نساء أصواتهن عالية ويثرن الضوضاء! منزل ملئ بالنساء- لا يسكتن أبدا ولا يهدأن، دائما يطلن الكلام ولا يعملن شيئا.

وفاى- فاى ساكن ومترقب فى قاربه وكل تفكيره متركز على السمك الذى سيصطاده برمحه. لا شئ من هذه الثرثرة واللغط الدائمين.

ومضت رينسنب بسرعة خارجة مرة أخرى من المنزل إلى الجو الساخن الساكن فى الخارج، ورأت سوبك عائدا من الحقول، كما رأت عن بعد ياموس وهو متجه إلى المقبرة.

واستدارت ومضت فى الطريق المؤدى إلى الجبل الجيرى حيث كانت المقبرة، وكانت هذه مقبرة النبيل العظيم (مريبتا) وكان والدها هو كاهن القبور المسئول عن العناية بالمقبرة، وكانت كل الضيعة والاراضى جزءا من وقف المقبرة.

وفى غياب أبيها كانت واجبات (الكا) أو كاهن القبر تقع على أكتاف أخيها ياموس.

وعندما وصلت رينسنب بعد أن صعدت الطريق المنحدر ببطء إلى المقبرة- كان ياموس هناك فى الغرفة الحجرية الصغيرة للقبر يتشاور مع حورى القائم بأعمال والدها.

وكان حورى يضع على ركبتيه ورقة من أوراق البردى وكان وهو

وياموس منكبين عليها . وابتسم كل من حورى وياموس لرينسنب عندما وصلت وجلست بجانبها فى الظل وكانت رينسنب تحب أخاها ياموس منذ الصغر، فقد كان رقيقا ودودا تجاها، وكان بطبيعته رءوفا ووديعا وكان حورى أيضا لطيفا معها دائما منذ طفولتها يصلح لها لعبها وهى صغيرة، وعندما تركت منزل أبيها للتزوج كان حورى شابا رزينا لا يتكلم كثيرا وله أيد حساسة ماهرة. وفكرت رينسنب وهى تنظر إليه، انه ولو أن حورى يبدو أكبر قليلا إلا انه لم يطرأ عليه تغير يذكر، فان الابتسامة الرزينة التى استقبلها بها لم تتغير كما تتذكرها .

وكان ياموس وحورى يغمغمان معا : (ثلاثة وسبعون كيلة من الشعير مع (ايبى الأصغر).. المجموع إذن مائتان وثلاثون من الدريس ومائه وعشرون من الشعير.

- نعم ولكن هناك ثمن الخشب، وقد دفع ثمن المحصول مقابل زيت فى (برهيا).. وتابعا حديثهما وجلست رينسنب وهى شبه نائمة سعيدة بأصوات الرجال الخافتة حولها . وبعد قليل نهض ياموس وترك ورق البردى مع حورى وترك المكان.

وجلست رينسنب فى سكون مؤتنسة بصحبة حورى وبعد قليل أمسكت بحزمة من أوراق البردى وسألت: هل هذه من ابى؟.

وأومأ حورى. وسألت بفضول، ماذا يقول فى هذه الورقة؟.

وفتحت الحزمة وحدقت فى العلامات الهيروغليفية التى لا تعنى شيئا لعينيها التى لا تعرف القراءة وابتسم حورى قليلا ومال من فوق كتفيها ووضع إصبعه الصغير على الحروف وهو يقرأ . وكانت الرسالة مكتوبة بالأسلوب المنمق للكاتب الهيروغليفى المحترف:

امحتوب خادم الضيعة وكاهن القبور يقول: يا ليت حالكم مثل حال الذى يعيش مليون مرة.. ليساعدكم الإله (هيرشاف) سيد هيدوكليبس.

وكل الآلهة الآخرين. ليبعث الإله (بتاح) السعادة فى قلوبكم مثل السعادة التى يبعثها للذين يعيشون طويلا. إن الابن والكاهن يكلم والدته أسا: كيف حال صحتك وأمنك؟

ويسأل كل أفراد الأسرة كيف حالكم؟ ويسأل ابنه ياموس عن أحواله؟ ويحثه أن يستغل أرضه إلى أبعد الحدود،، وان يكد ويجتهد فى زرع الأرض ويعده بأن يصلى لله من اجله إذا كان مجتهدا.

وضحكت رينسنب: مسكين يا ياموس.! انى واثقة أنه يعمل ويشقى بما فيه الكفاية... وكانت طريقة أبيها فى النصح قد صورته أمامها بوضوح- بطريقته المتعالية الصاخبة إلى حد ما وبصائحة وتعليماته المستمرة.

ومضى حورى يقرأ:

(اعتن كثيرا بولدى ايبى فانى سمعت أنه غير راض، وتأكد من إن ساتيبى تعامل هينيت معاملة طيبة واهتم بالأمر- اكتب واخبرنى عن الزيت والكتان وحافظ على محاصيلى- حافظ على كل ما أملكه لانى أحملك مسئولية هذا وإذا غمر الفيضان أرضى فالويل لك أنت وسوبك.

وقالت رينسنب بسرور: ان أبى كما هو بالضبط، يفكر دائما انه لا يمكن عمل شئ بالطريقة الصحيحة إذا لم يكن موجودا هنا.

وتركت ورقة البردى وأضافت برقة:

- إن كل شئ بالضبط كما كان.

ولم يجب حورى وأخذ ورقة بردى وبدأ يكتب ورينسنب تراقبه فى كسل لتضيع الوقت، وكانت تشعر بالرضى والقناعة لدرجة أنها كانت لا ترغب فى الحديث.

وبعد قليل قالت بلهجة حالمة: انه من المفيد أن يتعلم المرء الكتابة على ورق البردى فلماذا لا يتعلم كل الناس؟

- ان هذا ليس ضروريا.

- ربما ليس ضروريا ولكنه لطيف.

- هل تظنين هذا يا رينسنب؟ وما الفارق بالنسبة لك؟

وفكرت رينسنب برهة ثم قالت ببطء: عندما تسألنى هذا لا أعرف الجواب بصدق يا حورى.

وقال حورى: فى الوقت الحاضر كل ما هو ضرورى هو وجود بعض الكتبة فى ضيعة كبيرة، ولكن على ما أظن سيأتى اليوم الذى توجد فيه جيوش من الكتبة فى جميع أنحاء مصر، فإننا نعيش فى بداية عهد عظيم.

وقالت رينسنب: سيكون هذا شيئا جميلا.

وقال حورى ببطء: انى لست متأكدا من هذا.

- ولماذا؟

- لان الأمر يا رينسنب سهل جدا، ولا يكلف جهدا كبيرا إن يكتب المرء عشر كيلات من الشعير أو مائه رأس من الماشية أو عشرة حقول من البرسيم- وسيبدو الشئ الذى يكتب كأنه الحقيقة. وسيأتى اليوم

الذى يحتقر فيه الكاتب الرجل الذى يفلح الحقل ويجنى الشعير ويربى الماشية، ولكن الحقول والشعير والماشية هى فى الواقع حقيقة واقعة- وليست علامات من الحبر على ورق بردى فحسب. وعندما تدمر كل الوثائق وكل رزم أوراق البردى ويندثر الكتبة فان الرجال الذين يجنون ويحصدون هم الباقون وستظل مصر حية.

ونظرت إليه رينسنب بانتباه وقالت ببطء: نعم انى أرى ما تعنيه. إن الأشياء التى نستطيع أن نراها ونمسها ونأكلها هى فقط الأشياء الحقيقية.. أن كتابة عندى مائتان وأربعون كيلة من الشعير لا تعنى شيئا إلا إذا كان الشعير موجودا فان المرء يستطيع أن يكتب أكاذيب.

وابتسم لها حورى وهو ينظر إلى وجهها الجاد. وقالت رينسنب فجأة: انك أصلحت لى لعبتى الأسد - منذ زمن بعيد أتذكر؟

- نعم أنى أذكر يا رينسنب.

- إن تيتى تلعب به الآن.. انه نفس الأسد.

وصمتت برهة ثم قالت ببساطة: عندما ذهب فاى إلى أوزوريس كنت حزينة جدا، ولكنى الآن رجعت إلى البيت وسأكون سعيدة مرة أخرى وسأنسى- لان كل شئ هنا كما هو ولم يتغير بالمرة.

- هل تعتقدين هذا حقا؟

ونظرت إليه رينسنب بحدة:

- ماذا تعنى يا حورى؟

- أعنى أنه يوجد دائما تغير فثمانية أعوام هى دائما ثمانية أعوام.

وقالت رينسنب بثقة:

- لا شئ يتغير هنا.

- إذن ربما يجب أن يحدث تغير.

قالت رينسنب بحدة لا.. لا.. انى أريد أن يظل كل شئ كما هو.

- ولكن أنت نفسك لست نفس رينسنب التى رحلت مع (فاى).

- بل أنا كما كنت! وان لم أكن كذلك فانى سأصبح كذلك قريبا.

وهز حورى رأسه وقال: انك لا يمكن أن ترجعى إلى الخلف يا رينسنب أن هذا مثل موازينى فأنا آخذ نصفا وأضيف اليه ربعا ثم عشرا- وفى النهاية كما ترين تكون الكمية مختلفة عما كانت عليه فى البداية.

- ولكنى مجرد رينسنب.

- ولكن رينسنب قد أضيفت إليها أشياء خلال هذه الأعوام ولذلك أصبحت رينسنب مختلفة.

- كلا.. كلا.. انك نفس حورى القديم.

- قد تعتقدين هذا ولكنه ليس صحيحا.

- نعم، نعم، ويامـوس كما هو قلق دائما ومتوجس، وساتيبى مسيطرة عليه كما كانت بالضبط، وهى وكيت كانتا تتشاجران كالمعتاد على المراتب والوسائد، وقريبا عندما سأعود سأجدهما تضحكان معا كأفضل الأصدقاء، وما زالت هينيت تتسمع وتتلصص وتتباكى بإخلاصها لنا، وجدتى كانت تعاتب خادمتها الصغيرة بخصوص بعض الأقمشة. كل شئ كما كان من قبل، وقريبا سيعود والدى إلى البيت

وسيثير ضجة كبيرة وسيقول، لماذا لم تفعلوا هذا؟ وكان يجب أن تفعلوا ذلك. وسيظهر على ياموس القلق، وسيضحك سوبك ويبدو كالبرئ، وسيدلل أبى ايبى وهو الآن فى السادسة عشرة كما كان يدلله وهو فى الثامنة ولن يتغير شئ بالمرة... وتوقفت وهى لاهثة.

ونهض حورى ثم قال برفق: انك لا تفهمين يا رينسنب. هناك شر يأتى من الخارج ويهاجم بحيث يستطيع العالم كله أن يراه، ولكن هناك نوعا آخر من العفن ينمو من الداخل ولا يظهر خارجيا، وهو ينمو ببطء يوما بعد يوم حتى تصبح الثمرة أخيرا كلها عفنة- وقد أتلفها المرض.

وحدقت رينسنب فيه. كان قد تكلم كمن يحدث نفسه لا كمن يوجه اليها الحديث. وهتفت بحدة: ماذا تعنى باحورى؟ انك تخيفينى.

- أنا نفسى خائف.

- ولكن ماذا تعنى؟ ما هذا الشر الذى تتحدث عنه؟ونظر اليها ثم ابتسم فجأة وقال: انسى ما قلته يا رينسنب، فانى كنت أفكر فى الآفات التى تصيب المحاصيل.

- وتنهدت رينسنب بارتياح وقالت: انى سعيدة فقد فكرت- لا أعرف ما فكرت فيه.



اليوم الرابع، الشهر الثالث من الفيضان

كانت ساتيبى تكلم ياموس بصوت مرتفع ذى نبرة حادة لا تكاد تتغير:

– يجب أن تثبت شخصيتك. لن تقدر حق قدرك ما لم تفعل ذلك. إن أباك يأمرك بإنجاز أمور يعلم الله أنها فى الغالب مستحيلة ويعاملك كطفل، كولد غير مسئول وكأنك فى مثل عمر ايبى، وأنت تستمع إليه فى دعة وتوافقه وتعتذر عن عدم إنجاز أمور تعلم جيدا أنها مستحيلة.

وأجاب ياموس بهدوء:

– أن أبى لا يعاملنى بالمرة مثل ايبى.

واشتاطت ساتيبى غضبا وهى تتكلم فى هذا الموضوع الجديد: هذا صحيح، لأنه مغرم بهذا الولد المدلل الذى أصبح من المستحيل التعامل معه ويزيد سوءا يوما بعد يوم. انه يختال ويتهرب من العمل كلما استطاع. إن هذه فضيحة. وسبب كل هذا هو أنه يعلم أن أباك يقف فى صفه دائما ويغض النظر عما يفعل. ومن الواجب أن تتخذ أنت وسوبك موقفا حازما تجاه هذا الموضوع.

وهز ياموس كتفيه وقال:

– وما الفائدة.

– انك ستصيبنى بالجنون يا ياموس –هذه هى طريقتك. انك وديع مثل امرأة. ولا نخوة فيك وتوافق فى الحال على كل ما يقوله أبوك.

– اننى أعز أبى.

– نعم وهو يستغل ذلك. انك تتقبل اللوم فى ذلة وتعتذر عن أمور لا ذنب لك فيها. يجب أن تكلمه مثلما يفعل سوبك الذى لا يخشى أحدا.

– نعم ولكن تذكرى يا ساتيبى أننى وليس سوبك موضع ثقة أبى وكل شئ متروك لتقديرى وليس لتقديره.

– أنك تمثل أباك فى غيابه فى كل الأمور حتى فى واجباته ككاهن القبر، ومع ذلك ليست لديك سلطة معترف بها. يجب أن تكون هناك تسوية عادلة الآن وقد أصبحت رجلا فى منتصف العمر وليس من العدل أن تعامل كطفل.

وقال ياموس متشككا:

– أبى يجب أن يبقى زمام الأمور فى يديه.

– تماما. انه يسره أن يكون جميع أهل البيت مطيعين له – وتابعين لمزاجه المتقلب. إن هذا أمر سىء وسيزداد سوءا. يجب أن تواجهه بشجاعة فى هذه المرة عندما يعود، وتطالب بتسوية مكتوبة وتصر أن تكون لك مكانة معترف بها فى الضيعة.

– لن يرضى.

– إذن يجب أن تجعله يرضى. آه لو كنت رجلا فى مكانك لعرفت كيف أتصرف! انى أشعر أحيانا أنى متزوجة من حشرة.

واحمر وجه ياموس وقال:

- سأرى ماذا أستطيع أن أفعله -نعم- قد أتكلم مع أبى وأطلب منه...

- بل تطالبه. فان فى يديك زمام الأمور، وهو لا يستطيع أن يعتمد على احد سواك، فسويك طائش وايبى مازال صغيرا.

- ولكن يوجد حورى.

- حورى غريب وأبوك ولو أنه يعتمد على رأيه فانه لن يعطى السلطة إلا لشخص من دمه. ولكنى أرى الحقيقة.. انك وديع أكثر من اللازم، ويجرى اللبن بدلا من الدم فى عروقك، ولا تهمك أسرتك، ولن تأخذ مكانك الطبيعى إلا بعد موت أبيك.

وقال ياموس بحزن:

- انك تحتقريننى -أليس كذلك يا ساتيبى؟

- انك تثيرنى.

- اسمعى، أعدك أن أتكلم مع أبى عند عودته.

وغمغمت ساتيبى:

- نعم ولكن كيف؟ كرجل أم كفأر؟

* * *

كانت كيت تلاعب (انكا) أصغر أطفالها التى بدأت تحاول أن تمشى، وكانت كيت تشجعها وهى تضحك مادة ذراعيها نحوها، وكانت تستعرض منجزات انكا أمام سويك ولكنها لاحظت فجأة أنه غير منتبه لابنته، ويجلس ووجهه الوسيم غابس، فعاتبته برقة ولكنه قال بحدة: ان لدى أمور أخرى أفكر فيها وتقلقنى.. وسألته كيت فى عدم اكتراث:

– لماذا..؟ أهناك شئ على غير ما يرام؟

وأجابك سوبك غاضبا:

– أن المشكل هو انى لست موضع ثقته. إن أبى رجل عجوز له أفكار قديمة وسخيفة، وهو يصر على فرض رأيه فى كل صغيرة وكبيرة – وهو لا يترك الأمور لتقديرى...

وهزت كيت رأسها وقالت بابهام:

– نعم هذا شئ مؤسف.

– لو كانت ليامـوس أية شخصية ولو كان يساندنى لكان هناك أمل فى إقناع أبى. ولكن ياموس جبان وهو ينفذ تعليمات أبى حرفيا.

ولاعبت كيت الطفلة ببعض الخرز وهمست:

– نعم هذا صحيح.

– سأقول لأبى عند عودته اننى فيما يختص بموضوع الخشب قد تصرفت حسب تقديرى، فانه من الأفضل كثيرا أخذ الثمن مقابل كتان بدلا من أخذه مقابل زيت.

– أنا متأكدة أنك على حق.

– ولكن أبى عنيد ويجب أن يفرض إرادته، وسيثور ويصيح قائلا: (لقد قلت لك أن تعقد الصفقة مقابل الزيت.. كل شئ يتم خطأ فى غيابى. انك فتى أحمق لا يعرف شيئا!) أيظن أنى مازلت صغيرا؟ اننى رجل فى عنفوان شبابى الآن وهو قد شاخ. إن تعليماته المتعسفة ورفضه الموافقة على أى صفقة غير عادية معناه أننا لا نحصل على المكاسب الكافية. ومن الضرورى لكى نصبح أغنياء أن نغامر قليلا.

وأنا على نقيض أبى: لدى الشجاعة وبعد النظر.

وتمتمت كيت برقة وعيناها على الطفلة:

- كم أنت شجاع وذكى يا سوبك.

- ولكنه فى هذه المرة إذا جرؤ وادعى انى مخطئ وسبنى بصوت مرتفع فانه سيسمع بعض الحقائق! وسأرحل ما لم يعطن حرية التصرف.

وأوقفت كيت يدها المنبسطة نحو الطفلة، وأدارت رأسها بحدة وقالت:

- ترحل إلى أين؟

- إلى أى مكان. انه من غير المحتمل أن يعاملنى رجل عجوز مغرور بعنف ويضايقنى ولا يعطينى الفرصة لأريه ما أستطيع عمله.

وقالت كيت بحدة:

- لا! انى أقول لا يا سوبك... ونظر إليها بدهشة وقد استرعت نبراتها انتباهه، وكان قد تعود عليها كمجرد مرافقه تهدئة لدرجة أنه كثيرا ما نسى وجودها كامرأة حية وانسانة تفكر. وقال:

- - ماذا تعنين؟

- أعنى انى لن أتركك تتصرف بحمق. إن الضيعة كلها ملك أبيك: الأرض، المحاصيل، المواشى، الخشب، حقول الكتان، كل شئ. وعند موته ستصبح كل هذا ملكك وملك ياموس وأولادكما. وإذا تشاجرت مع أبيك ورحلت فقد يقسم نصيبك بين ياموس وايبى، وهو يحب ايبى كثيرا، والفتى يعلم ذلك وسيستغله، وسيسره أن تختلف مع أمحتوب

وترحل.. يجب أن تفكر فى أولادنا.

وحدق فيها سوبك ثم أطلق ضحكة صغيرة تنم عن الدهشة وقال:

– إن المرأة دائما غامضة، ولم أكن أعرف يا كيت أن بامكانك أن تكونى بعيدة النظر هكذا.

وقالت كيت بجدية:

– لا تتشاجر مع أبيك.. لا ترد عليه وكن حكيما لفترة أطول.

– قد تكونين على حق، ولكن هذا قد يستغرق سنوات طويلة، يجب أن يشركنا أبى معه.

وهزت كيت رأسها وقالت:

– انه لن يفعل هذا. انه يجب أن يقول إننا نأكل خبزه ونعتمد عليه ولا نستطيع شيئا بدونه.

ونظر إليها سوبك بفضول وقال:

– أنت لا تحبين أبى يا كيت.

وانحنت كيت مرة أخرى نحو طفلتها وقالت لها:

– تعالى يا حبيبتى أنظرى ها هى دميتك. تعالى إذن تعالى.

ونظر إليها سوبك بحيرة ثم خرج.

* * *

أرسلت أسا فى طلب حفيدها ايبى وهو فتى وسيم يبدو عليه التذمر. ووقف أمامها وهى توبخه فى صوت مرتفع وحاد وتنظر إليه بعينيها الضعيفتين الماكرتين.

- ما هذا الذى أسمعه؟ انك ترفض أن تفعل هذا وذاك؟ أنت لا تريد أن تعنى بالثيران، ولا تحب أن تذهب مع ياموس أو تلاحظ المزرعة؟ ماذا سيحدث إذا سمح لطفل مثلك أن يملى إرادته؟

وقال ايبى بعبوس:

- لم أعد طفلا.. لقد كبرت فلماذا أعامل كطفل! يطلب منى أن أعمل هذا أو ذاك دون أخذ رأيى ولا أعطى مصروفا خاصا. ان ياموس دائما يأمونى فمن يظن نفسه؟

- أنه أخوك الأكبر وهو المسئول أثناء غياب ابنى امحتوب.

- ان ياموس غبى -غبى وبليد- وأنا أذكى منه. وسوبك أيضا غبى مع أنه يتفاخر ويتحدث عن ذكائه! وأبى أرسل خطابا قال فيه انى سأختار العمل الذى أعمله.

وقاطعته أسا العجوز:

- وهذا يعنى أنك لن تعمل.

- وانى يجب أن أعطى طعاما وشرابا أكثر، وانه إذا سمع انى غير راض وأنى لا أعامل معاملة طيبة فسيغضب جدا... وابتسم ابتسامة خبيثة.

وقالت أسا:

- أنت ولد تالف وسأقول هذا لابنى أمحتوب.

- لا.. لا يا جدتى لن تفعلى ذلك... وتغيرت ابتسامته وأصبحت ملاطفة ولو أنها ممزوجة بقليل من الوقاحة. ومضى يقول: أنت وأنا يا جدتى الأذكياء فى هذه العائلة.

- يا لوقاحتك.

- أن أبى يعتمد على رأيك ويعرف أنك حكيمة.

- قد يكون هذا صحيحا -فى الواقع هو كذلك. ولكنى لا أحتاج إليك لتخبرنى بذلك.

وضحك ايبى وقال:

- من الخير أن تكونى فى صفى يا جدتى.

- ما هذا الكلام عن الأحلاف؟

- ان أخوى الكبيرين متذمران -ألا تعلمين ذلك؟ ولكنك بالتأكيد تعلمين، فهينيت تخبرك بكل شئ. وسوبك توسوس لياموس ليلا ونهارا حيثما تجده. وسوبك قد استغفل فى صفقة الخشب وخائف من ثورة أبى عندما يكتشف هذا. سترين يا جدتى أنى سأصبح شريكا لابى فى خلال سنة أو سنتين وسيفعل كل ما أريده.

- أنت! أصغر أفراد الأسرة.

- ما أهمية السن؟ ان السلطة فى يدى أبى وأنا الذى أستطيع أن أجاريه.

- هذا كلام شرير.

قال ايبى بهدوء:

- أنت ذكية يا جدتى وتعلمين جيدا أن ابى -برغم كلامه الكثير- فى الواقع رجل ضعيف.

وسكت فجأة وقد لاحظ أن أسا حركت رأسها وأنها تنظر خلفه،

وأدار رأسه ووجد هينيت واقفة قريبا خلفه. وقالت هينيت بصوتها الخافت الباكى:

- وهكذا امحتوب رجل ضعيف! ولن يسره على ما أعتقد أن يسمع انك قلت هذا عنه.

وأطلق ايبى ضحكة سريعة مرتبكة وقال:

- ولكنك لن تخبريه بهذا يا هينيت العزيزة، عدينى..

وانزلقت هينيت نحو أسا وارتفع صوتها بنغمته التى تشوبها نبرة باكية:

- بالطبع فانا لا أحب إثارة المتاعب -وأنت تعرف هذا. أنا مخلصة لكم جميعا. انى لا أريد أبدا أى شئ إلا إذا اعتقدت انه من واجبى..

وقاطعها ايبى:

- كنت أداعب جدتى فحسب، وسأقول ذلك لابى وسيعرف انى لا يمكن أبدا أن أقول شيئا من هذا القبيل جديا.

وأومأ برأسه لهينيت إيماءة خفية حادة وخرج من الغرفة. ونظرت هينيت خلفه وقالت لأسا:

- فتى طيب وقد كبر. كم يتكلم بشجاعة.

وقالت أسا بحدة:

- انه يتكلم كلاما خطيرا، ولا أحب الأفكار التى تدور فى رأسه.. إن ايبى يدلله كثيرا.

- ومن لا يفعل ذلك؟ انه فتى جميل وجذاب.

وقالت أسا بحدة:

- إن الجمال هو جمال الأفعال.

وسكتت لحظة أو لحظتين ثم قالت ببطء:

- هينيت انى قلقة.

- قلقة يا أسا؟ ماذا يقلقك؟ على أى حال سيعود السيد قريبا وعندئذ سيكون كل شئ على ما يرام.

- أحقا؟ انى أتساءل...

وسكتت مرة أخرى ثم قالت:

- هل حفيدى ياموس فى المنزل؟

- لقد رأيته يتجه نحو الشرفة منذ لحظات.

- اذهبى وقولى له انى أريد محادثته.

وذهبت هينيت واستدعت ياموس من الشرفة ذات الأعمدة المزينة. ولبى ياموس رغبة جدته بسرعة.

وقالت أسا باقتضاب:

- ياموس.. سيصل امحتوب قريبا جدا.

واستنار وجه ياموس الطيب وقال:

- نعم سيكون هذا شيئ طيب حقا.

- هل كل أمر يخصه فى مكانه؟ هل ازدهرت الأعمال.

- لقد نفذت تعليمات أبى على قدر المستطاع.

- وماذا بشأن ابى؟

وتنهد ياموس:

- ان أبى يسرف فى تدليله وهذا ليس من مصلحة الفتى.

- يجب أن توضح هذا لامحتوب..

وبدا الشك على ياموس وقالت أسا بحزم: سأساعدك.

وقال ياموس وهو يتنهد:

- أحيانا يبدو أنه لا يوجد إلا المتاعب، ولكن كل شئ سيكون على ما يرام عندما يعود أبى، ويستطيع أن يتخذ قراراته بنفسه عندئذ. فمن الصعب أن أتصرف كما يريد فى غيابه، خصوصا وأننى ليس لدى سلطة حقيقية وإنما أتصرف فقط كنائبه.

وقالت أسا ببطء:

- أنت ولد طيب، مخلص ودود. كما انك أيضا زوج طيب، وقد عملت بالمثل الذى يقول إن الرجل يجب أن يحب زوجته ويهيئ لها بيتا ويطعمها ويكسوها ويجلب لها عطورا غالية لزينتها ويسعدها طوال حياتها. ولكن هناك قولا يأتى بعد ذلك فى المثل وهو (ويمنعها من السيطرة). ولو كنت مكانك يا حفيدى لعملت بهذا القول الأخير.

ونظر إليها ياموس واحمر وجهه بشدة واستدار وخرج.



الشهر الثالث من الفيضان، اليوم الرابع عشر

كانت فى كل مكان ضوضاء واستعدادات. ففى المطبخ تم خبز مائه رغيف، والآن كان يجرى تحمير البط، وكانت تنبعث من هناك رائحة البصل وبعض التوابل المختلفة. النساء كن يصرخن ويصدرن الأوامر والخدم يهرعون هنا وهناك.

وفى كل مكان كانوا يتهامسون:

– السيد سيصل.

وشعرت رينسنب بسعادة وانفعال وهى تساعد فى تنسيق باقات من الورد واللوتس. فان والدها عائد الى البيت، وفى خلال الأسابيع القليلة الماضية كانت قد انزلقت بدون أن تشعر الى نمط حياتها القديمة، وكان الشعور الأول بوجود شئ غريب وغير مألوف، وهو انها نفس رينسنب لم تتغير –وياموس، ساتيبى، سوبك وكيت– كلهم كما كانوا دائما ولم يتغيروا –والآن، كما فى الماضى، يوجد كل هذا الضجيج والاستعدادات لرجوع امحتوب إلى بيته. وكانت قد بلغتهم إنباء بأنه سيكون بينهم قبل حلول الليل، وقد أرسلوا خادما إلى شاطئ النهر ليخطرهم بمقدم سيد البيت، وفجأة رن صوته عاليا وواضحا بالإشارة المتفق عليها.

والقت رينسنب أزهارها وجرت مع الآخرين، وهرعوا جميعا إلى المرساة على شاطئ النهر. وكان ياموس وسوبك هناك قبلهم وحولهما

مجموعة صغيرة من أهل القرية: الصيادين والفلاحين وكانوا جميعا يتصايحون ويشيرون بانفعال نحو النهر.

نعم كان هناك المركب ذات الشراع الكبير المربع آتية بسرعة من الشمال والرياح تدفعها وتملأ الشراع. وخلفها بقليل كانت مركب المطبخ المزدحمة برجال ونساء، وبعد قليل استطاعت رينسنب أن ترى والدها وهو جالس وممسك بزهرة لوتس وكان معه على ما تظن مغنية.

وتضاعف الصياح من الشاطئ، ورفع امحتوب يده محييا، وكان البحارة يشدون حبال الشراع وعلت صيحات: أهلا وسهلا بالسيد.. وانطلقت صيحات أخرى تشكر الآلهة وتحمدهم على سلامته ورجوعه إلى أسرته، وبعد فترة وجيزة نزل امحتوب إلى الشاطئ وحيا أسرته ورد على التحيات العالية التى كان يتطلبها العرف.

واندفعت رينسنب إلى الأمام وقد جرفها الحماس العام وشد امحتوب قامته وفجأة. فكرت رينسنب:

– ولكنه رجل قصير القامة، لقد كانت تتخيله أطول من ذلك بكثير.

وانتابها شعور بخيبة الأمل.

هل (انكمش أبوها؟ أو هل خانتها ذاكرتها؟ كانت قد فكرت فيه كثيرا كانسان رائع، مستبد وكثير الصخب، يملى على الجميع أوامره يمنة ويسرة وفى بعض الأحيان يثير ضحكها الخفى ولكنه مع كل هذا: شخصية بارزة. ولكن هذا الرجل البدين القصير المسن الذى يبدو عليه الشعور بأهميته،

ومع ذلك على الرغم من هذا فهو لا يروع الناس –ماذا دهاها؟

ما هذه الأفكار غير الواقعيه التى تنبثق فى رأسها.

وكان امحتوب قد فرغ من الكلمات الرنانة الرسمية، وبدأت مرحلة التحيات الخاصة. وعانق أبناءه.

- آه يا عزيزى ياموس الدائب الابتسامة -انى متأكد انك كنت مجتهدا فى غيابى..

وسوبك يا بنى الوسيم، ما تزال كما ارى مرحا، وها هو ايبى. يا أعز الناس إلى يا ايبى -دعنى انظر إليك- ابتعد- هكذا. لقد كبرت وصرت أكثر رجولة. كم أنا مبتهج لانى أضحك مرة أخرى؟ ورينسنب. يا ابنتى العزيزة -عدت مرة أخرى إلى البيت- ساتيبى وكيت إنكما لا تقلان معزة لدى عن ابنتى.. وهينيت -هينيت الوفية.

وكانت هينيت راكعة وهى تحتضن ركبتيه. وتتظاهر بمسح دموع الفرح من عينيها.

- أنا مسرور برؤيتك يا هينيت -هل أنت بخير وسعيدة؟ أنت متفانية كدأبك- هذا شئ يسر القلب.. وحورى العزيز البارع فى حساباته وكتابته.. هل ازدهرت كل الأمور؟ انى متأكد من هذا.

ثم بعد أن انتهت التحيات وهدأت الهمهمات رفع امحتوب يده طالبا السكوت، وتكلم فى صوت عال واضح:

- ابنائى الأعزاء- ويا اصدقائى لدى خبر لكم. فمنذ أعوام عديدة كما تعلمون جميعا كنت من ناحية واحدة رجلا وحيدا. فان زوجتى - والدتكم يا ياموس، وسوبك -وزوجتى الثانية- والدتك يا ايبى قد ذهبتا الى أوزوريس منذ أعوام عديدة. ولذلك فانى اتيت لكما يا ساتيبى وكيت بأخت جديدة تشاركنكن البيت. انظروا ها هى محظيتى

(نوفريت) التى ستحبونها إكراما لخاطرى. لقد جاءت معى من (ممفيس) فى الشمال وستمكث هنا معكم عندما أعاود السفر.

وبينما هو يتكلم مد يده وشد امرأة إلى الإمام، فوقفت بجانبه رافعة الرأس صغيرة جميلة ومزهوة.

وفكرت رينسنب وقد صدمتها المفاجأة (ولكنها صغيرة جدا) ربما أصغر منى سنا.

ووقفت (نوفريت) ساكنة، وعلى شفتيها ابتسامة واهنة، ابتسامة فيها تهكم أكثر من أن تكون فيها رغبة فى إعجابهم.

وكانت حواجبها طويلة سوداء ورموشها طويلة وسميكة لدرجة أن المرء لا يكاد يرى عينيها -وبشرتها برونزية زاهية.

ووقفت الأسرة وقد أخذتها المفاجأة تحدق فى سكون كالبكم. وقال امحتوب وفى صوته نبرة استياء خفيفة:

- هيا يا أولادى رحبوا بـ (نوفرت) ألا تعرفون كيف ترحبون بمحظية أبيكم عندما يأتى بها الى منزله؟

وحيوها بتلعثم وارتباك.

وتظاهر امحتوب بالبهجة التى ربما تخفى بعض عدم الارتياح وهتف بسرور: هذا أفضل.

- (نوفرت) ستأخذ ساتيبى وكيت ورينسنب إلى جناح النساء. أين الحقائب هل أنزلت الحقائب الى الشاطئ؟

وكانت الحقائب المستديرة تنقل فى هذا الوقت من المركب وقال امحتوب لنوفريت: أن جواهرك وثيابك قد وصلت بسلام. اذهبى

ورتبيها. ثم بينما ابتعدت النساء التفت إلى أبنائه.

- كيف حال الضيعة؟ هل كل شئ على ما يرام؟

وبدأ ياموس يقول:

- الحقول الجنوبية التى أجرناها (لنكيت) ولكن والده قاطعه قائلا:

- لا داعى للتفاصيل الآن يا ياموس. الليلة -ليلة سرور، وغدا أنت وأنا وحورى سنتكلم فى الأعمال. تعال هنا يا ايبى يا ولدى دعنا نمضى نحو البيت. كم طالت قامتك! أنت أطول منى.

ومشى سوبك عابسا وراء أبيه وايبى، وهمس فى اذن ياموس. - جواهر وثياب- هل سمعت هذا؟ فيهما ذهبت المكاسب من الضيعة الشمالية. مكاسبنا نحن.

وهمس ياموس:

- صه سيسمعك أبى.

وفى المنزل جاءت هينيت إلى غرفة امحتوب لتجهز له الحمام، وكانت الابتسامة تملأ وجهها. وتخلى امحتوب عن تظاهره بالمرح وقال:

- حسنا يا هينيت ما رأيك فيمن اخترتها.

ولو أنه كان قد صمم على فرض رأيه بالقوة فانه كان يعرف جيدا أن مجئ (نوفرت) سيثير زوبعة -على الأقل فى جناح النساء بالمنزل. ولكن هينيت كانت مختلفة- فهى مخلوقة مخلصة ومتفانية للغاية. ولم تخيب أمله فيها وقالت:

- انها جميلة، جميلة تماما.. يا لجمال شعرها وقوامها! إنها جديرة بك يا أمحتوب. وما بوسعى أن أقول أكثر من هذا؟ ان زوجتك

العزيزة التى ماتت ستكون سعيدة لأنك اخترت مثل هذه الرفيقة لتسعد أيامك.

- هل تعتقدين هذا يا هينيت؟

- انى متأكدة من هذا يا امحتوب. وبعد أن حزنت عليها كل هذه السنين آن الأوان لتستمتع مرة أخرى بالحياة.

- أنك كنت تعرفينها جيدا.. وأنا أيضا شعرت أنه قد آن الأوان لأعيش كما يجب أن يعيش الرجل -أية! إن زوجات أبنائى وابنتى- ربما سيشعرون ببعض الاستياء من هذا؟

وقالت هينيت، من الأفضل لهن ألا يحدث هذا ألا يعتمدون جميعا عليك فى هذا المنزل؟

وقال امحتوب:

- هذا حق.

- إنك تطعمهم وتكسوهم من خيراتك -ورفاهيتهم من ثمار جهودك وحدك.

- نعم هذا صحيح.. وتنهد امحتوب وقال: انى دائما أعمل من أجلهم وفى بعض الأحيان أتساءل عما إذا كانوا يدركون كل ما أدينهم به.

- يجب أن تذكرهم بذلك... وهزت هينيت رأسها وتابعت حديثها: أنا خادمتك المخلصة هينيت، لا أنسى أبدا ما أنا مدينة به لك -ولكن الأولاد فى بعض الأحيان يكونون أنانيين ولا يفكرون الا بانفسهم، وربما يظنون أنهم هم المهمون ولا يدركون أنهم فقط ينفذون تعليماتك التى

أصدرتها.

وقال امحتوب:

- هذا صحيح، لقد قلت دائما انك مخلوقة ذكية يا هينيت.

وتنهدت هينيت:

- لو كان الآخرون يفكرون هكذا.

- ما معنى هذا؟ هل كان أحد منهم قاسيا معك؟

- لا.. لا. -أعنى أنهم لا يعنون هذا- أنهم ينتظرون كأمر طبيعى أن أعمل بدون انقطاع- وأنا سعيدة بأن أعمل كذلك- ولكن كلمة طيبة وبعض التقدير تجعلان الأمور مختلفة تماما.

وقال امحتوب:

- ستجديهما دائما عندى، وتذكرى دائما إن هذا هو بيتك.

- إنك كريم جدا يا سيدى... وسكتت برهة ثم أضافت: إن العبيد موجودون فى الحمام وقد جهزوا الماء الساخن- وبعد أن تستحم وتلبس تريد منك والدتك أن تذهب إليها.

- آه والدتى؟ نعم -نعم بالطبع..

وبدا على أمحتوب فجأة الارتباك وأخفاه بأن قال بسرعة:

- بالطبع -لقد كنت أنوى أن- أخبر أسا أنى سآتى.

* * *

جلست أسا مرتدية ثوبها اللينون ذا الثنيات، وحدقت فى ابنها ببعض التهكم وقالت: مرحبا يا امحتوب. وهكذا فقد عدت إلينا -وكما

سمعت لم تعد وحيدا.

وشد امحتوب قامته وقال ببعض الخجل: آه وهكذا فقد سمعت؟

- بالطبع. ان المنزل يعج بالخبر ويقال أن الفتاة جميلة وصغيرة جدا.

- أنها فى التاسعة عشرة -ليست قبيحة.

وضحكت أسا -ضحكة عجوز حقود.

وقالت:

- آه حسنا لا يوجد مغفل مثل مغفل عجوز.

- يا أمى العزيزة انى لا أفهم ما تعنين.

وقالت أسا بهدوء:

- أنك كنت دائما مغفلا يا أمحتوب.

وشد أمحتوب قامته وبدأ يتكلم بتلعثم وبغضب، فمع أنه فى العادة كان يشعر بأهميته، فان أمه كانت دائما تشعره بتفاهته، ويحسن فى حضورها بأنه يتضاءل. ومع أنه كان يعرف أن تقديره لنفسه هو التقدير الصحيح، وان تقدير والدته هو نظرة سخيفة لا قيمة لها من أم فان موقفها على الرغم من ذلك كان يزعزع ثقته فى نفسه وسعادته بأهميته.

وقال:

- هل من غير المألوف لرجل أن يحضر محظية إلى بيته؟

- ليس غريبا فالرجال فى العادة مغفلون.

– أنا لا أرى أية غفلة فى هذا.

– هل تتصور أن وجود الفتاة سيسبب انسجاما بين أفراد المنزل؟ ان ساتيبى وكيت ستثوران وتثيران غضب زوجيهما.

– وما شأنهم بذلك؟ ما حقهم فى الاعتراض؟

– لا حق لهم.

وبدأ امحتوب يذرع الغرفة ذهابا وإيابا.

ألا أستطيع أن أفعل كما أشاء فى بيتى؟ إلا أصرف على ابنائى وزوجاتهم؟ ألا يدينون لى بكل شئ حتى بالخبز الذى يأكلونه؟ ألا أقول لهم هذا باستمرار؟

– انك تحب أن تردد هذا أكثر من اللازم يا امحتوب.

– أنها الحقيقة. أنهم جميعا يعتمدون على.. جميعا!

– وهل أنت متأكد أن هذا شئ طيب؟

– هل تقولين أنه ليس شيئا طيبا أن ينفق الرجل على عائلته؟

وتنهدت أسا وقالت:

– أنهم يعملون من أجلك. تذكر.

– وهل تريدين أن أشجعهم على الكسل؟ بالطبع هم يعملون.

– أنهم قد أصبحوا رجالا –على الأقل ياموس وسوبك– لقد كبرا.

– أن سوبك ليس حكيما. وكل ما يفعله خطأ، والى جانب هذا فهو قبيح جدا، وأنا لا أقبل هذا. أما ياموس فولد طيب مطيع.

- انه أكبر من أن يكون ولدا.

- ولكنى فى بعض الأحيان اضطر إلى أن أكرر عليه الأمور مرتين أو ثلاثة حتى يفهم. إن على أن افكر فى كل شئ وأن أكون فى كل مكان! وفى كل الأوقات التى أكون بعيدا فيها أملى للكتبة تعليمات مفصلة، حتى يستطيع أولادى تنفيذها.. انى لا أكاد ارتاح -انى لا أكاد أنام! والآن عندما أعود إلى البيت وقد أصبح من حقى أن أنال بعض الراحة أواجه متاعب جديدة! حتى أنت يا أمى تنكرين على حقى فى أن تكون لدى محظية مثل باقى الرجال. أنت غاضبة.

وقاطعته أسا:

- انى لست غاضبة. أنى اتسلى. فستكون هناك مباريات لطيفة يتفرج عليها المرء فى هذا البيت -ولكنى مع كل أقول انه عندما تذهب الى الشمال مرة أخرى فمن الأفضل أن تأخذ الفتاة معك.

- إن مكانها هنا فى بيتى! وويل لمن يجرؤ على إساءة معاملتها.

- ليست المسألة إساءة معاملة. ولكن تذكر أنه من السهل إشعال الحريق فى الخشب الجاف ويقال عن النساء (إن المكان الذى يكن فيه ليس مكانا طيبا).

وصمتت برهة ثم قالت ببطء:

- إن (نوفريت) جميلة ولكن تذكر هذا القول أن الرجال يستغفلون بالقوام البراق الجميل للنساء ولكن أنظر -فى دقيقة يصبحن كالعقيق الذى فقد لونه.. وازداد عمق صوتها وهى تكمل القول، شئ بسيط وقيل مثل الحلم ويأتى الموت كنهاية المطاف.

الشهر الثالث من الفيضان، اليوم الخامس عشر

استمع امحتوب لإيضاحات سوبك عن بيع الخشب فى صمت ينذر بالسوء، وكان وجهه قد احمر جدا وراحت نبضة صغيرة فى جبينه تدق بسرعة.

وبدأ سوبك يفقد مظهر اللامبالاة، وكان قد قرر أن يترك الأمر يمر كأنه شئ هين، ولكنه أمام وجه أبيه الذى يزداد عبوسا وجد نفسه يتلعثم ويتردد.

وأخيرا قاطعه امحتوب بصبر نافذ، نعم. نعم. نعم. نعم -لقد اعتقدت أنك تعرف أكثر منى- لقد خالفت تعليماتى هذا هو نفس الشئ دائما- ما لم أكن هنا لأشرف على كل شئ. وتنهد لا يمكن أن أتصور ما سيجرى لكم يا أولاد بدونى!.

ومضى سوبك يقول بعناد:

- كانت هناك فرصة لتحقيق ربح أكبر -ولقد غامرت. إن المرء لا يمكن أن يكون دائما حريصا وشحيحا.

- أنك لا تتصف بشئ من الحرص يا سوبك! إنك دائما متهور ومندفع أكثر من اللازم وتقديرك دائما خاطئ.

- وهل تتاح لى أبدا فرصة ممارسة تقديرى؟

وقال امحتوب بجفاء:

- لقد فعلت هذا فى هذه المرة -مخالفا أوامرى المحددة.

- أوامر؟ وهل على أن أتقبل دائما الأوامر؟ لقد أصبحت رجلا بالغا.

وفقد امحتوب أعصابه وصاح: من يطعمك ويكسوك؟ من يفكر فى المستقبل؟ من لا تغيب عن ذهنه مصلحتك- بل مصلحتكم جميعا؟ وعندما انخفضت مياه النهر وكنا مهددين بالمجاعة ألم أدبر إرسال طعام لكم من الشمال؟ أنكم سعداء الحظ لان لكم أبا مثلى- يفكر فى كل شئ وما الذى اطلبه مقابل هذا؟ فقط أن تعملوا بجهد وبأقصى ما فى وسعكم وتطيعوا التعليمات التى أرسلها لكم.

وهتف سيوبك، نعم علينا أن نعمل من أجلك كالعبيد -لكى تستطيع أن تشترى جواهر وذهبا لمحظيتك؟

وتقدم امحتوب وهو ملئ بالغضب:

- أيها الولد الوقح -أتتكلم مع أبيك بهذه الطريقة. احذر وإلا سأقول إن هذا لم يعد بيتك- وأن عليك أن تذهب إلى مكان آخر.

- إذا لم تأخذ أنت حذرك فانى سأرحل.. إن لدى أفكارا، كما أقول لك، أفكارا طيبة -تجلب الثروة لو لم أكن مقيدا بالحرص ولا يسمح لى بأن أعمل ما أريد.

- هل فرغت من الكلام؟

كانت نبرات امحتوب تنذر بالسوء. وغمغم سوبك بغضب وقد هبط حماسه قليلا:

- نعم. نعم، ليس لدى ما أقوله أكثر من هذا -الآن.

- إذن اذهب واعتن بالماشية. فليس هذا وقت اللهو.

واستدار سوبك ومشى بسرعة غاضبا وكانت (نوفريت) واقفة قريبا، وعندما مر بجانبها أدارت وجهها إلى جانب وضحكت، وعندما سمع ضحكتها صعد الدم إلى وجه سوبك -ومشى نحوها خطوة. ووقفت ساكنة تماما وهى ما زالت تنظر اليه بازدراء بعينيها نصف المقفلتين.

وتمتم سوبك بشئ بين أسنانه، ثم مضى فى اتجاهه الاصلى. وضحكت (نوفريت) مرة أخرى ثم مضت ببطء الى حيث كان أمحتوب يوجه انتباهه لياموس.

قال أمحتوب:

- ماذا دهاك؟ لم تركت سوبك يتصرف بهذه الطريقة الهوجاء؟ كان يجب أن تمنع هذا! أنه يعتقد أن كل شئ سيصير مثلما يريد.

وقال ياموس معتذرا:

- انك لا تدرك الصعاب التى أواجهها يا أبى. انك قلت لى أن أعهد الى سوبك ببيع الخشب، ولذلك كان من الضرورى أن أترك له حرية الرأى والتصرف.

- وأى تصرف؟ انه لا رأى ولا تمييز لديه! أن عليه أن ينفذ تعليمالتى- وعليك أنت أن تتأكد من أنه يفعل هذا.

واحمر وجه ياموس، أنا؟ وما سلطتى أنا؟

- أى سلطة؟ السلطة التى أعطيها لك؟

- ولكن ليس لى مركز حقيقى فلو اننى كنت شريكا لك قانونا -ولم

يتابع حديثه لان (نوفريت) وصلت وكانت تتثاءب وتلعب بوردة حمراء فى يدها وقالت:

- ألن تأتى إلى الكوخ الصغير بجانب البحيرة يا أمحتوب؟ إن الجو هناك رطب وهناك فاكهة وبيرة فى انتظارك. أنك بالتأكيد فرغت من إصدار أوامرك.

- بعد دقيقة يا (نوفريت) -بعد دقيقة.

وقالت نوفريت فى صوت رقيق عميق:

- تعال الان -انى أريد أن تأتى الآن..

وبدا على امحتوب السرور وقليل من الخجل، وقال ياموس بسرعة قبل أن يتكلم أبوه:

- لنتكلم فى هذا أولا -أنه شئ مهم وأنا أريد أن اطلب منك.

ووجهت (نوفريت) حديثها إلى امحتوب مباشرة وقد أولت ياموس ظهرها، إلا تستطيع أن تفعل ما تريده فى بيتك؟

وقال امحتوب بحدة لياموس: فى وقت أخر يا ولدى- فى وقت أخر.

وذهب مع (نوفريت) ووقف ياموس ينظر اليهما من الشرفة، وخرجت ساتيبى من المنزل ولحقت به.

وسألت بلهفة: حسنا هل تكلمت معه؟ ماذا قال؟

وتنهد ياموس وقال: لا تكونى عجولة يا ساتيبى. لم يكن الوقت مناسبا.

وهتفت ساتيبى بغضب: آه نعم -هذا ما تقوله أنت! هذا ما تقوله دائما. والحقيقة هى انك خائف من أبيك -أنت جبان مثل الخروف- أنت تكلمه بخوف -انك لا تقف فى مواجهته مثل الرجال! الا تتذكر ما وعدتنى به (انى أقول لك انى أكثر منك رجولة! أنت تعد- وتقول سأطلب من أبى -فى الحال- فى أول يوم ثم لا يحدث شئ.

وتوقفت ساتيبى -لتأخذ نفسها وليس لأنها فرغت من الكلام- ولكن ياموس قاطعها بلطف:

(أنت مخطئة يا ساتيبى. لقد بدأت أتكلم- ولكننا قوطعنا..

- من قاطعك؟

- (نوفريت).

- (نوفريت)! هذه المرأة أما كان يحق لأبيك أن يسمح لخطيبته بمقاطعته عندما يتكلم مع ابنه الأكبر فى الأعمال. إن النساء لا يجب أن يقحمن أنفسهن فى الأعمال.

وكان ياموس فى الغالب يتمنى لو أن ساتيبى اتبعت هذا المبدأ الذى كانت تتكلم عنه، ولكن لم تتح له فرصة الكلام فمضت زوجته تقول: يجب على أبيك أن يفهمها هذا فى الحال.

وقال ياموس بجفاء: لم تبد على أبى أية علامة امتعاض.

وقالت ساتيبى: إن هذا أمر مخجل. أنها سحرت أباك تماما. أنه يتركها تقول وتفعل ما تشاء.

وقال ياموس مفكرا: أنها جميلة جدا.

وتهكمت ساتيبى، آه إن لها بعض الجمال، ولكن ليس لديها شئ من

آداب السلوك. ولا أية تربية! وهى لا يهمها إلى أى درجة هى وقحة معنا كلنا.

– ربما لأنك لست مؤدبة معها.

– انى كلى أدب. وأعاملها بكل ذوق. آه لن تجد ما تشكو منه لأبيك. فكيف نستطيع نحن أن ننتظر حتى يحين الوقت المناسب لنا.

ونظر إليها ياموس بحدة وقال: ماذا تعنين بوقتكم المناسب؟

وضحكت ساتيبى ضحكة لها مغزى وهى تبتعد: ما أعنيه هو معنى نسائى -لن تفهمه. أن لنا طرقنا الخاصة، أسلحتنا! أن (نوفريت) تحسن صنعا إذا هى حدت من وقاحتها. فما حياة المرأة فى الواقع؟ إن حياتها تمضيها فى الجزء الخلفى من المنزل- بين النساء الأخريات.

وكان هناك معنى معين فى لهجة ساتيبى وأضافت:

– لن يكون أبوك هنا دائما- سيرحل مرة أخرى الى أراضيه فى الشمال. وعندئذ سنرى.

– ساتيبى.

وضحكت ساتيبى -ضحكة عالية قاسية- ورجعت ثانية إلى المنزل.

* * *

كان الأطفال يجرون ويلعبون بجانب البحيرة: أبناء ياموس ولدان وسيمان يشبهان ساتيبى أكثر من أبيهم، ثم أولاد سوبك الثلاثة – وأصغرهم طفل صغير جدا ثم تيتى طفلة جميلة عمرها أربع سنوات.

كانوا يضحكون ويتصايحون ويقذفون الكور- وبين حين وآخر كانوا يتشاحنون وينبعث عنهم صراخ صبيانى حاد.

وهمس امحتوب وهو جالس يحتسى البيرة ونوفريت بجانبه: كم يحب الأولاد اللعب بجوار الماء. ان هذا كان رأيهم دائما كما أتذكر، ولكن وحق هاتور ما أكثر الصخب الذى يثيرونه.

وقالت نوفريت بسرعة: نعم وكم من الممكن أن يكون المكان هادئا.. لماذا لا تقول لهم أن يبتعدوا عندما تكون هنا؟ فعلى أى حال عندما يحتاج سيد المنزل الى الراحة يجب أن تحترم رغبته. ألا توافقنى؟

– أنا –حسنا. وتردد أمحتوب فقد كانت هذه فكرة جديدة عليه ولكنها سرته، ثم أكمل حديثه قائلا بشك:

– أنهم فى الحقيقة لا يضايقوننى. وأضاف بضعف أنهم معتادون على اللعب هنا دائما كيفما يشاءون.

وقالت نوفريت بسرعة، عندما تكون بعيدا عن هنا –نعم لا مانع، ولكنى أعتقد يا امحتوب انه نظرا لكل ما تعمله من أجل عائلتك يجب عليهم أن يظهروا شعورا أكثر بأهميتك وكرامتك. انك لطيف ومتساهل أكثر من اللازم.

وتنهد امحتوب بوداعة وقال: إن هذه كانت غلطتى دائما فأنا لا أهتم أبدا بالشكليات.

ولذلك أرى هؤلاء النسوة زوجات أبنائك يستغللن طيبتك. يجب أن يفهمن أنك عندما تجئ هنا لتستريح يجب أن يكون هنا سكون وراحة أنظر سأذهب وأقول لكيت أن تأخذ أولادها والأولاد الآخرين بعيدا. وبعد ذلك سيتسنى لك الراحة ورخاء البال هنا.

– انك تعنين بى يا (نوفريت) نعم فتاة طيبة. أنك تفكرين دائما فى راحتى. وغمغمت نوفريت إن سعادتى من سعادتك.

ونهضت وذهبت حيث كانت كيت راكعة بجوار المياه تلعب بنموذج صغير لمركب وكان ابنها الثانى وهو ولد يبدو عليه أنها دللته، يحاول أن يسيره على الماء.

قالت نوفريت بجفاء: هلا أخذت الأطفال بعيدا يا كيت؟

وحدجتها كيت بدون أن تفهم وقالت:

- بعيدا؟ ماذا تعنين؟ أنهم يلعبون هنا دائما.

- ليس اليوم فان امحتوب يريد الهدوء وأولادك هؤلاء يثيرون جلبة.

وأحمر وجه كيت العريض وقالت: هذبى طريقة كلامك يا (نوفريت) إن امحتوب يحب أن يرى أحفاده يلعبون هنا، ولقد قال هذا من قبل.

قالت نوفريت: ليس اليوم فلقد بعثنى لأقول لك أن تأخذى كل هذه العصبة الصاخبة إلى المنزل ليستطيع أن يجلس فى هدوء معى.

- معك؟ وتوقفت كيت فجأة عن متابعة حديثها، ثم نهضت ومضت الى حيث كان امحتوب نصف جالس ونصف راقد. وتبعتها نوفريت.. وتكلمت كيت بدون مواربة، إن محظيتك تقول أن على أن أخذ الأولاد بعيدا عن هنا؟ لماذا؟ ما الخطأ الذى يفعلونه؟ لاى سبب يجب أن ينفوا!؟

وقالت نوفريت برقة: كنت أظن أن رغبة سيد المنزل كافية.

وقال امحتوب مشاكسا: بالضبط -بالضبط لماذا ابدى أسبابا؟ منزل من هذا؟

- أعتقد أنها هى التى تريد ابعادهم. واستدارت كيت ونظرت الى نوفريت من رأسها إلى قدميها. وقال امحتوب ان نوفريت تفكر فى

راحتى -وسروری. لا يهتم بها أى شخص آخر فى هذا المنزل، ربما باستثناء هينيت المسكينة.

- وهكذا فان الأطفال لن يسمح لهم باللعب هنا بعد ذلك؟

- ليس عندما اتى هنا للراحة.

وانفجر غضب كيت فجأة وقالت: لماذا تدع هذه المرأة تثيرك على أهلك؟ لماذا تأتى هنا وتتدخل فى أساليب حياتنا- فى الأمور التى كانت تجرى دائما.

وفجأة بدا امحتوب يصيح. وقد شعر أن عليه أن يبرئ نفسه:

- أنا الذى أقول ما يعمل به هنا -وليس أنت! أنكم كلكم متفقون على عمل ما تريدون وعلى ترتيب الأمور كيفما تشاءون. وعندما أعود أنا سيد المنزل، لا تهتمون كما يليق برغباتى. ولكن وأنا السيد هنا، دعينى أقول لك هذا -أنا دائب العمل والتخطيط من أجلكم ومن أجل رفاهيتكم، ولكن هل تمتنون لى وهل تحترم رغباتى؟ كلا. أولا يتكلم سوبك بوقاحة وقلة احترام؟ والآن أنت يا كيت تحاولين أن تتسلطى على، لماذا أنفق عليكم جميعا؟ احذرى -وإلا كففت عن الإنفاق عليكم؟ أن سوبك يتحدث عن الرحيل -إذن دعيه يرحل ويأخذك أنت والأولاد معه.

ولبرهة وقفت كيت ساكنة تماما. ولم يظهر أى تعبير على وجهها. ثم قالت فى صوت لا أثر لأى شعور فيه سآخذ الأطفال إلى داخل المنزل.

وخطت خطوة أو خطوتين وتوقفت بجانب نوفريت وقالت لها بصوت منخفض: ان هذا نتيجة عملك يا نوفريت. لن أنسى. كلا لن أنسى.

الشهر الرابع من الفيضان، اليوم الخامس

تنفس امحتوب بارتياح عندما انتهى من واجباته الرسمية ككاهن القبر. لقد أدى الطقوس بكل تفاصيلها الدقيقة -لان امحتوب كان رجلا ذا ضمير من جميع النواحى. لقد سكب القرابين من الخمر وأحرق البخور وقدم الطعام والشراب كما تقتضيه العادات.

والآن فى ظلال الغرفة الحجرية القريبة بجوها الرطب حيث كان حورى ينتظره، أصبح امحتوب مرة أخرى رجل الأعمال وصاحب الأرض.

وجلس الرجلان معا يتناقشان فى الأعمال والأسعار والمكاسب العائدة من المحاصيل والماشية والخشب.

وبعد نحو نصف ساعة أومأ امحتوب برضاء وقال:

- انك بارع فى الأعمال يا حورى.

وابتسم الاخر وقال: يجب أن أكون كذلك يا أمحتوب- فأنا رجل أعمالك منذ عدة سنوات.

- وأنت مخلص جدا. والآن هناك أمر أريد أن أناقشك فيه. أنه يخص ايبى فهو يشكو من أن مركزه صغير.

- أنه مازال صغيرا جدا.

– ولكنه أبدى مقدرة كبيرة وهو يشعر أن أخويه يظلمانه، فيبدو أن سوبك متغطرس وقاس وأن ياموس بحرصه المستمر واجحافه يثيره. إن ايبى له شخصية وهو لا يحب أن يتلقى الأوامر، وعلاوة على ذلك فهو يقول اننى أنا فقط والده، الذى لى الحق فى إصدار الأوامر.

وقال حورى، هذا صحيح، ولقد لاحظت يا امحتوب أن هذه نقطة ضعف فى إدارة الضيعة. هل تسمح لى بالكلام بحرية؟

– بالطبع يا عزيزى حورى. إن كلامك دائما ذو روية وحكمة.

– إذن انى أقول هذا: فى غيابك يا امحتوب يجب أن يوجد شخص هنا له سلطة حقيقية.

– انى أوكل أعمالى لك وليا موس.

– أعرف أننا نعمل بالنيابة عنك فى غيابك –ولكن هذا ليس كافيا. لماذا لا تعين أحد أبنائك كشريك بوثيقة قانونية.

وذرع امحتوب الغرفة ذهابا وإيابا وهو عابس.

– من من أولادى ترشحه؟ إن سوبك له طريقة توحى بالسلطة – ولكنه يخالف أوامرى– ولا يمكن أن أثق فيه. أن طباعه ليست طيبة.

– كنت أفكر فى ياموس فانه أكبر أولادك وهو له طباع هادئة وودودة وهو شديد الإخلاص لك –نعم أن طباعه طيبة– ولكن تنقصه الجرأة– وهو مسالم لدرجة كبيرة، ويتساهل مع الجميع.. ولو كان ايبى فقط أكبر قليلا..

وقال حورى بسرعة: إن من الخطر أن تعطى السلطة لشاب صغير جدا.

- تماما -تماما- حسنا يا حورى سأفكر فيما قلته لى فياموس بالتأكيد ابن بار.. ابن مطيع.

وقال حورى بلطف ولكن بإصرار: ستكون على ما أظن حكيما إذا فعلت ذلك.

ونظر اليه امحتوب بفضول:

- ماذا يدور فى رأسك يا حورى؟

وقال حورى ببطء: لقد قلت الآن انه من الخطر أن نعطى السلطة لشاب صغير جدا ولكنه أيضا من الخطر إعطاؤها للرجل بعد فوات الأوان.

- هل تعنى أنه سيكون قد تعود على إطاعة الأوامر وليس على إصدارها؟ حسنا ربما كنت على حق فى هذا.

وتنهد امحتوب وأضاف، انه لعمل صعب أن تحكم عائلة! والنساء بالأخص من الصعب حكمهن. ساتيبى لا تتحكم فى أعصابها، وكيت فى أغلب الأحيان عابسة. ولكنى أوضحت لهن أنه يجب معاملة نوفريت بطريقة لائقة. وأعتقد انى يجب أن أقول إن..

وتوقف فان عبدا كان يأتى مسرعا صاعدا الطريق الضيق.

- ما هذا؟

- سيدى -وصلت مركب وعليها كاتب يدعى كامانى جاء برسالة من ممفيس.

ونهض امحتوب صاخبا وهتف قائلا: متاعب أخرى، أكيد كما يسرى رع فى السماوات.

ان هذا يعنى متاعب أخرى! ما لم أكن موجودا لأرى الأمور تسير

كل شئ معوجا.

ومضى وهو يدق الطريق وجلس حورى ساكنا ينظر إليه وكان القلق باديا على وجه حورى.

* * *

كانت رينسنب تتجول بدون هدف على شاطئ النيل. عندما سمعت الصياح والضجيج، ورأت أشخاصا يهرعون نحو المرسى.

فأسرعت وانضمت إليهم، وكان هناك شاب واقف فى القارب الذى كان يقترب من الشاطئ، وحينما رأته فى ضوء النهار الباهر أسرعت نبضات قلبها وراودتها فكرة مجنونة غير معقولة.

خيل إليها أنه فاى. فاى وقد رجع من العالم الأخر.

ثم ضحكت من نفسها لهذه الفكرة الخرافية. لقد تصورت هذا اللا معقول لأنها كانت تتذكر فاى دائما وهو مبحر على النيل وهذا الشاب كان له قوام فاى. وكان هذا الرجل أصغر من فاى وكان له وجه ضاحك بهيج وقوام ممشوق رشيق.

وأخبرهم انه أتى من ممتلكات أمحتوب فى الشمال وأنه كاتب يدعى كامانى.

وأرسل عبدا لإخبار أبيها، وأخذوا كامانى إلى المنزل حيث قدموا له طعاما وشرابا وبعد قليل حضر والدها وتكلموا كثيرا وتشاوروا.

وتسرب مضمون هذا الحديث كالمعتاد إلى جناح النساء عن طريق هينيت جالبة الأنباء. وكانت رينسيب تتساءل أحيانا بدهشة كيف أن هينيت تستطيع دائما أن تعرف كل ما يجرى.

كان كامانى كما قال، كاتبا شابا فى خدمة امحتوب وابن قريب له. وقد اكتشف كامانى بعض التدابير استعدادا للاختلاسات -وتزويرا فى الحسابات. وبما أن الأمر كانت له عدة شعب، وكان يمس نظار الزراعة فقد فكر أنه من الأفضل أن يأتى شخصيا إلى الجنوب ليقدم تقريره.

لم تهتم رينسنب كثيرا بالأمر. فكرت أنها براعة من كامانى أن يكتشف كل هذا وأن أباها سيسر منه.

وكانت النتيجة المباشرة للأمر هى أن امحتوب استعد للرحيل، ولم يكن فى نيته أن يترك منزله قبل شهرين آخرين ولكنه رأى إذ ذاك من الأفضل أن يعود سريعا إلى الشمال. واستدعى جميع أهل البيت وأصدر لهم أوامر وتعليمات لا حصر لها. يجب عمل هذا وذاك، لا يحق لياموس بأى حال أن يفعل هذا الأمر. على سوبك أن يتصرف بحذر فى أمر آخر، وفكرت رينسنب: إن الأمر مألوف جدا. كان ياموس منتبها وسوبك عابسا وحورى كالمعتاد كان هادئا وكفئا. ووضعت مطالب ايبى على الرف بحدة أكثر من المعتاد.

- انك أصغر من أن يكون لك مصروف خاص. أطلع ياموس فانه يعرف رغباتى وأوامرى. ووضع امحتوب يدا على كتف ابنه الأكبر وأضاف: انى أثق فيك يا ياموس وعند عودتى سنتكلم مرة أخرى فى أمر الشركة.

واحمر وجه ياموس سرورا وشد قامته أكثر ومضى امحتوب يقول: احرص فقط على حسن سير كل شئ فى غيابى. احرص على أن تعامل محظيتى معاملة حسنة وبالاحترام وبالإكرام الواجبين. انها فى عهدتك وعليك أن تتغلب على سلوك نساء الدار. اهتم بأن تكبح

ساتيبى لسانها، وبأن يعطى سوبك تعليمات مماثلة لكيت، وعلى وينسيب أيضا أن تتصرف دائما نحو نوفريت بأدب. ثم اننى لن أسمح بأية قسوة على هينيت الطيبة، وأنا أعرف إن النساء يجدنها فى بعض الأحيان متعبة. لقد مضى عليها زمن طويل فى هذا المنزل وتعتقد أن من حقها أن تقول كثيرا من الأشياء وقد تكون فى بعض الأحيان غير الفطنة -ولكنها مخلصة، تذكر هذا، وكانت دائما متفانية فى مصالحى ولن أسمح بإساءة معاملتها ولا باحتقارها.

وقال ياموس: سيتم كل شئ كما تقول ولكن هينيت فى بعض الأحيان تثير المتاعب بلسانها.

– هه! هراء كل النساء يفعلن هذا. ولا تفعل هينيت أكثر من غيرها. وفيما يختص بكامانى سيظل هنا. اننا نستطيع أن نستخدم كاتبا آخر وبوسعه أن يساعد حورى. أما بخصوص الأرض التى أجرناها للمرأة ياى.. ومضى امحتوب فى التفاصيل الدقيقة.

وأخيرا حينما جهز كل شئ للسفر شعر امحتوب ببعض وخز الضمير وأخذ نوفريت جانبا وقال لها متشككا، نوفريت هل أنت راضية بالبقاء هنا؟ ألا يكون من الأفضل أن تأتى معى؟

وهزت نوفريت رأسها وابتسمت ثم قالت:

– انك لن تغيب طويلا.

– ثلاثة شهور ربما أربعة. من يدرى؟

– أترى -لن يطول الأمر- سأكون راضية هنا.

وقال امحتوب: لقد أمرت ياموس -وكل أبنائى. يجب أن تعاملى

بكل اعتبار. وويل لهم إذا كان هناك ما تشكين منه.

- انى واثقة يا امحتوب أنهم سيفعلون ما قلته لهم.

وتوقفت نوفريت ثم قالت: من الذى أستطيع أن أثق به ثقة تامة هنا؟ شخص يكون متفانيا لمصالحك؟ ولا أعنى فردا من أسرتك.

- حورى -حورى الطيب. انه يدى اليمنى فى كل شئ- وهو رجل متزن ويحسن التمييز.

وقالت نوفريت ببطء: هو وياموس مثل الإخوة. ربما.

- هناك كامانى وهو أيضا كاتب وسآمره أن يكون فى خدمتك، وإذا كان لديك ما تشكين منه فسيكتب شكواك ويرسلها لى.

وأومأت نوفريت موافقة، هذه فكرة طيبة. ان كامانى من الشمال وهو يعرف أبى ولن يتأثر بالأسرة.

وهتف امحتوب: وهينيت. هناك هينيت.

وقالت نوفريت مفكرة: نعم هناك هينيت. لتكلمها الآن- أمامى.

- خطة رائعة.

واستعدت هينيت وجاءت متذللة كالعادة، وكانت تبكى على رحيل امحتوب وقاطعها امحتوب بجفاء.

- نعم نعم يا عزيزتى هينيت -ولكن هناك أمورا يجب أن تتم، وأنا رجل لا يمكنه أن يتوقع فترة طويلة من الهدوء والراحة. يجب أن أكدح بدون توقف من أجل عائلتى -ولو أنهم قليلا ما يقدرون هذا فى بعض الأحيان. والآن أريد أن أكلمك جديا جدا وأنا أعرف انك مخلصة ومتفانية لى وأن بامكانى أن أعهد لك بمهمة ثقة: حافظى على

نوفريت فأنها غالية جدا على.

وقالت هينيت بحرارة، إن كل ما هو غال عندك يا سيدى عزيز على.

- حسنا جدا. إذن ستخلصين وتتفانين لمصلحة نوفريت؟

وتحولت هينيت نحو نوفريت التى كانت ترقبها من تحت أهدابها وقالت لها:

- أنك جميلة جدا يا نوفريت وهذا هو سبب المتاعب. لهذا تغار منك الاخريات -ولكنى سأعنى بك- وسأخبرك بكل ما يقلنه ويفعلنه. يمكنك الاعتماد على.

ومرت فترة سكون التفت فيها أعين المرأتين ورددت هينيت: يمكنك الاعتماد على.

وظهرت ابتسامة بطيئة وغريبة على شفتى نوفريت وقالت: نعم انى أفهمك يا هينيت، وأعتقد أنه يمكننى الاعتماد عليك.

وتنحنح امحتوب بصوت مسموع ثم قال: إذن أعتقد أن كل شئ قد تم ترتيبه -نعم كل شئ. التنسيق كان دائما من مواهبى.

ورنت ضحكة جافة واستدار امحتوب بحدة ليجد والدته واقفة على عتبة الباب. كانت تتكئ على عصا وبدت منكمشة متمرة.

وقالت: ما أدهش ولدى؟

وغمغم امحتوب وهو يحاول أن يبدو مهما، يجب ألا أتأخر -هناك بعض التعليمات لحورى- وهرع من الغرفة وقد تمكن من عدم الالتقاء بعينى والدته.

وأومأت أسا لهينيت آمرة -وتسللت هينيت مطيعة من الغرفة.

وكانت نوفريت قد نهضت ووقفت هى وأسا تنظران أحداهما إلى الأخرى.

قالت أسا: وهكذا سيتركك ابنى خلفه؟ من الأفضل أن تذهبى معه يا نوفريت.

- انه يريد أن أبقى هنا.

كان صوت نوفريت مخادعا ومطيعا. وأطلقت أسا ضحكة ثم قالت:

- لن يكون هذا مهما لو أردت الذهاب، ولماذا لا تريدين الذهاب؟ أنا لا أفهمك. ما الذى يدعوك للبقاء هنا؟ أنت فتاة عاشت فى المدن - وربما سافرت- لماذا تختارين الحياة المملة الرتيبة هنا -بين- أنا صريحة -بين من لا يحبونك- بل من يكرهونك فى الواقع؟

- إذن فأنت تكرهيننى.

وهزت أسا رأسها: أنا لا أكرهك. أنا عجوز ولو انى لا أرى إلا قليلا إلا انى ما زلت أستطيع أن أرى الجمال واقدره. أنت جميلة يا نوفريت وجمالك يسر عينى المسنين ومن أجل جمالك أتمنى لك الخير وانى أحذرك. أرحلى إلى الشمال مع ابنى.

ورددت نوفريت مرة أخرى: انه يريد أن أبقى هنا. وكانت اللهجة المطيعة مصطنعة إذ ذاك بالتهكم. قالت أسا بحدة، إن لك هدفا لبقائك هنا وانى أتساءل ما هو؟ حسنا جدا لتتحملى تبعة أعمالك ولكن كونى حذرة. تصرفى بحصافة. ولا تثقى بأحد.

واستدارت فجأة وخرجت، وبقيت نوفريت ساكنة تماما وببطء شديد بدت ابتسامة عريضة كابتسامة القطط تظهر على شفتيها.

الشهر الأول من الشتاء -اليوم الرابع

اعتادت رينسيب الذهاب الى المقبرة كل يوم تقريبا، وفى بعض الأحيان يكون ياموس وحورى هناك، وفى بعض الأحيان الاخرى يكون حورى هناك وحده، وأحيانا لا يكون أحد منهما موجودا. ولكن فى كل الأوقات كانت رينسيب تشعر هناك بشعور غريب من الترويح عن النفس والسلام -شعور بالهروب. وكانت تفضل أن تجد حورى هناك وحده. كان هناك شئ ما فى رزانته وفى تقبله بدون فضول لمجيئها، يجعلها تشعر شعورا كبيرا بالرضا. وكانت تجلس فى مدخل الغرفة الحجرية وقد رفعت إحدى ركبتيها ولفت يديها حولهما تحدق عبر الحقول الخضراء إلى حيث كان النيل يلمع بلون جميل يميل إلى الزرقة والى أبعد منه حيث كانت تبدو من بعيد ألوان باهتة واللون الأصفر الفاتح والأحمر الباهت وكلها تمتزج ببعضها فى انسجام هادئ.

كانت قد جاءت هناك لاول مرة من عدة أشهر تلبية لرغبة مفاجئة للهروب من عالم نسائى كثيف. كانت تنشد الهدوء والصحبة الطيبة - وقد وجدتهما، وكانت لا تزال تشعر بالرغبة فى الهروب ولكن الآن لم يعد مجرد اشمئزاز من الضغط واللغط المصاحبين للأعمال المنزلية بل كان شعورا أشد وأكثر إزعاجا.

وقالت لحورى فى يوم ما: انى خائفة.

- ولماذا أنت خائفة يا رينسيب؟ ومضى يتأملها بجد.

وفكرت رينسيب لدقيقة أو دقيقتين ثم قالت ببطء:

- هل تتذكر أنك قلت لى مرة أن هناك نوعين من الشر -نوع خارجي ونوع داخلى؟ نعم أتذكر.

- كنت تتكلم، كما قلت فيما بعد -عن الافات التى تهاجم الفاكهة والمحاصيل، ولكنى فكرت- إن نفس الشئ صحيح بالنسبة للناس.

وأومأ حورى ببطء: إذن فقد اكتشفت هذا نعم أنت على حق يا رينسيب.

وقالت رينسيب بجفاء: إن هذا يحدث الآن -هناك فى المنزل. لقد أتى الشر- من الخارج وأنا أعرف من أتى به. أنها نوفريت.

وقال حورى ببطء: هل تعتقدين هذا؟

وأومأت رينسيب بعزم: نعم، نعم أنا أعرف ما أتكلم عنه. اسمع يا حورى عندما صعدت أنا الى هنا وقلت لك ان كل شئ كما كان حتى مشاحنات ساتيبى وكيت -كان هذا حقيقيا. ولكن هذه المشاحنات لم تكن حقيقية يا حورى. وأعنى أن ساتيبى وكيت كانتا تلهوان بها -كانت هذه المشاحنات سبيلا لتمضية الوقت- ولم تكن أى من المرأتين تشعر بغضب حقيقى تجاه الأخرى، ولكن الأمر يختلف الآن فانهما لم يعودا يقولان أشياء فظة وغير لطيفة عفوا بل أصبحتا تقولان كلاما بغرض الإيذاء - وعندما ترى أحداهما أنها قد جرحت شعور الأخرى تفرح- أنه لشى فظيع يا حورى -فظيع- بالأمس كانت ساتيبى غاضبة لدرجة أنها شكت ذراع كيت بدبوس ذهبى طويل ومنذ يوم أو يومين أسقطت كيت حلة نحاس ثقيلة مليئة بالزيت المغلى على رجل ساتيبى وهذا هو ما يحدث على الدوام كل يوم -ساتيبى تعنف ياموس طوال الليل- ونسمعهما جميعا، ويبدو على ياموس التعب والمرض كما لو كان يلازمه شبح.

وسـويك يذهب إلى نسـاء القـرية ويبـقى هـنـاك مـعهن، ويرجع وهـو سكران ويصيح ويتباهى بذكائه.

وقال حورى ببطء: أنا أعـرف أن بعض هـذه الأشيـاء حقيقيـة. ولكن لماذا تلومين نوفريت؟

- لان هذه نتيجـة أفعالها- أنها دائمـا الأشيـاء التى تقولهـا -أشيـاء صغيـرة جـارحـة بمهـارة- وهـى التى تبدأ كل هذا. أنهـا كـالعصـا التى تنخس بهـا الثـور. وهى ذكيـة أيضـا تعـرف بـالضبط مـا يجب أن يقـال لإثارة المشـاكل، وفى بعض الأحيـان أعتـقـد أن هينيت هـى التى تشيـر عليها بما تقوله.

وقال حورى مفكرا: نعم قد يكون هذا صحيحا.

وارتعـشت رينسـيب وقـالت: انى لا أحب هينيت وأكـره الطريقـة التى تزحف بها حول المنزل. أنها متفانية لنا جميعا، ومع ذلك فلا أحد فينا يريد هذا التفانى. كيف أمكن لامى أن تأتى بها هنا وأن تحبها الى هذا الحد؟

وقال حورى بجفاء: إن هينيت هـى التى تقول هذا.

- لماذا تحب هـينيت، نوفـريت وتمشى خلفـهـا فى كل مـكان وتهـمس فى أذنهـا وتتـملقـهـا؟ آه يـا حـورى انى أقـول لك أنى خـائفـة، أنا أكـره نوفريت، وأتمنى لو رحلت بعيدا. أنها جميلة وقاسية وشريرة.

- كم أنت طفلة يا رينسـيب. ثم أضـاف حـورى بهـدوء أن نوفـريت تصعد الطريق الى هنا.

وأدارت رينسيب رأسـهـا وجلست هـى وحورى يرقبـان نوفـريت وهـى تصـعـد ببطء الطريق الشديد الانحدار الذى يؤدى إلى أعلى الهضبـة،

وكانت تبتسم وتهمهم بأغنية.

عندما وصلت إلى المكان الذى يجلسان فيه نظرت حولهما وابتسمت وكانت ابتسامة فيها فضول وتساءل.

- وهكذا فهذا هو المكان الذى تجيئين إليه خلسة كل يوم يا رينسيب.

ولم تجبها رينسيب. كانت تشعر بالغضب والهزيمة مثل طفلة اكتشف مخبأها، ونظرت نوفريت حولها مرة أخرى.

- إذن هذه هى المقبرة الشهيرة.

قال حورى: تماما كما تقولين يا نوفريت.

ونظرت إليه وفمها الذى يشبه فم القطة يبتسم وقالت:

- أنا لا أشك فى أنك تجدها مريحة يا حورى فانك كما سمعت رجل أعمال، وكانت هناك رنة خبث فى صوتها، ولكن لم يحرك هذا حورى وظل ساكنا وهو يبتسم ابتسامته الهادئة الرزينة.

- أنها مريحة لنا جميعا.. إن الموت دائما مريح..

وارتعشت نوفريت وهى تنظر بسرعة حولها على مناضد القرابين ومدخل المقبرة والباب الوهمى.

وهتفت بحدة: انى أكره الموت.

قال حورى بصوت هادئ: لا يجب أن تكرهيه فان الموت فى مصر هو مصدر الثروة الرئيسى. إن الموت هو الذى اشترى الجواهر التى تتزينين بها يا نوفريت والموت هو الذى يطعمك ويكسوك.

وحدقت فيه وقالت: ماذا تعنى؟

- أعنى أن امحتوب: كاهن -كاهن قبور- وكل أراضيه وماشيته وخشبه وكتانه وشعيره هبة أو وقف المقبرة.

وتوقف ثم قال مفكرا، نحن معشر المصريين قوم غرباء فنحن نحب الحياة -ولذلك نبدأ مبكرا فى التخطيط للموت، وهنا تذهب ثروة مصر فى الأهرام وفى القبور وفى أوقاف القبور.

قالت نوفريت بعنف: كف عن الحديث عن الموت يا حورى، فانى لا أحبه.

- لأنك مصرية صميمة -لأنك تحبين الحياة- لأنك فى بعض الأحيان -تشعرين بظلال الموت قريبة جدا..

- كف... واستدارت نحوه بعنف ثم هزت كتفيها وأشاحت عنه وبدأت تنزل الطريق مبتعدة.

تنفست رينسيب وتنهدت بارتياح ثم قالت مثل طفلة:

- انى سعيدة لأنها ذهبت. لقد أخفتها يا حورى.

- نعم.. هل أخفتك أنت يا رينسيب؟

- لا -ورن صوت رينسيب متشككا نوعا: ان ما قلته حق ولكنى فقط لم أفكر فيه بهذه الطريقة من قبل قط. ان أبى فعلا كاهن قبور.

وقال حورى بمرارة مفاجئة: إن مصر كلها تتسلط عليها فكرة الموت، أتعرفين السبب يا رينسيب لان لنا عيونا فى أجسادنا ولكن ليس فى عقولنا. إننا لا يمكن أن نتصور حياة أخرى غير هذه. حياة بعد الموت. أننا يمكن أن نتخيل فقط امتدادا للحياة التى نعرفها. نحن لا نعتقد فعلا فى الله.

وحدقته رينسيب فى دهشة... كيف يمكنك أن تقول هذا يا حورى؟

إن لدينا آلهة عديدة - كثيرون لدرجة أنى لا أستطيع أن أعرف كل أسمائهم. فى الليلة الماضية كنا جميعا نتكلم عن الآلهة التى نفضلها. سوبك يفضل (سكمت) وكيت تصلى (لمسكنت)، وكامانى (توت) وهذا طبيعى لانه كاتب. ساتيبى تفضل (هورس) ذا رأس الصقر و (مريجر) أيضا وياموس يقول أن بتاح يجب عبادته لأنه خلق كل شئ. وأنا نفسى أحب (ايزيس). هينيت تفضل (آمون) الإله المحلى وتقول أن هناك تنبؤات بين القسس بأنه فى يوم من الأيام سيكون آمون أعظم إله فى مصر -لذلك هى تقدم له القرابين الآن وهو ما يزال الها صغيرا ثم هناك (رع) اله الشمس (وأوزوريس) الذى توزن أمامه قلوب الأموات.

وتوقفت رينسيب لتلتقط أنفاسا وابتسم لها حورى ثم قال:

- وما الفارق يا رينسيب بين الآلهة والرجل؟

وحدقته: إن الآلهة -أنهم سحرة؟

- أهذا كل الفارق؟

- أنا لا أعرف ما تعنيه يا حورى.

- أنى أعنى إن الإله بالنسبة لك هو رجل أو امرأة يستطيع أن يفعل أشياء معينة لا يستطيع الرجال والنساء أن يفعلوها.

- أنك تقول أشياء غريبة جدا، أنا لا أستطيع أن أفهمك.

ونظرت إليه بوجه حائر -ثم نظرت إلى أسفل عبر الوادى واسترعى انتباهها شئ آخر.

هتفت قائلة: انظر أن نوفريت تكلم سوبك، أنها تضحك. آه وشهقت فجأة لا لا شئ لقد ظننت أنه سيضربها. أنها تعود إلى المنزل

وهو صاعد إلى هنا.

ووصل سوبك وهو غاضب جدا وهتف: ليلتهم التمساح تلك المرأة. إن أبى كان مغفلا أكثر من العادة عندما اتخذها محظية.

وسأل حورى بفضول: ماذا قالت لك؟

– لقد أهانتنى كالمعتاد –سألتنى إذا كان أبى قد عهد الى ببيع أى خشب آخر. اننى أود أن أخنقها.

وتحرك على المنصة والتقط حجرا، وألقى به إلى الوادى أسفل ثم بدأ يحرك حجرا أكبر وقفز إلى الوراء عندما رفع ثعبان –كان نائما تحت الحجر– رأسه، وانتصب الثعبان وهو يصدر فحيحا ورأت رينسيب أنه من نوع الكوبرا.

التقط سوبك عصا غليظة وهاجم بها الثعبان بشراسة، وبضربة أحسن تصويبها كسر ظهره ولكن سوبك ظل يواصل الضرب وقد رفع رأسه إلى الخلف ولمعت عيناه ويردد بين أسنانه كلمة لم تكد تسمعها رينسيب ولم تتبينها. صاحت رينسيب: كفى، كفى يا سوبك –لقد مات– وتوقف سوبك ثم رمى العصا بعيدا وضحك قائلا:

– أنه ثعبان سام آخر نقص من العالم.

وضحك مرة أخرى وقد استرد مزاجه الرائق. ومضى نازلا مرة أخرى.

قالت رينسيب فى صوت منخفض: أنى أعتقد أن سوبك يحب قتل الأشياء.

– نعم لم يكن هناك دهشة فى الكلمة. كان حورى يقر فقط بواقعة يعرفها جيدا من قبل كما يبدو. واستدارت رينسيب وحدقته وقالت ببطء: إن الثعابين خطرة –ولكن كم كان هذا الكوبرا جميلا..

ونظرت إلى جسم الثعبان الملتوى المقطع ولسبب تعرفه شعرت بغصة فى حلقها.

وقال حورى حالما: انى أتذكر عندما كنا أطفالا صغارا كلنا -هاجم سويك ياموس وكان ياموس أكبر منه بعام ولكن سويك كان أطول قامة وأقوى وكان فى يده حجر وكان يضرب به رأس ياموس وجاءت والدتك تجرى وأبعدتهما عن بعض. أنى أتذكر كيف وقفت تنظر إلى ياموس - وكيف صاحت انك لا يجب أن تفعل أشياء من هذا القبيل يا سويك- إن هذا خطر- انى أقول لك أنه خطر. وتوقف برهة ثم مضى يقول: كانت جميلة جدا.. كنت أعتقد هذا وأنا طفل وأنت مثلها يا رينسيب.

وهل هذا صحيح؟.. وشعرت رينسيب بالسرور وبالدفء. ثم سألت: هل أصاب ياموس أذى شديد فى ذلك الحين؟

- كلا لم يكن الأمر سيئا مثلما بدا أولا. ومرض سويك مرضا شديدا فى اليوم التالى قد يكون من شئ أكله ولكن والدتك قالت أن مرضه نتيجة لهياجه وللشمس الشديدة لقد كان هذا فى منتصف الصيف.

قالت رينسيب مفكرة: إن سويك له طباع شنيعة.

ونظرت مرة أخرى إلى الثعبان الميت واستدارت وهى ترتعد.

* * *

كان كامانى يجلس فى الشرفة الأمامية عندما وصلت رينسيب إلى المنزل، وكانت بين يديه رزمه من ورق البردى وكان يغنى وتمهلت دقيقة واستمعت إلى الكلمات.

كان كامانى يغنى أغنية عاطفية يصف فيها عروسه الجميلة ويطلب

من الآلهة أن تمنحها له. ورفع رأسيه وابتسم لرينسيب.

- هل تعجبك أغنيتى يا رينسيب؟

- ما نوعها... أنها أغنية حب من ممفيس.

ومضى يغنى برفق وعيناه عليها. وصعد الدم الى وجه رينسيب، ومضت بسرعة داخل المنزل وكادت تصطدم بنوفريت.

- فيم العجلة يا رينسيب؟

كانت هناك نبرة حادة فى صوت نوفريت، ونظرت رينسيب لها باستغراب طفيف. كان وجه نوفريت لا يبتسم بل كان عابسا ومشدودا ولاحظت رينسيب أن يديها متصلبتان الى جانبيها.

- آسفة يا نوفريت. لم أرك. أن المكان مظلم هنا عندما يأتى المرء من الضوء الشديد فى الخارج.

- نعم أن الضوء هنا ضعيف.. وصمتت نوفريت برهة. أنه من الألطف الجلوس فى الخارج -فى الشرفة والاستماع إلى غناء كامانى. أنه يغنى جيدا أليس كذلك؟

- نعم -نعم انى متأكدة من أنه يغنى جيدا.

- ومع ذلك لم تنتظرى لتسمعى. سيخيب ظن كامانى.

أحست رينسيب بوجهها يحمر مرة أخرى، وشعرت بعدم ارتياح من نظرة نوفريت الباردة المتهكمة.

- ألا تحبين أغانى الحب يا رينسيب؟

- هل تهتمين يا نوفريت بما أحبه وما لا أحبه؟

- وهكذا فالقطط الصغيرة لها مخالب.. ماذا تعنين؟

وضحكت نوفريت: أنك لست ساذجة كما تبدين يا رينسيب فأنت تجدين كامانى وسيما.. هذا بدون شك.

وقالت رينسيب بحدة: أعتقد أنك كريهة تماما وجرت ومرت بنوفريت نحو الجزء الخلفى من المنزل. وسمعت صوت الفتاة وهى تضحك متهكمة، ولكن من خلال هذه الضحكة كان يرن بوضوح فى ذاكرتها صدى صوت كامانى والأغنية التى غناها وهو يرنو إليها بعينيه..

* * *

حلمت رينسيب فى تلك الليلة.

كانت مع فاى تبحر فى مركب الموت فى العالم الأسفل، وكان فاى واقفا فى مقدمة المركب -كانت ترى مؤخرة رأسه فقط. ثم عندما اقتربا من مشرق الشمس استدار فاى ورأت رينسيب حينئذ أنه كامانى وليس فاى، وفى تلك اللحظة بدأ رأس الثعبان فى مقدمة السفينة يتحرك ويتلوى. وفكرت رينسيب -أنه ثعبان حى أنه كوبرا- أنه الثعبان الذى يخرج من القبور ليلتهم أرواح الأموات.

وشلت من الخوف ثم رأت أن وجه الثعبان هو وجه نوفريت.. واستيقظت وهى تصرخ: نوفريت.. نوفريت.

ولم تكن قد صرخة حقيقية -كان كل هذا فى الحلم. ورقدت فى سكون وقلبها يدق وهى تقول لنفسها -لا شئ من هذا صحيح. ثم فكرت فجأة: هذا ما كان سوبك يقوله عندما كان يقتل الثعبان بالأمس. كان يقول نوفريت..

الشهر الأول من الشتاء، اليوم الخامس

أيقظ الحلم رينسيب ونامت بعده فترات متقطعة قصيرة فقط. وقرب الصباح لم تستطع النوم قط وكان يسيطر عليها شعور خفى بشر مقبل.

واستيقظت مبكرا وخرجت من المنزل، وقادتها قدماها كما كان يحدث كثيرا نحو النيل. كان هناك على النيل بعض الصيادين، وكانت هناك مركب كبيرة تجدف بشدة نحو (طيبة)، وكانت هناك مراكب أخرى تسير بقلاعها تدفعها الرياح.

وتحرك شئ ما فى قلب رينسيب -تحرك رغبة لشئ لا تستطيع أن تعرفه وفكرت: (انى أشعر -أنى أشعر). ولكنها لم تعرف حقيقة شعورها- وبمعنى آخر لم تعرف الكلمات التى تناسب هذا الشعور، وفكرت: (أنى أريد -ولكن ماذا أريد؟).

هل كان فاى هو الذى تريده؟ فاى مات -ولن يعود. وقالت لنفسها: لن أفكر فى فاى بعد ذلك. ما جدوى هذا؟ إن كل شئ قد انتهى.. ثم لاحظت خيال شخص آخر واقفا ينظر إلى المركب المتجه إلى طيبة، وكان هناك شئ يوحى باليأس حوله -عاطفة ما تعبر عنها هذه الوقفة الساكنة- واسترعى هذا انتباه رينسيب وفى نفس الوقت تعرفت على نوفريت.

نوفريت تحدق فى النيل. نوفريت وحيدة. نوفريت تفكر فى -ماذا؟

وأدركت رينسيب بصدمة مفاجئة -ان ما يعرفونه عن نوفريت قليل جدا .. لقد تقبلوها كعدوة -غريبة- بدون أى اهتمام أو فضول عن حياتها أو عن البيئة التى أتت منها .

وفكرت رينسيب فجأة أنه لا ريب شئ محزن لنوفريت أن تكون هنا وحيدة بدون أصدقاء، ومحاطة فقط بأناس لا يحبونها .

ومضت رينسيب ببطء إلى الأمام حتى وقفت بجانب نوفريت، وأدارت نوفريت رأسها وهلة ثم أدارتها مرة أخرى وتابعت تفرسها فى النيل. وكان وجهها لا يعبر عن شئ.

قالت رينسيب بخجل: هناك مراكب كثيرة فى النيل.

- نعم.

ومضت رينسيب تقول وهى تطاوع باعثا خفيا للصداقة: هل يشبه هذا المكان موطنك؟

وضحكت نوفريت ضحكة قصيرة فيها بعض المرارة وقالت:

- لا أبدا . إن أبى تاجر فى ممفيس وهو مكان مرح مسل. هناك موسيقى وغناء ورقص، ثم أن أبى يرحل كثيرا وقد ذهبت معه إلى سوريا -والى بابل. لقد ذهبت معه فى مركب كبير تسير فى البحار الواسعة .

كانت تتكلم بكبرياء وحيوية .

ووقفت رينسيب ساكنة تماما وعقلها يعمل ببطء ولكن بتفهم واهتمام متزايد ثم قالت ببطء، لابد أن هذا المكان ممل جدا لك.

ضحكت نوفريت بصبر نافذ وقالت:

– انه مكان ميت هنا –ميت– لا شئ سوى العزق والحرث والبذر والجنى– كلام عن المحاصيل والمشاحنات على أسعار الكتان.

كانت رينسيب ما تزال تصارع أفكارا غير مألوفة وهى تراقب نوفريت من طرف خفى.

وفجأة بدا كما لو كانت قوة بدنية هائلة تدفع موجة من الغضب والتعاسة واليأس من داخل الفتاة التى وقفت بجانبها.

وفكرت رينسيب: أنها صغيرة مثلى –أصغر، وهى محظية الرجل المسن الكبير المثير للصخب المضحك بعض الشئ، أبى..)

ماذا تعرف هى رينسيب عن نوفريت؟ لا شئ بالمرة. ما الذى قاله حورى بالأمس عندما هتفت هى قائلة: أنها جميلة وقاسية وشريرة.. لقد قال حورى، أنك طفلة يا رينسيب.

والآن عرفت رينسيب ماذا كان يعنى. إن كلماتها كانت لا تعنى شيئا –إن المرء لا يستطيع أن يحكم على إنسان بمثل هذه السهولة. كم من الحزن والمرارة واليأس تختفى وراء الابتسامة القاسية لنوفريت؟ ماذا فعلت رينسيب أو أى فرد منهم للترحيب بنوفريت؟

وقالت رينسيب وهى تتلعثم كطفلة: انك تكرهيننا جميعا –وأنا أعرف السبب– لأننا لم نكن ظرفاء –ولكن الآن– لم يفت الوقت. الا يمكن أن نكون أنا وأنت يا نوفريت مثل أختين؟ انك بعيدة عن كل الذين تعرفينهم –أنت وحيدة– هل أستطيع المساعدة؟

وتلعثمت كلماتها حتى سكتت. واستدارت نوفريت ببطء ولدقيقة أو دقيقتين لم يظهر أى تعبير على وجهها –وظنت رينسيب أن عينيها قد رقتا ولانتا لفترة وجيزة، وفى سكون هذا الصباح الباكر بوضوحه

الغـريـب وهدوئه بدا كـمـا لـو أن نوفـريت تتـردد- كـمـا لـو أن كلمـات رينسيب قد مست وترا أخيرا من الرجوع عن العزم.

كانت فترة غريبة، فترة تذكرتها، رينسيب فيما بعد..

ثم بدأ تعبـيـر نوفـريت يتـغـيـر تدريجـا، وأصبـح شـريـرا واختنقت عيناها، وتراجعت رينسيب خطوة إلى الـوراء أمام هـياج الحـقـد والشـر فى نظرتها.

قالت نوفريت بصوت منخفض وشرس:

- اذهبى انى لا أريد شـيـئـا من أى واحـد فـيكم. أيهـا الأغـبـيـاء السخفاء كلكم هكذا -كل فرد فيكم.

وتوقفت لحظة ثم استدارت إلى المنزل وهى تمشى بنشاط.

وتبعتها رينسيب ببطء، ومن الغريب أن كلمات نوفريت لم تغضبها، بل فتحت أمام عينيها هاوية عميقـة مظلمة من الحقد والتعاسة- شى لم تكن تعرفه من قبل من تجاربها. وكانت تراودها فكرة غامضة (كم يكون مريعا أن يشعر المرء بهذه الأمور).

* * *

حينما دخلت نوفريت من البوابة وعبرت الحوش، اعترضت طريقها أحدى أطفال كيت وهى تجرى خلف كرة. وأزاحت نوفريت الطفلة، عن طريقـهـا بدفـعـة غـاضـبـة رمت الطفلة على الأرض، فـأطلقت الطفلة صرخة وجرت رينسيب نحوها وهى تقول بسخط:

- مـا كان يجب أن تفعلى هذا يا نوفـريت، لقد آذيتها انظرى لقد جرحت ذقنها.

وضحكت نوفريت بصوت رفيع.

- وهكذا يجب أن أحـرص على عـدم إيذاء هؤلاء الأولاد المدللين؟ لماذا؟ هل تراعى أمهاتهم شعورى؟

كانت كيت قد جاءت تجرى من المنزل على صراخ طفلتها، وجرت إليها وفحصت الوجه الجريح ثم استدارت لنوفريت.

- أيتها الحية الشيطانة -يا شريرة.. مهلا وسترين ما سنفعله بك.

وصفعت نوفريت بكل قوتها. وأطلقت رينسيب صيحة، وأمسكت بذراعيها قبل أن تعيد الضرب.

- كيت -كيت- لا يجب أن تفعلى هذا.

- من يقول هذا؟ لتأخذ نوفريت حذرها. أنها واحدة فقط هنا فى وسط كثيرين.

ووقفت نوفريت ساكنة تماما، وكانت علامة يد كيت ظاهرة حمراء على خدها، وكان هناك جرح بجانب أحدى عينيها من اثر حلية كانت كيت تلبسها فى معصمها، وقد جرحت الجلد وسالت منه الدماء على وجهها.

ولكن الانطباع الذى على وجه نوفريت كان هو الذى حير -بل وأخاف رينسيب- لم تظهر نوفريت أى غضب، وبدلا من ذلك كانت هناك نظرة غريبة منتصرة فى عينيها، ومرة أخرى ظهرت ابتسامة مثل القطط على وجهها وقالت: شكرا لك يا كيت.

ثم مشت الى داخل المنزل.

* * *

نادت نوفريت هينيت وهى تهمهم برفق وقد أرخت رموشها. وجاءت هينيت تجرى ثم توقفت وهتفت باستغراب وقاطعت نوفريت كلامها قائلة، على بكامانى قولى له أن يأتى بريشته وبالحبر وورق البردى فهناك رسالة ستكتب للسيد.

كانت عينا هينيت على خد نوفريت:

- للسيد.. انى أرى.. ثم سألت: من فعل هذا؟

- كيت... وابتسمت نوفريت بهدوء وهى تتذكر.

هزت هينيت رأسها وطقطقت لسانها:

- ان هذا شئ جد سيئ جدا.. يجب بالتأكيد أن يعلم به السيد... وألقت نظرة سريعة جانبية على نوفريت.

- نعم يجب بالتأكيد أن يعرف امحتوب.

قالت نوفريت بنعومة: أنت وأنا يا هينيت نفكر تفكيرا واحدا.. لقد فكرت أنه يجب أن نفعل ذلك.

وحملت حجرا كريما مركبا على ذهب من ثوبها اللينوه ووضعته فى يد المرأة.

- أنت وأنا يا هينيت تهمنا مصلحة امحتوب الحقيقية.

- إن هذا لكثير يا نوفريت.. أنت كريمة أكثر من اللازم.. هذه حلية بديعة.

- امحتوب وأنا نقدر الإخلاص.

كانت نوفريت ما تزال تبتسم وعيناها نصف مغمضتين وتبدو

كالقطط ثم قالت:

– أئت بكامانى وتعالى معه فأنت وهو ستشهدان معا على ما حدث.

جاء كامانى على الرغم منه قليلا مقطب الجبين.

وتكلمت نوفريت بلهجة آمرة: أتتذكر تعليمات أمحتوب– قبل أن يرحل؟

قال كامانى، نعم.

نوفريت: حان الوقت. أجلس واستعد بريشتك واكتب كما أقول لك. ثم قالت بصبر نافذ وهى ترى أن كامانى مازال مترددا، ان ما تكتبه سيكون ما رأيته بعينيك وما سمعته بأذنيك وستؤيد هينيت كل ما سأقوله يجب أن تبعث الرسالة بسرعة وبسرية.

قال كامانى ببطء: انى لا أحب...

وقاطعته نوفريت بسرعة البرق: ليس لدى شكوى ضد رينسيب فأنها رقيقة وضعيفة وغبية ولكنها لم تحاول ايذائى هل يرضيك هذا؟

واحمر وجه كامانى البرونزى.

– لم أكن أفكر فى هذا.

قالت نوفريت بنعومة: أعتقد أنك كنت تفكر فى هذا. والآن هيا – أطل التعليمات أكتب.

قالت هينيت، نعم أكتب. انى مغمومة جدا من كل هذا –متضايقة لدرجة كبيرة ولكن يجب بالتأكيد أن يعرف أمحتوب بما حدث. انه يجب أن يعرف. ومهما كان الأمر كريها فيجب على المرء أن يؤدى

واجبه. لقد شعرت بهذا دائما.

ضحكت نوفريت بنعومة: انى متأكدة من هذا يا هينيت، أنت ستقوم بواجبك، وكامانى سيقوم بمهام وظيفته وأنا سأفعل ما يحلو لى.

ولكن كامانى كان لا يزال مترددا. كان وجهه عابسا بل يكاد يكون غاضبا.

قالت، انى لا أحب هذا. نوفريت من الأفضل أن تفكرى وقتا أطول.

- ءأنت الذى تقول هذا لى أنا، واحمر وجه كامانى للهجتها وتفادى نظراتها ولكن وجهه ظل عابسا.

قالت نوفريت بنعومة: خذ حذرك يا كامانى إن لى نفوذا كبيرا لدى امحتوب وهو يستمع إلى ما أقوله له -وهو راض عنك حتى الآن- وتوقفت وكان معناها واضحا.

- هل تهددييننى يا نوفريت؟

- ربما.

- نظر إليها بغضب للحظة أو لحظتين ثم أحنى رأسه.

- سأفعل كما تقولين يا نوفريت ولكنى أعتقد -نعم أنى أعتقد- أنك ستندمين.

- هل تهددنى أنا يا كامانى.

- أنى أحذرك.

الشهر الثانى من الشتاء، اليوم العاشر

مضت الأيام تباعا ورينسيب تشعر أحيانا بأنها تعيش فى حلم. لم تتقرب باستكانة من نوفريت بعد تلك المرة -إذ أصبحت تخاف نوفريت فقد كان ثمة شئ حولها لا تفهمه.

تغيرت نوفريت بعد ذلك المشهد فى ساحة الدار ذلك اليوم. وأصبحت بشوشة وتبدو مبتهجة، ولم تكن رينسيب تدرى لذلك سببا، وفى بعض الأحيان كانت تظن أن تصورها لنوفريت كحزينة جدا كان لابد خاطئا بدرجة مضحكة، فان نوفريت كانت تبدو سعيدة بالحياة وبنفسها، ومن حولها، ولكن الواقع أن من حولها كانوا قد تغيروا إلى أسوأ. فى الأيام التى تلت رحيل امحتوب.

كانت نوفريت تتعمد -كما تعتقد رينسيب- اشعال الفرقة بين أفراد عائلة امحتوب العديدين، أما الآن فقد اتحدت العائلة بقوة ضد الغريبة، ولم تعد هناك خلافات بين ساتيبى وكيت -لم تعد ساتيبى تعنف ياموس المسكين-وبدا سوبك اهدأ، ولم يعد يتباهى كثيرا- أما ايبى فقلت وقاحته نحو أخويه الكبيرين وبدا انسجام جديد بين أفراد العائلة- ومع ذلك فلم يجلب هذا الانسجام راحة البال لرينسنب لأنه كان مصحوبا بتيار خفى من البغض لنوفريت.

لم تعد المرأتان ساتيبى وكيت تتشاحنان مع نوفريت -أصبحتا تتحاشيانها ولم تعودا تتكلمان معها، وعندما كانت تأتى إلى أى مكان كانتا تأخذان أطفالهما ويذهبان إلى أى مكان آخر. وفى نفس الوقت

بدأت أمور صغيرة عجيبة تحدث: اتلف ثوب من اللينوه لنوفريت من مكواة ساخنة أكثر من الأصول -واختلطت بعض الصبغات بألوان أخرى، وفى بعض الأحيان كانت تجد أشواكا حادة فى ثيابها ووجدت ثعبانا بجوار فراشها. وكان الطعام الذى يقدم فيه توابل كثيرة أكثر من اللازم- أو ليس فيه أى نوع من التوابل، وفى يوم وجدت فأرا ميتا فى خبزها.

كانت حملة اضطهاد لا هوادة فيها فى سكون ولؤم -لا شئ مكشوف فيها، لا شئ ممكن الإمساك به- كانت حملة نسائية أصيلة.

ثم فى يوم من الأيام أرسلت أسا فى طلب ساتيبى، وكيت ورينسنب وعندما وصلن وجدن هينيت هناك تهز رأسها وتفرك يديها.

قالت أسا وهى تنظر إليهن بنظرتها التهكمية المعتادة: ها، اذن ها هن حفيداتى الذكيات.. ماذا تعتقدن إنكن تفعلن؟ ما هذا الذى أسمعه عن إتلاف ثوب نوفريت -وأن طعامها غير مستساغ؟

وابتسمت كلا من ساتيبى وكيت ابتسامة صفراء.

ساتيبى: هل شكت نوفريت؟

قالت أسا: لا لم تشك نوفريت وهذا هو ما يقلقنى.

وأزاحت الباروكة التى تلبسها حتى فى المنزل إلى الخلف قليلا.

قالت ساتيبى وهى ترمى رأسها الجميل إلى الخلف: هذا لا يقلقنى أنا.

قالت أسا بحدة: لانك غبية. أن لنوفريت عقلا يوازى مرتين عقولكن الثلاث مجتمعات.

ساتيبى، سنرى إذا كان هذا صحيحا. كانت تبدو منشرحة المزاج وراضية عن نفسها.

أسا: ماذا تظن أنكن فاعلات؟

وبدت القسوة على وجه ساتيبى.

- أنك امرأة عجوز يا أسا. وأنا لا أتكلم بدون احترام لك -ولكن لم تعد الأمور تهمك مثلما تهمنا نحن الان ولنا أزواج وأطفال. لقد قررنا أن نأخذ زمام الأمور فى أيدينا- ان لنا طرقنا لمعاملة امرأة لا نحبها ولن نقبلها.

قالت أسا: كلام جميل، كلام جميل. وضحكت: ولكن من الممكن أن نسمع كلاما جميلا من الجوارى اللاتى يعملن فى الطاحونة.

وقالت هينيت وهى تتنهد فى آخر الغرفة: قول حقيقى وحكيم. واستدارت لها أسا هيا يا هينيت ماذا تقول نوفريت عن كل الذى يجرى؟ يجب أن تعرفى -فأنت دائما تلبين طلباتها.

- كما أمرنى أمحتوب. أن هذا شئ كريه لى بالطبع.

- ولكن يجب أن أعمل ما أمرنى به السيد. آمل ألا تعتقدى.

وقاطعت أسا صوت هينيت الباكى: نحن نعرف كل شئ عنك يا هينيت. أنت دائما متفانية -وقليلا ما تشكرين كما يجب. ماذا تقول نوفريت بخصوص هذا كله؟ هذا هو ما أسألك عنه.

وهزت هينيت رأسها: أنها لا تقول شيئا. أنها فقط تبتسم.

- بالضبط والتقطت أسا فاكهة وفحصتها ثم وضعتها فى فمها ثم مضت تقول فجأة بفظاظة شريرة: أنكن جميعا غبيات.. إن السطوة فى يد نوفريت لا معكن، وكل ما تفعلن هو أنكن تلعبن كما تريد هى، وانى لأجرؤ أن أقسم أنها سعيدة بما تفعلن.

قالت ساتيبى بحدة: هراء. نوفريت وحيدة هنا.. ما سطوتها؟

قالت أسا بعبوس: سطوة امرأة صغيرة وجميلة متزوجة من رجل

كبير. أنا أعرف ما أتكلم عنه. استدارت سريعا برأسها وقالت: هينيت تعرف ما أتكلم عنه.

أجفلت هينيت وتنهدت وبدت تلوى أيديها: أن السيد يعزها كثيرا - طبيعى- نعم طبيعى تماما.

قالت أسا: اذهبى إلى المطبخ وآتى لى ببعض البلح والخمر السورى- نعم والعسل أيضا.

وعندما انصرفت هينيت قالت السيدة العجوز: هناك عراك يكبر وينمو- أنا أستطيع أن أشم رائحته. ساتيبى أنت رأس هذه المؤامرة: احذرى فبينما تعتقدين أنك ذكية، فانك تتصرفين مثلما تريد نوفريت وتلعبين لها لعبتها.

ومالت إلى الخلف وأقفلت عينيها ثم قالت، اذهبى.. لقد حذرتكن -والآن انصرفن.

قالت ساتيبى وهى ترمى رأسها إلى الخلف وهن فى طريقهن إلى البحيرة: نحن تحت سطوة نوفريت.. يا سلام. إن أسا كبرت لدرجة أن أغرب الأفكار تدور فى ذهنها. نحن الذين نضع نوفريت تحت سطوتنا، لن نفعل شيئا ضدها تستطيع أن تشكونا به. ولكنى أعتقد، نعم أعتقد أنها ستأسف قريبا على أنها جاءت هنا.

صاحت رينسنب: أنت قاسية، قاسية.

وبدا على ساتيبى الغضب: لا تتظاهرى بحب نوفريت يا رينسنب.

- أنا لا أحبها. ولكنك تبدين -تبدين كمن يود الانتقام.

- انى أفكر فى أولادى -وياموس، انى لست امرأة مستسلمة او امرأة تقبل الإهانة. وانى طموحة، بوسعى أن أعصر عنق هذه المرأة

بسرور ولكن للأسف أن الأمر ليس بهذه السهولة لأننا لا يجب أن نثير غضب امحتوب.

* * *

جاء الخطاب كسهم أطلق على سمكة.

جلس ياموس وسوبك وايبى ساكنين لا يتكلمون ويحدقون فى حورى وهو يقرأ الكلمات من ورق البردى (ألم أقل لياموس أنى سأحمله مسئولية أى أذى يصيب محظيتى؟ يقينى أنكم جميعا على قيد الحياة.. أنا منذ اليوم عدوكم وانتم اعدائى، لن أعيش معكم بعد اليوم تحت سقف واحد، وبما أنكم لم تحترموا محظيتى نوفريت لم تعودوا يا ياموس ويا سوبك ويا ايبى أبنائى من لحمى ودمى. إن كل واحد منكم قد أذى محظيتى وقد شهد على ذلك كامانى وهينيت. سأطردكم من بيتى كلكم. لقد كنت أنفق عليكم -والآن لن أنفق عليكم.

وتوقف حورى ثم مضى يقرأ: (ان خادم القبور امحتوب يخاطب حورى: أنت أيها المخلص كيف حالك وصحتك؟ بلغ تحياتى لوالدتى أسا ولابنتى رينسنب وسلم على هينيت. اعتن باعمالى جيدا حتى ارجع إليك، وجهز لى عقدا تشاركنى فيه محظيتى نوفريت فى كل أملاكى بوصفها زوجتى. ولن أشارك ياموس أو سوبك ولن أصرف عليهما، وأنى هنا أعلن أنهما أساءا إلى محظيتى، حافظ على كل شئ لحين عودتى. ما أسوأ أن يقوم أهل بيت الرجل بأعمال شريرة تجاه محظيته.

أما بالنسبة لايبى فليحذر، وإذا آذى محظيتى بأى شكل فهو أيضا سيخرج من منزلى.

ساد سكون شامل. ثم نهض سوبك وهو فى ثورة غضب وهياج عنيفة.

- كيف حدث هذا؟ ما الذى سمعه أبى؟ من ذهب إليه بروايات

كاذبة؟ هل سنحتمل هذا؟ لا يستطع ابى أن يحرمنا من الميراث ويعطى كل أملاكه لمحظيته.

قال حورى بهدوء: ان هذا سيثير انتقادات فى غير صالحه -ولن يتقبله الناس كتصرف عادل- ولكنه يملك من الوجهة القانونية أن يفعل هذا فان فى إمكانه أن يكتب أملاكه لمن يشاء.

- لقد سحرته -هذه الحية السوداء المتهكمة، لقد سحرت له.

وتمتم ياموس كمن فقد المقدرة على الكلام: هذا شئ غير مصدق -لا يمكن أن يكون حقيقيا.

صاح ايبى: ان أبى مجنون -مجنون. لقد تحول حتى ضدى أنا بأمره هذه المرأة.

قال حورى جادا، سيرجع امحتوب قريبا -وهكذا يقول، وحينئذ ربما يكون غضبه قد سكن وقد لا يعنى حقا ما يقوله. ورنت ضحكة قصيرة شريرة، وكانت ساتيبى هى التى تضحك، وقد وقفت تنظر إليه من عتبة الباب المطل على جناح النساء.

- إذن هذا هو ما علينا أن نفعله يا حورى العظيم؟ ننتظر ونرى ما سيحدث.

قال ياموس ببطء: وما عسانا أن نفعل غير هذا؟

- ما عسانا أن نفعل غير هذا؟ وارتفع صوت ساتيبى وصرخت: ما الذى يجرى فى عروقكم كلكم؟ لبن؟ أنى أعرف أن ياموس ليس رجلا، ولكن أنت يا سوبك أليس عندك علاج لهذا البلاء؟

سكين فى القلب ولا تستطيع الفتاة لكم أذى بعد ذلك؟

هتف ياموس، ساتيبى! لن يسامحنا ابى أبدا.

– هذا ما تقوله أنت. ولكنى أقول لكم أن المحظية الميتة ليست مثل المحظية الحية عندما تموت سيعود قلبه لأولاده وأطفالهم، والى جانب كل هذا كيف سيعرف كيفية موتها.. (يمكننا أن نقول أن ثعبانا لدغها، نحن جميعا معا فى هذا الأمر أليس كذلك؟

قال ياموس ببطء: سيعرف ابى فستخبره هينيت.

وضحكت ساتيبى بهستريا.

– أيها الرجل الحذر جدا يا ياموس، الرفيق الحذر، كان يجب أن ترعى الأطفال وتقوم بأعمال المرأة فى مؤخرة المنزل. فليساعدنى (تكلمت) انى متزوجة من زوج ليس برجل. وأنت يا سوبك بكل كلامك اين شجاعتك وعنادك؟ أنى أقسم (برمح) أنى أشد رجولة منكما أنتما الاثنين.

واستدارت وخرجت، وتقدمت كيت التى كانت تقف خلفها خطوة إلى الأمام. وقالت بصوت عميق مهزوز.

– أن ما تقوله حق، أنها أكثر رجولة منكما. ياموس، سوبك، أيبى – هل ستجلسون هنا ولا تفعلون شيئا؟ ماذا عن أولادنا يا سوبك؟ يطردون ليجوعوا؟ حسنا جدا اذا لم تفعلوا انتم شيئا سأفعل أنا. ليس بينكم رجل.

وحينما خرجت بدورها قفز سوبك واقفا وهتف: بحق الآلهة التعسة فى (الانيميد) أن كيت على حق –هو ذا عمل لرجل يجب القيام به– ونحن نجلس هنا نتكلم ونهز رؤوسنا.

ومشى بخطوات سريعة نحو الباب. هتف حورى من ورائه: (سوبك) أين ستذهب..؟ ماذا ستفعل؟

وهتف سوبك من عتبة الباب وهو يبدو وسيما وشرسا: سأفعل شيئا ما –هذا أكيد وسأستمتع بما أفعله.

الشهر الثانى من الشتاء، اليوم العاشر

خرجت رينسنب الى الشرفة ووقفت هناك برهة وهى تحمى عينيها من الضوء الشديد المفاجئ. كانت تشعر بالغثيان وترتعد خوفا من أمر خفى، وكانت تردد لنفسها بطريقة آلية:

- يجب أن أحذر نوفريت.. يجب أن أحذرها.

وكانت تسمع خلفها من داخل المنزل أصوات الرجال: أصوات حورى وياموس مختلطة وفوقها صوت ايبى الصبيانى واضحا.

- ساتيبى وكيت على حق. لا يوجد رجال فى هذه الأسرة. ولكنى أنا رجل.. نعم أنا رجل، بشعورى وفى جوهرى وان لم يكن يكبر سنى. لقد تهكمت نوفريت على وهزأت منى وعاملتنى كطفل. سأريها اننى لست طفلا. أنا لست خائفا من غضب أبى فأنا أعرفه. لقد سخرت له هذه المرأة وسحرته ولو قضى عليها لرجع حبه لى -لى أنا، أنا الابن الذى يحبه أكثر من أى من أبنائه. إنكم تعاملونى جميعا كطفل- ولكنكم سترون. نعم سترون.

وهرع خارجا واصطدم برينسنب وكاد أن يوقعها على الأرض وأمسكت به من كمه.

- ايبى، ايبى أين ستذهب؟

- سأبحث عن نوفريت وسترى إذا كان بإمكانها أن تهزأ بى.

- انتظر قليلا فيجب أن تهدأ. لا يجب أن يفعل أى منا شيئا بتهور.

- تهور؟... وضحك الولد بازدراء.. أنت مثل ياموس. حذر وحرص. لا يجب أن يفعل شئ بسرعة. إن ياموس امرأة عجوز وسوبك مجرد ثرثار متباه، دعينى يا رينسنب... وجذب كم ثوبه اللينون من قبضتها..

- نوفريت، أين نوفريت؟

وغمغمت هينيت التى كانت قد جاءت توا من المنزل وهى تفتعل ضجة: آه يا أعزائى هذا شئ سيئ -شئ سيئ جدا. ماذا سيحدث لنا جميعا؟ ماذا عسى كانت تقول سيدتى العزيزة المرحومة؟

- أين نوفريت يا هينيت؟

وهتفت رينسنب: لا تخبريه... ولكن هينيت كانت قد أجابت: لقد خرجت من الباب الخلفى وذهبت نحو حقول الكتان.

وهرع ايبى إلى داخل المنزل وقالت رينسنب معاتبة: ما كان يجب أن تخبريه يا هينيت.

- أنك لا تثقين بهينيت العجوز. أنتم لا تثقون بى أبدا... ووضحت النبرة الشاكية فى صوتها أكثر وأكثر.. ولكن هينيت العجوز المسكينة تعرف ما تفعله. إن الفتى يحتاج لبعض الوقت لتهدأ ثورته وهو لن يجد نوفريت فى حقول الكتان.. وابتسمت.. ان نوفريت هنا فى الكوخ مع كامانى.. وأومأت برأسها عبر الفناء ثم أضافت وهى تضغط على الكلمات بما يبدو أنه ضغط غير مناسب: مع كامانى.

ولكن رينسنب كانت قد بدأت تعبر الفناء.

جاءت تيتى تجرى من البحيرة نحو والدتها، ورفعتها رينسنب بين

ذراعيها واحتضنتها، وشعرت وهى تحتضن الطفلة بالقوة التى تدفع ساتيبى وكيت.

ان هاتين المرأتين تحاربان من أجل أطفالهما. وأطلقت تيتى صرخة صغيرة: لا تمسكى بى بهذه الشدة يا أمى أنك تؤلميننى.

وأنزلت رينسنب الطفلة، وذهبت ببطء عبر الفناء فى الجانب الأخر من الكوخ وكانت نوفريت وكامانى يتفقان سويا واستدارا عندما اقتربت رينسنب.

تكلمت رينسنب بسرعة وهى تلتقط أنفاسها: نوفريت.. لقد جئت لاحذرك.. يجب أن تأخذى حذرك.. يجب أن تحترسى لنفسك..

وبدت نظرة هازئة على وجه نوفريت.

- إذن فالكلاب تنبح؟

- أنهم غاضبون جدا -أنهم سيؤذونك.

وهزت نوفريت رأسها وقالت بثقة تامة:

- لا يستطيع أحد أن يؤذينى. ولو حدث هذا فسيبلغ الأمر أباك وسينتقم. وسيدركون هذا عندما يفكرون فى الأمر. وضحكت -كم كانوا أغبياء. با هانتهم الحقيرة واضطهادهم لى، كانوا يلعبون كما أريد طوال الوقت.

قالت رينسنب ببطء: إذن فأنت قد خططت لهذا طوال الوقت؟ وأنا التى كنت آسفة من أجلك، أنا التى اعتقدت أننا غير كرماء، أنا غير آسفة.. أنى أعتقد يا نوفريت أنك شريرة وعندما يأتى وقت الحساب فى يوم الحساب لن يكون فى مقدورك أن تقولى: لم أفعل شئ ولا أن

تقولى: أنا لم أكن جشعة. وسيكون ميزان قلبك الذى يوزن أمام ريشة الحق ثقيلا.

قالت نوفريت بعبوس: أنت متدينة جدا على حين فجأة، ولكننى لم أؤذيك يا رينسنب ولم أقل شيئا ضدك.. سلى كامانى أليس هذا حقا.

ثم مضت فعبرت الفناء وصعدت السلم إلى الشرفة، وجاءت هينيت لملاقاتها ودخلت المرأتان إلى المنزل.

واستدارت رينسنب ببطء نحو كامانى.

- إذن أنت يا كامانى الذى ساعدتها أن تفعل بنا هذا.

قال كامانى منفعلا: هل أنت غاضبة منى جدا يا رينسنب؟ ولكن ماذا كان بوسعى أن أفعله؟

قالت رينسنب ببطء: انى لا أستطيع أن ألومك فقد كان عليك على ما أظن أن تطيع أوامر أبى.

- انى لم أكن راضيا عما فعلته. وانها لحقيقة يا رينسنب أنه لم تكن كلمة واحدة ضدك.

- هذا لا يهمنى.

- ولكنه يهمنى أنا، فمهما كانت نوفريت قد قالت لى، ما كنت سأكتب كلمة تؤذيك أنت يا رينسنب أرجوك صدقينى.

هزت رينسنب رأسها حائرة فان النقطة التى كان كامانى يجاهد لإبرازها بدت غير ذات أهمية لها. كانت تشعر بالغضب، وجرح شعورها كما لو أن كامانى بطريقة ما قد خيب ظنها فيه، ومع ذلك فهو غريب، ولو أنه يمت إليهم بصلة قرابة، لكنه مع كل غريب أتى به

والدها من مكان بعيد من الريف. أنه كاتب صغير عهد إليه بمهمة من مخدومه ونفذها مطيعا.

ردد كامانى فى إصرار: أنا لم أكتب إلا الحقيقة. لم تكن هناك أية أكاذيب فى الرسالة أنى أقسم لك بذلك.

قالت رينسنب: لا.. إن نوفريت أذكى من أن تبعث بأكاذيب فى الرسالة.

إن أسا العجوز كانت بعد على حق. إن هذا الاضطهاد الذى كان يسر ساتيبى وكيت كان بالضبط هو ما تريده نوفريت. فلا عجب من أنها كانت تبتسم طوال الوقت ابتسامتها التى تشبه القطط.

قالت رينسنب وهى تتابع أفكارها: أنها شريرة نعم.. ووافقتها كامانى، أنها انسانه شريرة.

واستدارت رينسنب ونظرت إليه بفضول: أنك كنت تعرفها قبل أن تأتى الى هنا أليس كذلك؟ أنك كنت تعرفها فى ممفيس؟

واحمر وجه كامانى وبدا عليه الارتباك.

- لم أكن أعرفها جيدا.. كنت قد سمعت عنها. يقال أنها فتاة قاسية وطموحة ولا تغتفر.

أمالت رينسنب رأسها إلى الوراء بصبر نافد وفجأة قالت، أنا لا أصدق هذا. إن أبى لن يفعل ما يهدد به. أنه غاضب الآن. ولكنه لا يمكن أن يكون ظالما إلى هذا الحد. سيعفو عندما يعود.

قال كامانى: نوفريت ستحرص على أن لا يغير رأيه عند عودته. أنك لا تعرفين نوفريت يا رينسنب أنها ذكية جدا وعنيدة. وهى، تذكرى، جميلة جدا.

وأقرت رينسنب: نعم أنها جميلة.

وتنهدت لسبب ما آلمتها فكرة جمال نوفريت.

* * *

أمضت رينسنب بعد الظهر فى اللعب مع الأطفال. وقل الألم المبهم الذى كان فى قلبها وهى تشاركهم لعبهم. وقبل غروب الشمس بقليل انتصبت واقفة وأصلحت من شعرها وثوبها اللذين كانا قد فقدا ترتيبهما، وتساءلت عرضا لماذا لم تخرج ساتيبى وكيت إلى الحديقة كالمعتاد.

كان كامانى قد غادر الحوش منذ وقت طويل ومضت رينسنب ببطء نحو المنزل. لم يكن أحد موجودا فى حجرة الجلوس ومضت نحو مؤخرة المنزل وجناح النساء.

كانت أسا نصف نائمة فى ركن من الحجرة وكانت جاريتها الصغيرة تضع علامات على الملاءات. وفى المطبخ كانوا يخبزون خبزا مثلث الشكل ولم يكن أحد موجودا خلاف ذلك فى المنزل.

شعرت رينسنب شعورا غريبا بالفراغ. أين ذهب الجميع؟

حورى على الأرجح ذهب إلى المقبرة، وقد يكون ياموس معه أو فى الحقول. سوبك وايبى يراقبان الماشية أو يلاحظان القمح. ولكن أين ساتيبى وكيت وأين.. نعم.. أين نوفريت.

كانت رائحة عطور نوفريت القوية تملأ غرفتها، ووقفت رينسنب على عتبة الباب تحدق فى المنضدة الخشبية الصغيرة وصندوق الجواهر وعدد من الأساور وخاتم فيه جعران أزرق زاه. عطور ودهون وملابس وصنادل. كلها أشياء تتحدث عن صاحبتها، عن نوفريت

الغريبة العدوة التى تعيش وسطهم.

وتساءلت رينسنب: أين نوفريت؟

ومضت ببطء نحو مؤخرة المنزل وقابلت هينيت وهى تدخل من الباب الخلفى.

- أين الجميع يا هينيت؟ أن المنزل خال من الكل ما عدا جدتى.

- وأنى لى أن أعرف يا رينسنب؟ لقد كنت أعمل. أساعد فى الغزل وأراقب ألف شئ.. أنى لا وقت عندى للتنزه.

وفكرت رينسنب: هذا يعنى أن هناك من ذهب للنزهة. ربما ذهبت ساتيبى وراء ياموس حتى المقبرة لتشاحنه أكثر؟ ولكن أين كيت؟ ليس من عادتها أن تبتعد عن أطفالها لفترة طويلة.

ومرة أخرى ساورتها الفكرة الخفية: أين نوفريت؟ وكما لو أن هينيت قرأت أفكارها جاوبت كمن ترد عليها.

- أما عن نوفريت فقد ذهبت منذ وقت طويل إلى المقبرة. آه حسنا أن حورى كفء لها.

وضحكت هينيت بغل: إن حورى ذكى أيضا -واقتربت من رينسنب- أتمنى أن تعرفى يا رينسنب كم أنا تعسة مما حدث. أتعرفين لقد جاءت إلى فى ذلك اليوم، وعلى وجنتها آثار يد كيت والدم يسيل من وجهها، وأجبرت كامانى أن يكتب وأجبرتنى أن أقول ما رأيته. وبالطبع لم يكن فى وسعى أن أقول أنى لم أر هذا آه أنها ذكية وكنت أفكر طوال الوقت فى والدتك العزيزة.

تركتها رينسنب ومضت إلى الخارج فى أشعة شمس العصر

المحرقة. كانت ظلال داكنة على التلال وبدا العالم أجمع خاليا غريب الشكل فى ساعة الغروب هذه.

وأسرعت خطى رينسنب وهى تتخذ طريقها الى الطريق المؤدى إلى الجبل لتصعد إلى المقبرة وستجد حورى هناك. أجل ستجد حورى، فان هذا كان ما تفعله خائفة أو مرتبكة. إن حورى مثل الجبال، ثابت لا يتحول ولا يغيره شئ.

فكرت رينسنب باضطراب: سيكون كل شئ على ما يرام أصل إلى حورى.. وأسرعت، كانت تجرى تقريبا.

ثم فجأة رأت ساتيبى آتية نحوها. إن ساتيبى أيضا قد صعدت إلى المقبرة. كم تبدو الطريقة التى تسير بها ساتيبى غريبة تتمايل من ناحية الى أخرى وتتعثر كما لو كانت لا ترى ما أمامها.

وعندما رأت ساتيبى رينسنب توقفت ووضعت يدها على صدرها. وأجفلت رينسنب حينما اقتربت ورأت وجه ساتيبى.

– ما بك يا ساتيبى؟ هل أنت مريضة؟

وأجابت ساتيبى فى صوت مثل نعيب الغراب وعيناها تتحركان من ناحية لأخرى.

– كلا.. كلا.. بالطبع لا.

– انك تبدين مريضة. يبدو عليك الخوف. ماذا حدث؟

– ماذا كان يجب أن يحدث؟ لا شئ بالطبع.

– أين كنت؟

– صعدت إلى المقبرة، لأرى ياموس ولم يكن هناك، لم يكن هناك أحد.

كانت رينسنب ما تزال تحدق فى ساتيبى. إن هذه ساتيبى جديدة عليها. ساتيبى قد استنزفت منها كل شجاعتها وحزمها.

– هيا يا رينسنب. ارجعى إلى المنزل.

ووضعت ساتيبى يدها التى ترتعش قليلا على ذراع رينسنب وهى تحثها على الرجوع، وشعرت رينسنب عندما لمستها ساتيبى، بثورة مفاجئة.

– لا .. انى صاعدة للمقبرة.

– أقول لك أنه لا يوجد أحد هناك.

– أحب أن أجلس هناك وأنظر إلى النهر.

– لكن الشمس تغرب. لقد تأخر الوقت.

وأمسكت أصابع ساتيبى بشدة بذراع رينسنب، وشدت رينسنب ذراعها بقوة وأفلتت من قبضة ساتيبى.

– لا تمسكى بى هكذا، دعينى أذهب يا ساتيبى.

– لا، عودى، عودى معى.

ولكن رينسنب كانت قد أفلتت منها ومضت متخطية إياها فى طريقها إلى الجبل.

هناك أمر ما، ان غريزتها تقول لها هذا .. وأسرعت خطاها حتى أصبحت تجرى.

ثم رأتها –الكومة الداكنة الراقدة فى ظل الجبل– وأسرعت حتى وقفت بجانبها، لم تدهش لما رأته، كما لو أنها كانت تتوقعه.

كانت نوفريت ممددة ووجهها إلى أعلى وقد تحطم جسدها والتوى وكانت عيناها مفتوحتين بدون حياة.

انحنت رينسنب ولمست الوجنة الباردة ثم انتصبت مرة أخرى ووقفت تنظر اليها ولم تسمع ساتيبى وهى تصل خلفها.

كانت ساتيبى تقول: لابد أنها سقطت، أنها سقطت ووقعت لقد كانت تمشى على حافة الجبل ووقعت.

وفكرت رينسنب: نعم إن هذا هو ما حدث. لقد سقطت نوفريت من درب الجبل وقد ارتطم جسدها بالصخور الجيرية.

قالت ساتيبى: من الجائز أنها رأت ثعبانا وأجفلت. هناك ثعابين تنام فى الشمس فى هذا الطريق فى بعض الأحيان.

ثعابين. نعم ثعابين. سوبك والثعبان. ثعبان وقد تحطم ظهره ملقى ميتا فى الشمس.. سوبك وعيناه تلمعان.

فكرت: سوبك.. نوفريت..

ثم جاءتها المعونة فجأة عندما سمعت صوت حورى، ماذا حدث؟

استدارت بارتياح.. لقد جاء ياموس وحورى معا. وكانت ساتيبى تشرح بحماس أن نوفريت لابد أن تكون قد وقعت من أعلى الطريق.

قال ياموس: لابد أنها صعدت لتقابلنا ولكن حورى وأنا كنا نفتش على قنوات الرى. لقد تغيبنا ساعة على الاقل ورأيناكما واقفتين هنا ونحن عائدان... وقالت رينسنب وقد أدهشها صوتهما الغريب، أين سوبك؟

وشعرت بحورى وهو يدير رأسه بحدة عند سماعه لهذا السؤال. وبدا من صوت ياموس أنه فى حيرة حينما قال: سوبك؟ أنى لم أره

طوال بعد الظهر بعد أن تركنا فى المنزل وهو غاضب.

ولكن حورى كان ينظر لرينسنب، ورفعت عينيها وقابلت عينيه ورأته يحول نظرته عنها وينظر مفكرا إلى أسفل نحو جسد نوفريت وأدركت بالضبط ما يفكر فيه.

تمتم متسائلا: سوبك؟

وسمعت رينسنب نفسها وهى تقول: آه.. كلا.. آه كلا.. كلا..

قالت ساتيبى بعجلة مرة أخرى، انها وقعت من فوق الطريق الجبلى.. أنه ضيق فى هذه المنطقة، وخطر..

سوبك يحب القتل: سأفعله، سأفعله بسرور.. سوبك وهو يقتل الثعبان.

سوبك يقابل نوفريت فى هذا الطريق الضيق..

وسمعت نفسها وهى تغمغم بارتباك: نحن لا نعرف، نحن لا نعرف.

ثم سمعت بارتياح لا حد له وبشعور من أزيح عنه حمل ثقيل، صوت حورى الجاد وهو يؤيد ويزيد من قيمة تأكيدات ساتيبى:

– لابد أنها سقطت من فوق الطريق الجبلى...

وتقابلت عيناه مع عينى رينسنب وفكرت: هو وأنا سنعرف.. سنعرف دائما..

وسمعت صوتها يقول بارتعاش، لقد سقطت من الطريق الجبلى..

ومثل صدى أخير للنغم جاء صوت ياموس الرقيق: أنها لابد أن تكون قد سقطت من فوق الطريق الجبلى.

الشهر الرابع من الشتاء، اليوم السادس

جلس أمحتوب فى مواجهة أسا.

قال متبرما: أنهم يروون جميعا نفس الرواية.

أسا:

- هذا على الأقل شئ مريح.

- مريح -مريح؟ ما أغرب الكلمات التى تستعملينها.

وضحكت أسا ضحكة قصيرة.

- أنا أعرف ما أقوله يا بنى.

- هل يذكرون الحقيقة؟ هذا ما على أن أقرره.. قالها أمحتوب بصوت ينذر بالسوء.

- انك لست الآلهة (مات) ولا تستطيع مثل (عنابيس) أن تزن القلب فى الميزان.

- هل كان حادثا؟ وهز أمحتوب رأسه كقاض.. إن على أن أتذكر أن إعلان نواياى تجاه عائلتى الناكرة للجميل قد يكون آثار بعض الانفعالات.

- نعم بالفعل أثيرت الانفعالات، وكانوا يصيحون فى البهو الرئيسى لدرجة أنه كان فى وسعى سماع ما يقال من غرفتى هنا، وعلى فكرة هل كانت هذه هى نواياك حقا؟

وتململ أمحتوب بعدم ارتياح وهو يغمغم: كنت غاضبا وأنا أكتب - وكنت على حق فى غضبى كانت أسرتى فى حاجة لدرس قاس.

- بمعنى آخر كنت أنوى مجرد أخافتهم. أليس كذلك؟

- هل هذا يهم الآن يا أمى العزيزة؟

- أنى أرى أنك لم تعرف ما تنوى أن تفعله. تفكير مشوش كالمعتاد.

وتحكم أمحتوب بجهد فى انفعاله.

- إن ما أعنيه ببساطة هو أن هذه النقطة لم يعد لبحثها مجال. إن ما هو محل بحث الآن. هو ظروف موت نوفريت. فلو أنى اقتنعت أن أى فرد من أسرتى يمكن أن يكون غير مخلص وغير متزن فى غضبه لدرجة أن يؤذى جزافا الفتاة -أنا- أنا لا أعرف حقيقة ما أفعله فى هذه الحالة.

- لذلك فانه من حسن الحظ أنهم جميعا يروون نفس الرواية. لم يلمح أحد إلى شئ أليس كذلك؟

- بالتأكيد لا.

- إذن لماذا لا تعتبر الحادث منتهيا؟ كان يجب أن تأخذ الفتاة معك إلى الشمال.. لقد قلت هذا فى ذلك الوقت.

- إذن فأنت تعتقدين.

قالت أسا وهى تشدد على كلماتها للتأكيد، أنى أصدق ما يقال لى ما لم يتعارض مع ما رأيته بعينى، وهذا يحدث قليلا جدا الآن -أو سمعته باذنى- أنت استجوبت هينيت على ما أظن. ماذا قالت عن هذا الموضوع؟

– أنها حزينة جدا –أنها مغمومة جدا من أجلى.

ورفعت أسا حاجبيها.

– أحقا. أنت تدهشنى.

قال امحتوب بحماس: ان لهينيت قلبا كبيرا.

– بالضبط ولها أيضا لسان أطول من المعتاد، لو كان رد فعلها الوحيد هو الحزن على فجيعتك فانى بالتأكيد لو كنت فى مكانك فسأنظر للموضوع على أنه قد انتهى، وهناك أمور أخرى عديدة تسترعى انتباهك.

– نعم بالفعل... ونهض أمحتوب وقد استعاد أسلوبه الصاخب المهم: ياموس ينتظرنى الآن فى البهو الرئيسى ولديه كثير من الأمور المتنوعة التى تتطلب عنايتى العاجلة، وهناك قرارات عديدة تنتظر موافقتى عليها، وكما تقولين فان الحزن الشخصى لا يصح أن يحل محل الوظائف الرئيسية للحياة.

وهرع خارجا.

وابتسمت أسا لبرهة ابتسامة فيها شئ من التهكم، ثم ظهر الجد مرة أخرى على وجهها وتنهدت وهزت رأسها.

* * *

كان ياموس ومعه كامانى ينتظر أباه، وشرح لأبيه سبب غياب حورى الذى كان يشرف على عمل المحنطين والحانوتية الذين كانوا مشغولين فى أول مراحل إعداد الجنازة.

كان أمحتوب قد استغرق بضعة أسابيع فى رحلته عائدا الى منزله

-بعد أن تلقى نبأ موت نوفريت، وكانت استعدادات الجنازة قد تمت الآن. فالجثمان قد نقع الفترة المطلوبة فى محلول الماء المخصوص، وقد أعيد إلى شكله الاصلى وسكب عليه الزيت ودلك بالأملاح ولف فى لفائفه كما يجب ووضع فى نعشه.

وأوضح ياموس لأبيه انه قد اختار (لنوفريت) حجرة صغيرة للدفن بجوار المقبرة الحجرية التى شيدت لتضم جثمان أمحتوب نفسه، ومضى يشرح بالتفصيل ما قد أمر به وأعرب أمحتوب عن موافقته على كل هذا.

قال أمحتوب بحنو: خيرا ما فعلت يا ياموس. يبدو انك قد أظهرت رأيا سديدا جدا وانك تصرفت بحكمة. وأحمر وجه ياموس قليلا لهذا الإطراء غير المنتظر، ومضى أمحتوب يقول: إن ايبى ومنتو هما بالطبع محنطين يكلفان الكثير فمثلا هذه الأوعية لحفظ الأحشاء تبدو لى غالية بدون سبب. وليس هناك حاجة فى الحقيقة لكل هذا الاسراف، ويبدو لى أن الكثير من قوائمهم غالية الثمن وهذا هو الحال مع المحنطين الذين استخدمتهم عائلة الحاكم، فإنهم يعتقدون أن بإمكانهم طلب أية أسعار خيالية كما يشاءون. كان الأمر سيتكلف أقل بكثير لو استخدمنا أناسا آخرين غير مشهورين مثلهم.

قال ياموس: كان على -فى غيابك- أن أقرر هذه الأمور، وكنت مهتما بأن يعطى كل الاحترام لمحظية تكن لها كل هذا الحب.

وأومأ أمحتوب وربت على كتف ياموس:

- كانت هذه غلطة مباحة يا بنى: فأنت كما أعرف عادة حريص جدا فى الأمور المالية. وأنا أقدر أنك فى هذا الموضوع قد أنفقت مبالغ

بلا حاجة لكى تسعدنى. ولكن مع كل فانى لست غنيا جدا، والمحظية هى -أحم- مجرد محظية. أعتقد أننا سنلغى الأحجبة الغالية ودعنى أرى هناك بعض الوسائل لتخفيض المصروفات.. اقرأ قائمة المصروفات يا كامانى.

وقلب كامانى الأوراق وتنهد ياموس بارتياح.

* * *

خرجت كيت ببطء من المنزل، وذهبت إلى البحيرة وتوقفت حيث كان الأطفال والأمهات.

كيت: أنك كنت على حق يا ساتيبى فان محظية على قيد الحياة ليست كمحظية ميتة. ونظرت إليها ساتيبى باعين لا ترى. وكان رينسنب هى التى سألت بسرعة: ماذا تعنين يا كيت؟

- لم يكن هناك شئ يغلو على المحظية الحية -الملابس والجواهر- وحتى أرث أمحتوب وحرمان من هم من لحمه ودمه منه. ولكن أمحتوب الآن مشغول بإنقاص نفقات الجنازة. وعلى كل حال فلماذا يصرف نقوده على امرأة ميتة؟ نعم يا ساتيبى كنت على صواب.

وتمتمت ساتيبى، ماذا قلت؟ لقد نسيت.. ووافقتها كيت: نعم هذا أفضل. أنا أيضا نسيت وكذلك رينسنب.

نظرت رينسنب إلى كيت دون أن تتكلم. كان هناك شئ ما فى صوت كيت -شئ فيه قليل من التهديد لم يعجب رينسنب. كانت معتادة دائما أن تفكر فى كيت كامرأة غبية نوعا -امرأة رقيقة ومطيعة ولكن كمية مهملة نوعا. وصدمت الآن بأن كيت وساتيبى بدتا كمن تبادلتا شخصيتهما، فساتيبى المسيطرة المشاكسة أصبحت مذعنة بل وتقريبا

جبانة. وكيت الهادئة تبدو الآن مسيطرة على ساتيبى.

وفكرت رينسنب: ولكن الناس لا يغيرون شخصياتهم حقا -أم هل يغيرونها؟ وشعرت بحيرة. هل تغيرت كيت وساتيبى حقا فى الأسابيع القليلة الماضية أم هل التغيير الذى طرأ على واحدة هو نتيجة لتغير الأخرى؟ هل هى كيت التى أصبحت مشاكسة؟ أم هل تبدو هكذا بسبب انهيار ساتيبى المفاجئ؟

ان ساتيبى قطعا متغيرة، فصوتها لم يعد يرتفع بنبراته الحادة المألوفة، وأصبحت تمشى فى الفناء وفى البيت بطريقة عصبية ومنكمشة لا تشبه فى شئ طريقتها العادية المعتادة، وكانت رينسنب قد نسيت هذا التغير لصدمة موت نوفريت ولكن ما لا يصدق أن تدوم تلك الصدمة هذه المدة الطويلة.

ولم تتمالك رينسنب نفسها من التفكير انه كان من الأقرب لطبيعة ساتيبى أن تكون قد ابتهجت -بدون مواربة كأمر واقعى- لموت المحظية المفاجئ. ولكن على العكس من هذا كانت تتكمش بعصبية كلما ذكر اسم نوفريت. وحتى ياموس أعفى من سيطرتها وشجارها وبدأ، نتيجة لذلك فى اتخاذ سلوك أكثر حزما. وعلى أية حال فان التغيير الذى حدث لساتيبى كان تغيرا حسنا -أو هكذا على الأقل ما تظنه رينسنب ولكن كان هناك مع ذلك شئ ما فى هذا التغيير يجعلها غير مرتاحة..

وفجأة أجفلت رينسنب عندما أدركت أن كيت تنظر اليها عابسة، وأدركت أنها تنتظر كلمة موافقة على ما قالته.

ورددت كيت: إن رينسنب أيضا قد نسيت.

وفجأة شعرت رينسنب بثورة من الغضب تغمرها. لن تملى عليها

كيت أو ساتيبى أو أى شخص آخر ما يجب وما لا يجب أن تتذكره. وقابلت نظرة كيت بحزم ونظرة واضحة من التحدى.

قالت كيت: إن نساء الدار يجب أن يقفن معا.

واستطاعت رينسنب أن تتكلم أخيرا وقالت بوضوح وتحد، لماذا؟

– لان مصالحهن واحدة.

وهزت رينسنب رأسها بعنف وفكرت بارتباك.

أنا بجانب كونى امرأة انسانة لى كيانى المستقل.. اننى رينسنب.

وقالت بصوت عال: ليس الأمر بهذه البساطة.

– هل تريدين إثارة المتاعب يا رينسنب؟

– كلا. على أى حال ماذا تعنين بالمتاعب؟

– إن كل شئ قيل فى البهو الرئيسى فى ذلك اليوم من الأفضل نسيانه.

وضحكت رينسنب وقالت: أنت غبية يا كيت فان الخدم والعبيد وجدتى – وكل شخص سمعوا بالتأكيد. ولماذا ندعى أن أشياء لم تحدث بينما هى حدثت فعلا؟

قالت ساتيبى فى صوت كئيب: كنا غاضبين، ولم نكن نعنى ما نقوله... وأضافت بعصبية: كفى عن الحديث فى هذا الموضوع يا كيت. إذا كانت رينسنب تريد إثارة المتاعب فدعيها تفعل.

وقالت رينسنب باستنكار: انى لا أريد إثارة متاعب ولكن من الغباء التظاهر بما ليس حقيقيا.

قالت كيت: لا.. إن من الحكمة أن نفعل هذا ويجب أن تراعى تيتى.

- إن تيتى بخير.

- إن كل شئ بخير -الآن وقد ماتت نوفريت.. وابتسمت كيت.

كانت ابتسامة هادئة قانعة وصافية -ومرة أخرى شعرت رينسنب بموجة من الثورة تجتاحها، ومع ذلك فان ما قالته حقيقيا، فانه الآن -وقد ماتت نوفريت أصبح كل شئ على ما يرام، فان ساتيبى وكيت وهى والأطفال -أصبحوا آمنين- فى سلام- وبدون خوف من المستقبل. والدخيلة الغريبة التى كانت تهددهم وتقلقهم قد رحلت إلى الأبد.

إذن لماذا هذه المشاعر الثائرة التى لا تفهمها بخصوص نوفريت؟ لماذا هذا الشعور بمناصرة الفتاة الميتة التى لم تكن تحبها؟ كانت نوفريت شريرة وقد ماتت. إلا يمكن أن يترك الأمر عند هذا الحد..؟ لم هذا الشعور المفاجئ بالرأفة -بل أكثر من الرأفة- بشئ يكاد يكون عطفا؟

وهزت رينسنب رأسها بحيرة وجلست هناك بجوار الماء -بعد أن دخل الآخرون المنزل- وهى تحاول بلا جدوى أن تفهم هذه الخواطر المربكة التى تدور فى رأسها.

كانت الشمس قد قاربت الغروب عندما رآها حورى وهو يعبر الفناء وجاء فجلس بجانبها.

- إن الوقت متأخر يا رينسنب. الشمس تغرب. من الأفضل أن تدخلى.

وكان لصوته الهادئ الرزين وقع مسكن لها كدأبه وتحولت إليه بسؤال: أيجب أن تتحد النساء اللاتى فى بيت واحد؟

- من قال لك هذا يا رينسنب.

- كيت هى وساتيبى... وتوقفت عن الكلام.

– وأنت –تريدين أن تستقلى بتفكيرك؟

– آه أفكر. أنا لا أعرف كيف أفكر يا حورى.. إن كل شئ مرتبك فى رأسى. الناس مريكون، الجميع مختلفون عما كنت أعتقد. كنت دائما أعتقد أن ساتيبى جسورة وحازمة ومسيطرة ولكنها الآن ضعيفة ومتذبذبة وحتى خجولة. إذن ماذا تكون ساتيبى الحقيقية؟ إن الناس لا يمكن أن يتغيروا هكذا فى يوم واحد.

– لا ليس فى يوم.

– وكيت –وهى التى كانت دائما مستسلمة وديعة تترك الجميع يسيرونها– الآن تسيطر علينا جميعا. حتى سوبك يبدو خائفا منها. وحتى ياموس أصبح مختلفا– أنه يصدر الأوامر وينتظر أن تطاع هذه الأوامر.

– وكل هذا يحيرك يا رينسنب؟

– نعم. لأنى لا أفهم. أنى أشعر فى بعض الأحيان أنه حتى هينيت ممكن أن تكون مختلفة تماما عما تبدو.

وضحكت رينسنب كما لو كان هذا شيئا غير معقول ولكن حورى لم يشاركها الضحك وظل وجهه جادا ومفكرا.

– أنك لم تفكرى كثيرا فى الناس قبل ذلك يا رينسنب؟ فلو كنت فكرت لكنت أدركت.

وتوقف ثم مضى يقول: أنت تعرفين أنه يوجد دائما باب وهمى فى كل المقابر؟

وحدجته رينسنب: نعم بالطبع.

– حسنا هكذا الناس أيضا. أنهم يخلقون بابا وهميا –للتمويه. لو

شعروا بضعف أو بعدم كفاءة فإنهم يقيمون بابا مهيبا من الثقة بالنفس واللغو والتعالى الشامل -ويدور الزمن يبدأون هم أنفسهم فى تصديق هذا. ويعتقد الجميع أنهم حقا هكذا، ولكن خلف هذا الباب يا رينسنب: مجرد حجر.. ولذلك عندما يمسهم الواقع بريشة من الصدق -تظهر حقيقتهم، وبالنسبة لكيت فان رقتها وخضوعها جلبا لها ما كانت تتمناه -زوجا وأولادا وكان الغباء يسهل حياتها ولكن عندما هددها الواقع فى صورة الخطر ظهرت على حقيقتها. أنها لم تتغير يا رينسنب -إن هذه القوة والقسوة كانتا كامنتين فيها دائما.

قالت رينسنب بسذاجة: لكنى لا أحب هذا يا حورى فانه يخيفنى. إن الجميع مختلفون عما كنت أظنهم. ولكن ماذا عن نفسى؟ أنى لم أتغير.

- أهذا صحيح؟ وابتسم لها: إذن لماذا جلست هنا كل هذه الساعات عابسة الجبين تفكرين وتتأملين؟ هل كان رينسنب السابقة - رينسنب ذهبت مع فاى- تفعل هذا أبدا؟

- آه كلا. لم يكن هناك داع. -وتوقفت.

- أترين؟ لقد قلتها بنفسك. هذا هو الواقع. فانه لم يكن هناك داع لهذا فى ذلك الوقت.

- إن الحاجة تتطور بالمرء وأنت لست الطفلة السعيدة التى لا تفكر كما كنت تبدين دائما وتتقبلين الأمور كما تبدو. اننى لست مجرد امرأة من أهل البيت. أنت رينسنب التى تريد أن تستقل بتفكيرها والتى تتساءل عن الآخرين.

قالت رينسنب ببطء، كنت أتساءل عن نوفريت.

- تتساءلين عن ماذا؟

– كنت أتساءل لماذا لا أستطيع أن أنساها.. أنها كانت شريرة وقاسية وحاولت أن تؤذينا جميعا وقد ماتت لماذا لا أترك الأمر عند هذا الحد؟

– هل تستطيعين أن تتركيه عند هذا الحد؟

– لا.. انى أحاول –ولكن– وتوقفت ومسحت عينيها بحيرة: فى بعض الأحيان أشعر أنى أعرف أمورا عن نوفريت يا حورى.

– ماذا تعنين؟

– لا أستطيع أن أوضح ولكن –بين الحين والأخر أشعر بهذا– كما لو كانت هنا بجانبى. انى أشعر –أكاد أشعر أننى هى ويبدو لى أنى أدرك ما كانت تشعر به –لقد كانت تعسة جدا يا حورى.. انى أعرف هذا الآن ولو انى كنت لا أعرفه فى الماضى. كانت تريد أن تؤذينا كلنا لأنها كانت تعسة جدا.

– لا يمكن أن تعرفى هذا يا رينسنب.

– بالطبع لا يمكننى أن أعرفه ولكن هذا ما أشعر به. تلك التعاسة والمرارة والحقد الدفين –لقد رأيتها فى وجهها مرة ولم أفهم أنها لابد أحبت شخصا ثم حدث شئ ما –ربما مات– أو رحل بعيدا. ولكن الأمور جعلتها هكذا– تريد أن تؤذى وتجرح.. آه. فى وسعك أن تقول ما تشاء، ولكنى أعرف أنى على حق. لقد أصبحت محظية هذا الرجل العجوز –ابى وجاءت إلى هنا ولم نحبها– وفكرت أن تتعسنا جميعا مثلها– نعم هكذا جرت الأمور.

ونظر إليها حورى بفضول:

- كم تبدين واثقة يا رينسنب ومع ذلك فأنت لم تعرفى نوفريت جيدا.

- ولكنى أشعر أن هذه هى الحقيقة يا حورى. انى أشعر بها - نوفريت وفى بعض الأحيان أشعر بها قريبة جدا بجوارى.

- أجل.. أجل..

وسادت بينهما فترة سكون. كان الظلام يكاد يحل.

ثم قال حورى بهدوء: أنك تعتقدين أليس كذلك، أن نوفريت لم تمت نتيجة حادث؟ أنت تعتقدين أنها ألقيت إلى أسفل؟

وشعرت رينسنب بنفور شديد لهذه الكلمات التى تعبر فى الواقع عما يدور فى ذهنها.

- لا. لا تقل هذا.

- ولكنى أعتقد يا رينسنب أنه من الأفضل أن تقوله -بما أنه يجول بخاطرك.. أتعتقدين هذا؟

- أنا؟ نعم.

وأحنى حورى رأسه مفكرا ومضى يقول، وأنت تعتقدين أن سوبك هو الفاعل؟

- ومن يمكن أن يكون غيره؟ أتذكره مع الثعبان؟ وأتذكر ما قاله - فى ذلك اليوم- يوم وفاتها- قبل أن يخرج من البهو الكبير؟

- نعم أنى أذكر ما قاله. لكن فى معظم الأحيان ليس الذين يتكلمون كثيرا هم الذين يفعلون.

- لكن ألا تعتقد أنها قتلت؟

– نعم أنى أعتقد هذا –ولكن هذا فضلا عن كونه، مجرد رأى فليس عندى دليل عليه. ولا أعتقد انه يمكن أن يوجد أبدا دليل. لهذا شجعت أمحتوب على تقبل الأمر كحادث. إن شخصا ما دفع نوفريت – ولن نعرف أبدا من هو.

– أتعنى أنك لا تعتقد أنه كان سوبك.

– أنا لا أعتقد هذا ولكن أقول: لا يمكن أن نعرف أبدا– لذلك فمن الأفضل الا نفكر فى هذا.

– ولكن أن لم يكن سوبك فمن تظنه يكون؟

وهز حورى رأسه.

– لو كانت لدى فكرة –فقد تكون خاطئة. لذلك فمن الأفضل إلا أقولها..

– لكن إذن– لن نعرف أبدا.

كان ثمة قنوط فى صوت رينسنب.

ربما... وتردد حورى: ربما كان هذا أفضل شئ.

– أن لا نعرف؟

وارتعشت رينسنب: ولكن إذا –آه حورى أنى خائفة.



الشهر الأول من الصيف، اليوم الحادى عشر

انتهت المراسم وألقيت التعاويذ طبقا للواجب وأخذ (منتو) الكاهن المبجل من معبد هاتور المكنسة المصنوعة من الحشائش وكنس بها بعناية -الحجرة وهو يتلو الطلاسم لإزالة آثار كل الأرواح الشريرة قبل أن يغلق باب المقبرة ويبرشمه إلى الأبد.

ثم برشم الباب ووضع كل ما تبقى مما استعمله المحنطون: أوعية مليئة بالقطران، ملح وأقمشة لامست الجثمان، فى حجرة مجاورة وبرشمت هذه الحجرة أيضا.

وشد أمحتوب قامته وأخذ نفسا طويلا وتخلى عن مظهره الجنائزى -إن كل شئ تم بأفضل طريقة مناسبة- لقد دفنت نوفريت حسب الطقوس الدينية المقررة ولم تقتصد أى نفقات فان بعض النفقات لم يكن لها داع فى رأى امحتوب.

تبادل أمحتوب التحيات مع الكهنة الذين بعد أن فرغوا من عملهم المقدس عاودوا سلوكهم كرجال مجتمع. ونزل الجميع الى المنزل حيث كانت تنتظرهم مرطبات مناسبة. وتناقش أمحتوب مع الأب المبجل فى التغيرات السياسية الحديثة، أن طيبة كانت تتحول بسرعة إلى مدينة قوية جدا وأصبح من الممكن أن تتحد مصر مرة أخرى تحت حكم واحد بعد فترة وجيزة وربما يعود العهد الذهبى لبانى الاهرامات.

تكلم منتو باحترام مؤيدا الملك رع وهو جندى من الطراز الممتاز

ورجل دين أيضا. ان الشمال الفاسد الجبان لن يستطيع أن يصمد أمامه. مصر الموحدة هذا ما تحتاجه البلاد، وسيعنى هذا -بدون شك- شأنا عظيما لطيبة...

تكلم الرجال معا وتناقشوا فى المستقبل.

نظرت رينسيب خلفها إلى الجبل وغرفة المقبرة المغلقة وغمغمت: إذن هذه هى النهاية واجتاحها شعور بالراحة. لقد كانت تخشى شيئا لا تكاد تتبينه. اتهام أو انفجار فى آخر دقيقة؟ ولكن كل شئ تم بهدوء ودفنت (نوفريت) كما يجب وفق كل الطقوس الدينية تلك هى النهاية..

قالت هينيت بصوت منخفض: انى آمل هذا، أنى بالتأكيد آمل هذا يا رينسنب.

واستدارت رينسنب نحوها: ماذا تعنين يا هينيت؟ وتحاشت هينيت نظراتها.

- إنما قلت أنى آمل إن هذه هى النهاية. فى بعض الأحيان يكون ما تعتقدين انه النهاية هو مجرد البداية ولن يكون هذا طيبا أبدا.

قالت رينسنب بغضب: ما الذى تتكلمين عنه يا هينيت؟ ما الذى تلمحين به؟

- انى بالتأكيد لا ألمح أبدا يا رينسنب. أنا لا أقول شيئا من هذا القبيل إطلاقا. لقد دفنت نوفريت والكل راض ولذلك فان كل شئ كما يجب.

- هل سألك أبى عما تعتقدينه بخصوص موت نوفريت؟

- نعم بالتأكيد يا رينسنب. كان مهتما جدا أن أقول له ما أعتقده

بالضبط عن كل هذا.

– وماذا قلت له؟

– حسنا بالطبع قلت له أنى أعتقد أنها كانت حادثة. وما يمكن أن يكون غير ذلك؟ قلت أنت لا تعتقد ولو لدقيقة أن أى فرد من أسرتك يؤذى الفتاة؟ أنهم لا يجرؤون على ذلك. أنهم يحترمونك جدا. قد يتذمرون ولكن لا يفعلون أكثر من هذا بوسعك أن تصدق ما يجرى به لسانى. لم يجر شئ من هذا القبيل.

وأومأت هينيت وضحكت.

– وهل صدقك أبى؟

وأومأت هينيت مرة أخرى برضاء شديد.

– آه، أن أباك يعرف كم أنا متفانية لمصالحه، وهو دائما يصدق كلام هينيت العجوز فى أى أمر، وهو يقدرنى وأن لم يقدرنى أحد منكم. آه حسنا إن فى تفانى لكم جميعا جزائى ولا أنتظر أى شكر.

قالت رينسنب: كنت أيضا متفانية لنوفريت.

– لا أعرف بالتأكيد من أين واتتك هذه الفكرة يا رينسنب. كان على أن أطيع الأوامر مثل الجميع.

– كانت تعتقد أنك متفانية لها.

وضحكت هينيت مرة أخرى.

– إن نوفريت لم تكن ذكية كما كانت تظن نفسها. كانت فتاة متكبرة –تعتقد أن الأرض ملكها.

– حسنا ان عليها إرضاء قضاء العالم الأسفل الآن –ولن ينقصها هناك وجه على أى حال لقد تخلصنا منها.

وأضافت بصوت منخفض وهى تلمس أحد أحجبتها: على الأقل آمل هذا.

* * *

– رينسنب أريد أن أتحدث معك بخصوص ساتيبى.

– نعم يا ياموس.

ونظرت رينسنب بود فى وجه أخيها الرقيق البادى القلق.

قال ياموس ببطء وثقل: هناك شئ ليس على ما يرام بساتيبى وأنا لا أفهمه.

هزت رينسنب رأسها بحزن –كانت لا تجد كلمات مطمئنة لتقولها.

ومضى ياموس يقول: لقد لاحظت هذا التغير فيها منذ بعض الوقت. أنها تجفل وترتعش من أى صوت غير مألوف. أنها لا تأكل ما فيه الكفاية. أنها تمشى زاحفة –كما لو كانت خائفة من خيالها.. لابد أنك لاحظت هذا يا رينسنب؟

– نعم لقد لاحظناه جميعا.

– لقد سألتها أن كانت مريضة وهل أبعث فى طلب طبيب– ولكنها تقول أن ليس بها شئ وأن صحتها جيدة... أعرف.

– اذن لقد سألتها أنت أيضا؟ ولم تقل لك شيئا –لا شئ بالمرة.

وضغط على الكلمات الأخيرة، وعطفت رينسنب عليه لقلقه ولكن

لم يكن لديها ما تقوله لتساعده... أنها مصممة على أنها بخير.

وتمتم ياموس: أنها لا تنام جيدا ليلا- وهى تبكى وهى نائمة -هل هى- هل يمكن أن يكون لديها شئ لا نعرفه يحزنها؟

هزت رينسنب رأسها... لا أرى كيف يمكن أن يكون هذا. فالأولاد على ما يرام ولم يحدث شئ هنا -الا موت نوفريت بالطبع. وأضافت بجفاء: ولا أعتقد أن ساتيبى ستحزن من أجل هذا.

وابتسم ياموس قليلا: لا أبدا بل بالعكس. والى جانب هذا فان هذه الحالة بدأت منذ بعض الوقت. لقد بدأت كما أعتقد قبل موت نوفريت.

كانت نبراته مترددة قليلا، ونظرت إليه رينسنب سريعا وقال ياموس بإصرار رقيق: قبل موت نوفريت. إلا تعتقدين هذا؟

قالت رينسنب ببطء: لم ألاحظ هذا إلا بعد الوفاة.

-ولم تقل لك شيئا- أأنت متأكدة.

وهزت رينسنب رأسها: ولكن أتعرف يا ياموس أنى لا أعتقد أن ساتيبى مريضة. بل يبدو لى أكثر من هذا -أنها خائفة.

هتف ياموس بدهشة: خائفة؟ ولكن لماذا تخاف ساتيبى؟ ومن ماذا؟ إن ساتيبى كانت لديها دائما الشجاعة- شجاعة الاسد.

قالت رينسنب وقد أسقط فى يدها، انى أعرف. كانت هذه فكرتنا جميعا عنها -ولكن الناس تتغير- هذا أمر غريب.

- هل تعتقدين أن كيت تعرف شيئا ما؟ هل تكلمت ساتيبى معها؟

- الأرجح أن تتكلم معها بدلا أن تتكلم معى -ولكنى لا أعتقد هذا. بل فى الواقع أنى واثقة مما أقول.

- وما رأى كيت؟

- كيت؟ كيت لا تفكر أبدا فى أى شئ.

كانت رينسنب تفكر: كل ما فعلته كيت هى أنها استغلت وداعة ساتيبى غير العادية بالاستيلاء لنفسها ولأولادها على أرقى الأقمشة المنسوجة -وهو أمر لم يكن سيسمح به لها أبدا لو كانت ساتيبى فى حالتها الطبيعية، فالمنزل كان سيمتلئ فى هذه الحالة بالمشاحنات الحامية، وكانت واقعة أن ساتيبى قد سمحت بهذا بدون كلمة معارضة قد أثرت على رينسنب أكثر من أى شئ آخر كان ممكنا أن يحدث.

سألت رينسنب: هل تحدثت مع أسا؟ إن جدتنا خبيرة بالنساء وبطرقهن.

قال ياموس بامتعاض خفيف: أن أسا طلبت منى أن أكون شاكرا لهذا التغير. وهى تقول أنه لا يمكن أن يأمل المرء أن ساتيبى ستبقى طويلا -لطيفة ومعتدلة لهذه الدرجة.

قالت رينسنب ببعض التردد: هل سألت هينيت؟

- هينيت؟ وعبس ياموس لا.. انى بالطبع لا أتحدث مع هينيت فى هذه الأمور. فإنها تتدخل فيما لا يعنيها وفوق ذلك فان أبى يفسدها بتدليلها.

- آه أنى أعرف هذا. أنها متعبة جدا. ولكن مع كل فان هينيت فى العادة تعرف أمورا كثيرة.

قال ياموس ببطء: هل لك أن تسأليها أنت يا رينسنب؟ وان تخبرينى بما تقوله؟ لو أردت.

وسألتها رينسنب فى وقت كانت هى وهينيت وحدهما وكانتا فى طريقهما إلى مكان الغزل، وأدهشها أنه بدا أن سؤالها قد أزعج هينيت

التى كانت تتقصها لهفتها المعتادة للقيل والقال.

لمست هينيت تعويذة كانت تلبسها ونظرت خلفها.

- هذا شئ لا يعنينى بالتأكيد.. وليس لى أن ألاحظ إذا كان شخص ما على طبيعته أم لا. أنى لا أتدخل فى غير شئونى ولو كانت هناك متاعب لا أريد أن أتورط فيها.

- متاعب؟ أى نوع من المتاعب؟

وألقت عليها هينيت نظرة جانبية سريعة.

ليس من أى نوع كما آمل، وعلى أى حال متاعب لا داعى لأن يكون لنا بها شأن فأنت وأنا يا رينسب لا شئ هناك تلوم أنفسنا عليه وهذه تعزية كبيرة لى... هل تعنين أن ساتيبى -ماذا تعنين؟

- أنا لا أعنى شيئا يا رينسب- وأرجوك ألا تقولى شيئا لم أقله. أنى لست أكثر من خادمة فى هذا المنزل، وليس من شأنى أبدا الإدلاء فى أمور لا تخصنى. ولو سألتنى رأيى لقلت أن هذا تغير إلى أفضل، وإذا لم يتطور فانه أحسن لنا جميعا. والآن عن إذنك يا رينسب فان على أن أتأكد من أنهم يعلمون القماش بالتاريخ الصحيح فان هؤلاء النساء مهملات، وهن يتكلمن ويضحكن دائما ويهملن عملهن.

وراقبتها رينسب، غير مقتنعة، وهى تهرع إلى المنزل، ثم مشت ببطء راجعة إلى المنزل، ولم تسمعها ساتيبى عندما دخلت غرفتها وأجفلت واستدارت صارخة عندما لمست رينسب كتفيها.

- آه لقد أفزعتنى. لقد ظننت..

- ساتيبى -ما الأمر؟ ألا تقولين لى؟ أن ياموس قلق من أجلك و..؟

وارتفعت يد ساتيبى بسرعة لشفتيها، وقالت وهى تتلعثم بعصبية وقد فتحت عينيها واسعة وهى خائفة.

– ياموس؟ ماذا –ماذا قال؟

– أنه قلق. فأنت تتكلمين وأنت نائمة؟

– رينسنب: وأمسكت ساتيبى ذراعها: هل قلت –ماذا قلت؟

كانت عيناها قد اتسعت من الرعب.

– هل يعتقد ياموس –ماذا قال لك؟

– أن كلانا يعتقد أنك مريضة –أو– أو تعيسة.

– تعيسة؟ رددت ساتيبى الكلمة بطريقة غريبة وبصوت منخفض.

– هل أنت تعيسة يا ساتيبى؟

– ربما.. أنا لا أعرف. لا ليس هنا هو الحال.

– لا. أنك خائفة أليس كذلك؟

وحدجتها ساتيبى بعداء مفاجئ.

– لماذا تقولين هذا؟ لماذا؟ أخاف؟ ماذا هناك ليخيفنى؟

– أنا لا أعرف. لكن هذه هى الحقيقة أليس كذلك؟

واستردت ساتيبى بجهد طريقتها المتصنعة المتعجرفة القديمة وألقت برأسها إلى الوراء.

– أنا لست خائفة من أى شئ –أو أى واحد. كيف تجرؤين على الإيعاز لى بشئ من هذا القبيل يا رينسنب؟ أنى لا أسمح لك بالتحدث

عنى مع ياموس. أنا وياموس نفهم بعضنا. وتوقفت ثم قالت بحدة: نوفريت قد ماتت وتخلصنا منها. هذا ما أقوله وبوسعك أن تقولى لأى واحد يسألك أن هذا هو شعورى تجاه موتها.

وقالت رينسنب متسائلة: نوفريت؟

واشتاطت ساتيبى غضبا وجعلها ذلك تبدو كما كانت من قبل: نوفريت -نوفريت- نوفريت.

أنى سئمت سماع هذا الاسم. لا حاجة بنا فى هذا المنزل لسماعه بعد الآن -وشكرا للآلهة على ذلك.

وانخفض فجأة صوتها الذى كان قد ارتفع عندما دخل ياموس الحجرة وقال بحزم غير عادى (خفضى صوتك يا ساتيبى، لو سمعك أبى لثارت متاعب جديدة. كيف يمكنك التصرف بهذه الرعونة)؟

وكما كانت نبرات ياموس الحازمة المستاءة غير مألوفة كذلك أيضا كانت وداعة ساتيبى المفاجئة وتمتمت: انى آسفة يا ياموس.. لم أفكر.

- حسنا كونى حذرة أكثر فى المستقبل. أنت وكيت أثرتما أكثر المتاعب فى الماضى. فأنتن يا معشر النساء لا أدراك لكن.

تمتمت ساتيبى مرة أخرى: أنى آسفة.

وخرج ياموس وقد شد قامته وأصبحت خطاه أثبت مما كانت لو أن إثباته لسيطرته لمرة واحدة قد أفادته.

ومضت رينسنب ببطء نحو غرفة أسا العجوز، وكانت تشعر أنها ربما وجدت لديها مشورة مفيدة، ولكن أسا التى كانت حينئذ تأكل عنبا بشهية رفضت النظر إليها وإلى الموضوع بجدية.

– ساتيبى؟ ساتيبى؟ لم كل هذه الضجة حول ساتيبى؟ هل تحبون جميعا تعاليها عليكم والأوامر التى تصدرها لكم حتى تثيروا هذه الضجة لأنها تتصرف لمرة بكياسة؟

وبصقت بذر العنب ثم أشارت قائلة: على أى حال هذا الوضع أفضل من أن يدوم –ما لم يستطع ياموس أن يجعله دائما.

– ياموس؟ نعم وأنى آمل أن يكون ياموس قد ثاب إلى رشده أخيرا وضرب ساتيبى جيدا فان هذا هو ما تحتاجه –وهى من الطراز من النساء الذى يسوسه هذا على الأرجح. ولا ريب أن ياموس بطباعه الوديعة الذليلة كان محنة كبيرة لها.

هتفت رينسنب محتجة: إن ياموس لطيف وهو طيب مع الجميع وفى مثل رقة النساء: وأضافت بارتياب إذا كن رقيقات.

وضحكت أسا لهذا القول الأخير وقالت: كلامك فى محله يا حفيدتى. كلا ليست هناك أية رقة فى النساء –أو لو كان هناك فلتساعدهن إيزيس. ولا يوجد الكثير من النساء ممن يرغبن فى زوج طيب ورقيق. بل أنهن يفضلن رجلا وسيما وفظا مثل سوبك. فان أمثاله تعجب بهم الفتيات أو حتى فتى ذكيا مثل كامانى –هه يا رينسنب؟ إن له أيضا ذوقا جميلا فى أغانى الحب هه؟ ها. ها. ها.

شعرت رينسنب بوجنتيها تحمران وقالت بعزة نفس:

– انى لا أفهم ماذا تعنين؟

– أنكم تظنون جميعا أن أسا العجوز لا تعلم ما يجرى. لكنى أعرف جيدا. وحدقت فى رينسنب بعينيها اللتين لا تكاد ترى بهما ومضت تقول: انى أعرف وربما قبل أن تعرفى أنت يا طفلتى. لا تغضبى فهذه

سنة الحيارة يا رينسنب. فاى كان زوجا طيبا- ولكنه الآن يبحر بقاربه فى بحر القرابين. إن الزوجة ستجد زوجا يصطاد السمك فى نهرنا - ولا يعنى هذا ان كامانى سيكون صيادا ماهرا. فان هوايته هى قلمه وورق البردى ولكنه مع هذا شاب وجيه وله ذوق جميل فى الاغانى ومع كل فانى لست متأكدة انه الرجل الذى يصلح لك. إننا لا نعرف الكثير عنه -فهو من الشمال.. ان أمحتوب راض عنه- ولكنى كنت أعتقد دائما أن أمحتوب غر. وفى وسع أى واحد أن يتملقه ويخدعه بأن يمدحه. وعندنا هينيت مثلا.

قالت رينسنب بعزة نفس: أنت مخطئة تماما.

- حسنا جدا. إذن أنا مخطئة. أن أباك ليس غرا.

- ليس هذا ما أعنيه..

- أنا أعرف ما عنيته يا طفلتى ولكنك لا تعرفين كم هو لطيف أن يجلس المرء مثلى مرتاحا وقد فرغ من أمور الزواج والحب والكره. أن يأكل وجبة شهية -بطة أو فرخة سمينة ثم فطيرة بالعسل وبعض الكرات أبو شوشة المطهو جيدا وبعض الكرفس ويبلع كل هذا بكأس من النبيذ السورى ولا يهتم بشئ فى العالم. ينظر إلى كل الاضطرابات والأحزان ويعرف أن لا شئ من هذا يمسه. أن أرى ابنى وهو يتصرف بغباء من أجل فتاة جميلة وأراها وهى تثير زوبعة فى المكان كله -وبوسعى أن أقول لك أن هذا قد أضحكنى. أتعرفين أنى كنت بطريقة ما أحب هذه الفتاة، كانت شيطانة- تلك الطريقة التى كانت تجرحهم جميعا فى الصميم. جعلت سوبك يبدو كالبلونة وخرت ونفست، وايبى كطفل، وياموس أخجلته بإظهاره زوجا تسيطر عليه زوجته. أنه كما يرى المرء نفسه فى

بركة من الماء. لقد جعلتهم يرون كيف يبدون للناس أجمعين. لكن لماذا كانت تكرهك أنت يا رينسنب؟ أعطنى الجواب عن هذا؟

وتكلمت رينسنب بشك: هل كانت تكرهنى؟ لقد -لقد حاولت مرة أن أصادقها.

- ولم تقبل هذه الصداقة؟ أنها كانت تكرهك بالتأكيد يا رينسنب:
وصمتت أسا ثم سألت بحدة: هل يمكن أن يكون هذا بسبب كامانى؟

وقالت أسا مفكرة: أنها هى وكامانى من الشمال ولكن كامانى كان يراقبك أنت وأنت تعبرين الفناء.

قالت رينسنب بجفاء: يجب أن أذهب لاعنى بتيتى.

ولاحقتها ضحكة أسا الرفيعة المتهكمة، وهرعت رينسنب ووجنتاها محمرتان عبر الفناء ونحو البحيرة وناداها كامانى من الشرفة: لقد ألفت أغنية جديدة يا رينسنب انتظرى واسمعيها.

وهزت رأسها ومضت مسرعة. كان قلبها يدق بغضب. كامانى ونوفريت.. نوفريت وكامانى..! لماذا تترك أسا العجوز بولعها الخبيث بالأذى، تضع هذه الأفكار فى رأسها؟ ولماذا تهتم بهذا؟

على أى حال ماذا يهم؟ أنها لا تشعر بأى شئ تجاه كامانى -لا شئ بتاتا. إلا إنه شاب وقح له صوت ضاحك وكتفان تذكرانها بفاى.

فاى.. فاى.

ورددت اسمه بإصرار -ولكن فى هذه المرة لم تظهر صورة فاى أمام عينيها. فاى أصبح فى عالم آخر. انه فى بحر القرابين.

وفى الشرفة كان كامانى يغنى برقة: سأقول (لبتاح) أعطنى زوجتى الليلة..

- رينسنب... كان حورى قد ردد اسمها مرتين قبل أن تسمعه وتتحول عن تأملها للنيل.

- كنت غارقة فى أفكارك يا رنسنب. فيم كنت تفكرين؟

قالت رينسنب بتحد مفاجئ، كنت أفكر فى خاى ونظر إليها حورى لدقيقة أو دقيقتين ثم ابتسم قائلا: هكذا. وشعرت رينسنب بارتباك. أنه فعلا يدرك ما هنالك. وقالت باندفاع مفاجئ: ماذا يحدث عندما نموت. هل يعرف أحد حقيقة؟ كل هذه الكتب- كل هذه الأشياء التى تكتب على الأكفان- إن بعضها غامض لدرجة أنه لا يعنى شيئا بالمرة. نحن نعرف أن أوزوريس قد قتل وأن جسده قد أعيد مرة أخرى وأنه يلبس التاج الابيض ولذلك سيبعث من جديد -ولكن يا حورى فى بعض الأحيان لا يبدو أى شئ من هذا حقيقيا- وكل شئ مريك لدرجة. وأومأ حورى برقة.

- ولكن الذى أود أن أعرفه حقيقة -هو ما يحدث بعد الموت.

- ليس بوسعى أن أقول لك يا رينسنب. فمن الاوفق أن تطرحى هذه الأسئلة على قس.

- أنه سيجيبنى بالإجابات المألوفة وأنا أيرد أن أعرف.

قال حورى برقة: لن يعرف أحد منا إلا بعد أن نموت.

وارتعدت رينسنب: لا لا تقل هذا.

- ان شيئا قد أزعجك يا رينسنب؟

- أنها أسا وتوقفت ثم قالت: قل لى يا حورى هل -هل كان كامانى ونوفريت يعرفان بعضهما جيدا قبل- قبل أن يأتيا الى هنا؟

وقف حورى ساكنا تماما لفترة وجيزة ثم قال وهو يمشى بجانب رينسنب عائدين إلى المنزل: أنى أرى أن هذا هو الواقع.

– ماذا تعنى –هذا هو الواقع؟ انى أنما سألتك سؤالا؟

– وأنا لا أعرف له جوابا. أن نوفريت وكامانى كانا يعرفان بعضهما فى الشمال –أما إلى أى درجة فهذا ما لا أعرفه.

وأضاف برقة: هل يهم هذا؟

– لا بالطبع لا. لا أهمية لهذا إطلاقا.

– أن نوفريت ميتة.

– ميتة ومحنطة وموصد عليها فى قبرها. وهذا هو كل ما هناك.

وتابع حورى بهدوء وكامانى –لا يبدو انه حزين.

– لا هذا حقيقى واستدارت نحوه تلقائيا. آه يا حورى كم –كم أنت شخص مريح.

وابتسم: كنت أصلح لرينسنب الصغيرة أسدها والآن لها لعب أخرى.

وتحاشت رينسنب المنزل حينما اقتربا منه.

– لا أريد أن أدخل بعد. انى أشعر أنى أكرههم جميعا. آه أفهمنى ليس هذا حقا ولكنى غاضبة– وليس لدى صبر والجميع غريبون جدا. ألا تستطيع أن نصعد للمقبرة؟ هناك مكان لطيف. هناك فوق –إن المرء– آه أنه فوق كل شئ. هناك.

– أصبت يا رينسنب هذا ما أشعر به أن المنزل والزراعة والاراضى– كل هذا أدنى منا وليس له قيمة. إن المرء ينظر إلى ما وراء هذا –إلى

النهر- والى ما وراءه- إلى مصر كلها. لأنه عن قريب ستصبح مصر متحدة مرة أخرى- قوية وعظيمة مثلما كانت فى الماضى.

غمغمت رينسنب فى إبهام: آه- هل يهم هذا؟

وابتسم حورى: ليس لرينسنب الصغيرة إن كل ما يهمها هو أسدها.

- انك تضحك على يا حورى إذن فانه يهمك أنت.

وتمتم حورى: ولماذا يهمنى؟ نعم لماذا؟ أنى مجرد رجل أعمال لكاهن قبور. فلماذا أهتم إذا غدت مصر عظيمة أم لا؟

ولفتت رينسنب انتباهه للربوة فوقهم: أنظر أن ياموس وساتيبى كانا فى المقبرة وهما ينزلان الآن.

- نعم كانت هناك بعض الأشياء التى كان يجب التصرف فيها: بعض الأقمشة اللينون التى لم يستعملها المحنطون. وقال ياموس أنه سيدعو ساتيبى لتصعد معه إلى المقبرة وتشير عليه بما يجب عمله بها. ووقفا ينظران إلى ياموس وساتيبى وهما ينزلان عبر الطريق فوقهما.

وأيقنت رينسنب فجأة انهما يقتربان من المكان الذى سقطت منه نوفريت بلا ريب. كانت ساتيبى تمشى فى الأمام وياموس خلفها قليلا.

وفجأة ادارت ساتيبى رأسها لتكلم ياموس. ومر بخاطر رينسنب انها تقول له أن هذا هو المكان الذى وقع فيه الحادث بدون ريب.

ثم فجأة تسمرت ساتيبى فى مكانها ووقفت كما لو أنها تجمدت وهى تحدق خلفها ورفعت ذراعيها كما لو أنها رأت منظرا مخيفا أو كمن يحمى نفسه من ضربة. وهتفت بشئ وتعثرت وترنحت ثم بينما ياموس يقفز نحوها صرخت، صرخة مليئة بالرعب ووثبت إلى الأمام

وسقطت من فوق الحافة على الصخور فى أسفل الجبل.

وشاهدت رينسنب ويدها على عنقها الواقعة وهى غير مصدقة لما تراه.

وكان جسم ساتيبى الممزق ملقى فى نفس المكان الذى وقعت فيه نوفريت. وجمعت رينسنب شتات نفسها وجرت نحوها، وكان ياموس ينادى ويجرى نازلا من فوق الجبل.

ووصلت رينسنب إلى جسد زوجة أخيها وانحنت عليها. كانت عينا ساتيبى مفتوحتين ورموشها تخفق وكانت تحرك شفتيها محاولة الكلام، وانحنت عليها رينسنب أكثر وكانت مرتاعة من الفزع المتجمد فى أعين ساتيبى.

ثم سمع صوت المرأة التى على شفا الموت. كان مجرد بحة - (نوفريت) وسقطت رأسها إلى الوراء وفتح فكها.

كان حورى قد استدار لمقابلة ياموس وجاء الرجلان معا.

تحولت رينسنب نحو أخيها وقالت: بماذا هتفت وهى أعلى الجبل قبل أن تسقط؟ كان ياموس يتنفس بسرعة وكان لا يكاد يستطيع الكلام.

- لقد نظرت خلفى -من خلف كتفى كما لو أنها رأت شخصا قادما على الطريق- ولكن لم يكن هناك أحد. لم يكن هناك أحد.

ووافق حورى قائلا: لم يكن هناك أحد.

وانخفض صوت ياموس حتى صار همسا فزعا: ثم هتفت.

وسألت رينسنب بعصبية: ماذا قالت؟

- إنها قالت -أنها قالت- وارتعد صوته (نوفريت).

الشهر الأول من الصيف، اليوم الثانى عشر

- إذن هذا هو ما كنت تعنيه؟

كانت الطريقة التى تكلم بها رينسنب حورى تأكيدا اكثر منها سؤالا.

وأضافت برقة وبصوت خفيض وقد ازداد فزعها وفهمها:

- إن ساتيبى هى التى قتلت نوفريت. كانت رينسنب جالسة وهى واضعة يديها تحت ذقنها فى غرفة حورى الحجرية الصغيرة الملاصقة للمقبرة وكانت تحدق فى الوادى تحتها.

فكرت وهى حالمة كيف أن الكلمات التى نطقت بها البارحة كانت صادقة. هل مر حقا وقتا قصير لهذا الحد؟ كان يبدو أن المنزل والأشخاص الذين يهرعون هنا وهناك فى الوادى لا قيمة لهم أو معنى مثل خلية نمل.

إن الشمس بقوتها الملكية الذى يتمثل فى هذا الشعاع الفضى اللامع الرفيع فى ضوء هذا النهار -هما فقط الشيئان الخالدان الباقيان.لقد مات فاى ونوفريت، وساتيبى- وفى يوم ما ستموت هى وحورى، ولكن رع سيظل يحكم فى السماء وسيسير بمركبة فى الليل فى العالم الأسفل حتى مطلع الفجر، وسيظل النهار ساريا ويجرى من منبعه إلى مصبه مارا بطيبة وبالقرية وبصعيد مصر حيث عاشت رينسنب وكانت سعيدة ومرحة، ثم يمضى إلى البحر تاركا مصر. ساتيبى ونوفريت.

وتابعت رينسنب أفكارها بصوت عال - بما ان حورى لم يكن قد أجاب على سؤالها الأخير.

(أترى أنى لست واثقة أن سوبك) وتوقفت عن الحديث.

قال حورى مفكرا: الفكرة التى كونتها سابقا.

ومضت رينسنب قائلة: ومع ذلك كان هذا غباء منى. لقد قالت لى اهنيت أو على الأقل كان هذا مجمل حديثها، إن ساتيبى قد ذهبت تتمشى فى هذا الاتجاه، وقالت أن نوفريت قد صعدت إلى هنا، فكان يجب على أن أتبين كيف انه من الواضح أن ساتيبى تتبعت نوفريت، انهما تقابلتا فى الطريق، وبعد ذلك دفعتها ساتيبى من فوق... إن ساتيبى كانت قد قالت قبل ذلك بفترة وجيزة أنها اكثر رجولة من كل اخوتى.

وتوقفت رينسنب عن الكلام وارتعشت ثم تابعت حديثها:

- كان يجب أن أدرك الحقيقة عندما قابلتها. كانت على غير عادتها، كانت مذعورة. لقد حاولت أن تقنعنى أن أعود معها، ولم تكن تريد أن أرى جثمان (نوفريت) إنى كنت عمياء بلا ريب لأنى لم أدرك الحقيقة، لكنى كنت متألمة من الخوف بخصوص سوبك.

- اعرف. كان هذا بسبب رؤيتك إياه وهو يقتل الثعبان.

ووافقته رينسنب بحماس: نعم هذا هو السبب وبعد ذلك حلمت.. مسكين سوبك.. كم أسأت به الظن.. فكما تقول التهديد ليس الفعل. إن سوبك كان دائما يتباهى بالكلام، وكانت ساتيبى هى دائما الجريئة بدون رحمة ولا تخاف من الأفعال، ثم بعد ذلك، الطريقة التى بدت بها مثل الشبح، لقد حيرنا هذا جميعا. لماذا لم نفكر فى التعليل الصحيح؟ ثم أضافت وهى تنظر إليه بسرعة:

- ولكن أنت فكرت فى هذا.

قال حورى: منذ وقت كنت موقنا أن مفتاح الحقيقة عن موت نوفريت هو التغير الغريب الذى طرأ على شخصية ساتيبى. فكان هذا التغير عجيبا لدرجة انه كان لابد أن يكون هناك سبب له.

- ومع ذلك لم تقل شيئا؟

- كيف كان يمكن أن أقول شيئا يا رينسنب ماذا كان بوسعى أن افعله؟ لا بالطبع لا.. إن الدلائل يجب أن تكون قوية.

وناقشته رينسنب قائلة: ومع ذلك فانك قلت مرة أن الناس لا يتغيرون حقيقة. ولكنك الآن تعترف أن ساتيبى تغيرت.

وابتسم لها حورى: كان يجب أن تتجادلى فى المحاكم. كلا يا رينسنب أن ما قلته حقيقى فالناس دائما كما هم لا يتغيرون. إن ساتيبى مثل سوبك كانت جريئة بالكلام فقط. وهى فعلا ربما كانت تستطيع أن تتبع القول بالفعل، ولكنى اعتقد أنها ليست من من بوسعهم أن يعرفوا شيئا أو ما هو عليه إلا بعد أن يقع فى حياتها، ولم تكن قد خافت من شئ حتى هذا اليوم المعين.

وعندما واجهت الخوف أخذت على غرة، وتعلمت عندئذ أن الشجاعة هى التصميم على مواجهة المجهول، ولم تكن تملك هذه الشجاعة.

وتمتمت رينسنب فى صوت منخفض: عندما واجهت الخوف.. نعم ان الخوف كان ملازما لنا جميعا منذ أن ماتت نوفريت ورأيناه جميعا على وجه ساتيبى وكان هناك يطل من عينها وهى تموت.. وعندما قالت نوفريت.. كان كما لو أنها رأت.

وواقفقت رينسنب نفسها عن الكلام وأدارت وجهها نحو حورى وفى عينيها تساؤل:

– ماذا رأت؟ هناك على الدرب. لم نر شيئا. لم يكن هناك شئ.

– لا لم يكن هناك شيئا نراه نحن.

– ولكن كان هناك شيئا رأته هى؟ لقد رأت نوفريت.

– نوفريت التى جاءت لتقيم ولكن نوفريت ماتت وأوصد قبرها إذن ما الذى رأته ساتيبى؟

– الصورة التى رسمها لها عقلها.

– أواثق أنت؟ لأنه إن لم يكن هكذا.

– نعم يا رينسنب إن لم يكن هكذا؟

– حورى. ومدت رينسنب يدها إلى الأمام هل انتهى هذا الموضوع الآن؟

– الآن.. وقد ماتت ساتيبى؟ هل انتهى حقا؟

وامسك يدها بين يديه مطمئنا إياها.

– نعم. نعم بالتأكيد يا رينسنب وأنت على الأقل لا داعى لان تخافى.

وتمتمت رينسنب:

– لكن ان ربما تقول أن نوفريت كانت تكرهنى.

– نوفريت كانت تكرهك أنت؟

هكذا تقول أسا.

قال حورى:

- كانت نوفريت ميالة إلى الكره. واعتقد أحيانا أنها كانت تكره جميع أفراد هذا المنزل ولكن أنت على الأقل لم تفعلى شيئا ضدها.

- كلا. كلا هذا حقيقى.

ولذلك يا رينسنب ليس هناك ما تلومين نفسك عليه.

- أتعنى يا حورى أنى إذا مشيت فى هذا الطريق (الدرب)، فى ساعة الغروب، فى نفس الوقت الذى ماتت فيه نوفريت، وإذا أدرت رأسى، لن أرى شيئا. وساكون فى أمان؟

- ستكونين فى أمان يا رينسنب لأنك إذا مشيت فى هذا الطريق سأمشى بجانبك ولن يصيبك أذى.

وعبست رينسنب وهزت رأسها.

- لا يا حورى سأمشى وحدى.

- لماذا يا رينسنب الصغيرة؟ ألن تخافى؟

- نعم إنى اعتقد أنى سأخاف ولكن مع ذلك فهذا ما يجب أن افعله. انهم فى البيت جميعا يرتعشون ويرتعدون ويهرعون إلى المعابد ليشتروا احجبة ويتصايحون بان المشى فى هذا الدرب ساعة الغروب لا خير فيه ولكن الذى جعل ساتيبى تتعثر وتتخبط هو الخوف ليس السحر، الخوف المتسبب من العمل الشرير الذى قامت به. لان سلب حياة إنسانة شابة قوية تستمتع بالحياة هو عمل شرير. لكن أنا لم افعل شرا ولذلك فحتى لو كانت نوفريت تكرهنى فان كرهها لا يمكن يؤذينى. هذه هى عقيدتى وعلى أى حال فلو كان المرء سيعيش دائما

فى الخوف فمن الأفضل له أن يموت. لذلك سأتغلب على الخوف.

– هذه كلمات شجاعة يا رينسنب.

– ربما إنها أشجع مما اشعر به يا حورى.

وابتسمت له وهبت واقفة: لكن كان من المريح أن أقولها.

ونهض حورى ووقف بجانبها: سأتذكر دائما كلماتك هذه يا رينسنب. اجل والطريقة الأدبية التى تكلمت بها. إنها تظهر الشجاعة والحقيقة التى شعرت دائما انهما فى قلبك.

وامسك بيدها ومضى قائلا:

– انظرى يا رينسنب انظرى من هنا عبر الوادى إلى النهر والى ما وراءه هذه هى مصر بلدنا. ممزقة بالحرب والنزاع لسنين عديدة منقسمة إلى ممالك صغيرة ولكن الآن، قريبا جدا ستتحد مرة أخرى، مصر الشمالية والجنوبية، متحدتان فى مملكة واحدة، إنى آمل واعتقد أنها ستسترد عظمتها السابقة وفى ذلك الحين ستحتاج مصر لرجال ونساء شجعان ومخلصين، نساء مثلك يا رينسنب. إن مصر لا تحتاج لرجل مثل امحتوب المشغول دائما بمكاسبه وخسائره الخاصة، ولا إلى رجال مثل سنوبك يشتغلون ودائما يتباهون ولا إلى فتيان مثل ايبى الذى يفكر فقط فيما يستطيع أن يكسبه لنفسه ولا حتى إلى أبناء نبلاء ذوى ضمائر مثل ياموس. لقد تبينت، وأنا جالس هنا بين الأموات احسب المكاسب والخسائر وهكذا اهتديت إلى مكاسب لا يمكن أن تحسب بمقاييس الثروة وخسائر اكثر ضررا من فقد المحصول... إنى انظر إلى النهر وارى فيه مصدر لحياة مصر وجد قبل أن نوجد وسيظل بعد أن نموت.. إن الحياة والموت يا رينسنب ليسا بمثل هذه الأهمية. أنى

حورى مجرد رجل أعمال امحتوب لكننى عندما انظر إلى مصر اشعر بسلام، نعم وبإعزاز لن أبادلهما لأصبح حاكما للمنطقة هل تفهمين ما أعنى يا رينسنب؟

- اعتقد ذلك يا حورى، فعلى الأقل أنت مختلف عن الآخرين، ولقد عرفت هذا لفترة، وأحيانا عندما أكون هنا معك اشعر بما تشعر به ولكن ليس بوضوح. ولكنى اعرف ما تعنيه... وأشارت بيدها: عندما أكون هنا لا تبدو الأمور التى فى الوادى مهمة، المشاجرات والأحقاد التى لا تهدا، وهنا يهرب المرء من هذا كله.

وتوقفت وقد قطبت جبينها ومضت وهى تتلعثم قليلا:

- أحيانا أكون سعيدة لأنى هربت ومع ذلك فإنى لا اعرف، هناك شئ فى الوادى.. ينادينى.

ترك حورى يدها وتراجع خطوة ثم قال برفق: نعم إنى أرى، كامانى وهو يغنى فى الفناء، ماذا تعنى يا حورى؟ لم اكن أفكر فى كامانى.

- هذا جائز يا رينسنب ولكنى اعتقد انه يغنى حتى بدون ما تعرفى ما تسمعينه.

وحدقت رينسنب وهى مقطبة الجبين.

- انك تقول أشياء غريبة يا حورى. لا يمكن للمرء أن يسمعه من هنا. إن هذا بعيد جد.

وتنهد حورى برفق وهز رأسه، وحيرتها النظرة التى فى عينيه وشعرت ببعض الضيق والحيرة لأنها لا تفهم.

الشهر الأول من الصيف، اليوم الثالث والعشرون

- هل يمكننى التحدث معك دقيقة يا أسا؟

نظرت أسا بحدة نحو هينيت التى كانت تقف على عتبة باب الغرفة وعلى وجهها ابتسامة استعطاف.

وسالت المرأة العجوز:

- ما الأمر؟

- لا شئ حقيقة، على الأقل لا أظن ذلك لكننى فكرت أنى أود أن أسال.

وقاطعتها أسا بحدة:

- ادخلى إذن. ادخلى وأنت. ومست بعصاها على كتف الجارية الصغيرة السوداء التى كانت تطرز الخرز اذهبى إلى المطبخ واحضرى لى بعض الزيتون واعدى لى شرابا من عصير الرمان.

وهرعت الفتاة الصغيرة خارجا وأشار أسا إلى هينيت بعصبية:

- هذا هو كل ما فى الأمر يا أسا.

وحدقت أسا فى الشئ الذى كانت هينيت ترفعه إياها..كانت علبة جواهر صغيرة بغطاء ينزلق وبزرارين مثبتين.

- ما هذا؟

- إنها علبتها ولقد وجدتها الآن، فى حجرتها.

- عمن تتحدثين؟ عن ساتيبى؟

- كلا، كلا يا أسا، الأخرى.

- هل تعنين نوفريت؟ ماذا عنها؟

- إن كل جواهرها وأدوات زينتها وروائحها، كل شئ، دفن معها.

وفتحت أسا العلبة، وكان فيها خيط من الخرز الأحمر الصغير ونصف تميمة خضراء.

قالت أسا:

- هه ليس هذا بالكثير، لقد تغاضوا عنها.

- إن المحنطين اخذوا كل شئ معهم.

- إن المحنطين كغيرهم من الرجال لا يمكن الاعتماد عليهم. لقد نسوا هذا.

- إنى أقول لك يا أسا، لم تكن هذه الأشياء فى الغرفة عندما نظرت فيها آخر مرة.

نظرت أسا بحدة إلى هينيت، ماذا تحاولين أن تثبتى؟ إن نوفريت قد عادت من العالم الأسفل وموجودة هنا فى المنزل؟ أنت لست غبية يا هينيت ولو انك فى بعض الأحيان تحبين أن تتظاهرى بذلك. ما السرور الذى تشعرين به من نشر حكايات السحر السخيفة هذه؟

- كانت هينيت تهز رأسها بتشاؤم.

- نحن نعرف جميعا ماذا حدث لساتيبى والسبب فى ذلك.

– قد نعرف وربما كان بعضنا يعرف قبل ذلك. هه يا هينيت؟ لقد كانت دائما تراودنى فكرة انك تعرفين اكثر منا جميعا حقيقة موت نوفريت.

– آه اسا انك بالتأكيد لا تفكرين للحظة.

وقاطعتها أسا:

– ما الذى لا أفكر فيه؟ إنى لست خائفة من التفكير يا هينيت. لقد رأيت ساتيبى وهى تتسلل من المنزل فى الشهرين الماضيين وهى خائفة جدا، ولقد خطر لى منذ البارحة انه يمكن أن يكون ثمة من كان يعرف ما فعلته بنوفريت وانه ربما كان يهددها بإفشاء السر إلى ياموس أو امحتوب نفسه.

وانفجرت أسا بسلسلة من الاعتراضات والتعجب بصوت حاد رفيع. وأغمضت أسا عينها ومالت إلى الخلف فى مقعدها ثم قالت:

– لا أظن ولو للحظة انك ستعترفين أبدا بأنك فعلت شيئا من هذا القبيل وأنا لا انتظر أن تفعلى هذا.

– لماذا افعل شيئا مثل هذا؟ هذا هو ما أسألك إياه.

– ليس لدى أية فكرة عن السبب. فانك تعرفين أشياء كثيرة يا هينيت لم أجد لها أبدا سببا مرضيا.

– أظن انك تعتقدين أننى كنت أحاول أن اجعلها ترشونى لأسكت. إنى اقسم بآلهة الاينيد التسعة.

– لا تقلقلى ومن الجائز انك لم تكونى تعرفين شيئا عن موت نوفريت، لكنك تعرفين اغلب ما يجرى فى هذا المنزل، وإذا كنت

سأقسم لأقسمت انك أنت التى وضعت هذه العلبة فى حجرة نوفريت.

ولو أنى لا أستطيع أن أتصور السبب فى ذلك، ولكن هناك سبب وراء هذا، وبوسعك أن تخدعى امحتوب بألاعيبك، ولكن لا يمكنك أن تخدعينى. إنى امرأة عجوز ولا احتمل الأشخاص الذين يئنون. اذهبى واندبى لامحتوب فانه يبدو عليه انه يحب ذلك ولو أن رع فقط هو الذى يعرف السبب فى ذلك.

- سآخذ العلبة إلى امحتوب وأقول له.

- سأعطيه أنا بنفسى العلبة. هيا اذهبى يا هينيت ولا تشرى هذه الروايات الخرافية السخيفة.

أن المنزل اهدأ بدون ساتيبى.

إن موت نوفريت قد أفادنا اكثر من حياتها. ولكن الآن وقد دفع الدين فليرجع الجميع إلى أعمالهم اليومية.

تساءل امحتوب بصخب وهو يدخل غرفة أسا بعد بضع دقائق:

- ما الأمر؟ إن هينيت فى غاية الغم. لقد جاءت إلى والدموع تجرى على وجنتيها. لماذا لا يظهر أى شخص فى هذا المنزل لهذه المرأة المتفانية ابسط أنواع المعاملة الطيبة.

وأطلقت أسا التى لم تهتز من هذا الكلام ضحكة. ومضى امحتوب يقول:

- لقد اتهمتها كما فهمت بسرقة، علبة جواهر.

- هل هذا ما قلته لك؟. لم افعل شيئا من هذا القبيل. ها هى العلبة ويبدو أنها وجدت فى غرفة نوفريت.

وأخذها امحتوب منها.

– آه نعم. إنها العلبة التى أعطيتها لها. وفتحها. لا يوجد شئ يذكر بداخلها انه الإهمال. إهمال شديد من المحنطين انهم لم يضعوا هذه الأشياء ضمن حاجتها الأخرى. ونظرا للأتعاب التى يتقاضاها ايبى ومتتوا فان المرء ينتظر على الأقل ألا يوجد إهمال. حسنا إن كل هذا يبدو لى زوبعة فى فنجان بدون سبب.

– بالضبط.

– سأعطى العلبة لكيت، كلا، لرينسنب فقد كانت دائما تتصرف بذوق مع نوفريت.

وتنهد:

– كم يبدو من المستحيل أن يتمتع الرجل بالسلام. هؤلاء النساء، دموع بلا نهاية أو مشاجرات ومشاحنات.

– آه حسنا يا امحتوب لقد نقص عددهن واحدة على الأقل الآن.

– نعم هذا صحيح. يا ليااموس المسكين ومع كل اسا. إنى اشعر، هنا، إن هذا قد يكون من الأفضل...

– إن ساتيبى قد أنجبت حقيقة أطفال أصحاء، ولكنها كانت من نواحى عديدة زوجة غير مرضية وياموس بالطبع كان يخضع لها اكثر من اللازم. حسنا. حسنا إن كل هذا قد انتهى الآن.

– ويجب أن أقول أنى مسرور من سلوك ياموس فى الفترة الأخيرة. انه يبدو اكثر اعتمادا على نفسه واكثر حياءا، وحكمة وفى عدة أمور كان ممتازا، ممتازا تماما..

- لقد كان دائما ولدا مطيعا طيبا.

- نعم. نعم، ولكنه بطيئا نوعا ويخاف من المسئولية إلى بعض الحدود.

قالت اسا بجفاء:

- إن المسئولية شئ لم تسمح له به أبدا.

- حسنا إن كل هذا سيتغير الآن. إنى اعد وثيقة مشاركة وستوقع بعد بضعة أيام. أنى سأشارك أبنائى الثلاثه معى.

- بالتأكيد لن تشارك ايبى؟

- سيجرح شعوره إذا لم أشاركه. انه ولد عزيز دافئ القلب.

- بالتأكيد لا يعيبه أى بطء.

- على حد قولك. وسوبك أيضا، لقد كنت مستاء منه فى الماضى، ولكنه بدأ أخيرا صفحة جديدة حقيقية. انه لم يعد يمضى وقته فى اللهو ويستمع إلى رأيى ورأى ياموس اكثر.

قالت اسا:

- هذه حقا أنشودة من المديح. حسنا يا امحتوب يجب أن أقول أنى اعتقد انك تفعل صوابا. عدم إرضاء أبنائك كانت سياسة خاطئة. لكنى لازلت اعتقد أن ايبى صغير على ما تعتزمه له. أن من السخف إعطاء ولد فى هذه السن مركزا قويا. ماذا ستكون سلطتك عليه؟

وبدا على امحتوب التفكير:

- لك بعض الحق فى هذا بلا ريب.

ثم نهض مهتما وقال:

– يجب أن اذهب.. هناك ألف أمـــر يجب العناية به، هناك كل الترتيبات التى يجب اتخاذها لدفن ساتيبى. أن الموت يكلف، يكلف جدا وقد تتابعت الوفيات الواحدة بعد الأخرى بهذه السرعة.

– آه حسنا لنأمل أنها ستكون الوفاة الأخيرة، حتى يأتى دورى.

– إنى آمل انك ستعيشين سنين أخرى عديدة يا والدتى العزيزة.

قالت أسا بابتسامة:

– إنى واثقة من هذا. أرجوك ألا توفر فى جنازتى. لن يبدو هذا جميلا.

إنى سأحتاج لكمية كبيرة من الأدوات لتسلينى فى العالم الآخر. الكثير من الطعام والشراب ونماذج كثيرة من العبيد، منضدة مزينة ببذخ اللعب، عطور وأدوات تجميل وأنى أصر على أغلى أنواع الزينة المصنوعة من الالبستر.

– نعم، نعم بالطبع، وغير امحتوب وضع أقدامه بعصبية. بالطبع سيقدم لك كل الاحترام عندما يحين هذا اليوم المحزن. لكنى يجب أن اعترف أنى اشعر شعورا مختلفا حيال ساتيبى.

إن المرء لا يرد فضيحة ولكن فى الحقيقة، نظرا لهذه الظروف، ولم يكمل امحتوب كلامه ولكنه هرع خارجا.

وابتسمت اسا بتهكم عندما أدركت أن هذه الجملة نظرا لهذه الظروف هى أقصى ما سيقوله امحتوب اعترافا بان كلمة حادثة لا تنطبق تماما على الطريقه التى لاقت بها محظيته الغالية موتها.

الشهر الأول من الصيف، اليوم الخامس والعشرون

ساد شعور عام بالسرور والبهجة عند رجوع أفراد العائلة من بلاط الحاكم بعد أن سجل عقد المشاركة، وكان الاستثناء الوحيد هو بلا ريب، ايبى الذى لم يشرك فى آخر وقت على أساس صغر سنه، ولذلك كان عابسا وتغيب عن المنزل.

ونادى امحتوب وهو فى غاية الانشراح مطالبا بجرة نبيذ فجئ بها إلى الشرفة.

وقال وهو يربت على كتف ياموس:

– ستشرب يا بنى. أنسى لفترة حزنك ودعنا نفكر فقط فى الأيام الطيبة القادمة.

– وشرب امحتوب وياموس وسويك وحورى هذا النخب، ثم جاء نبها سرقة ثور وهرع الرجال الأربعة ليتأكدوا من صحة الخبر.

وعندما رجع ياموس بعد ساعة إلى الفناء كان متعبا ويشعر بالحر، وقصد خابية النبيذ التى ما تزال فى الشرفة وشرب النبيذ على مهل، وبعد قليل جاء سويك يخطو بسرعة وهتف بسرور:

– هيا لنشرب الآن مزيدا من النبيذ. لنشرب نخب مستقبلنا الذى أمن أخيرا. أن هذا بلا ريب يوم سعيد علينا يا ياموس.

– نعم بالتأكيد أن هذا سيجعل الحياة اسهل من جميع النواحى.

– انك دائما متحفظ فى شعورك يا ياموس. وضحك سوبك وهو يتكلم وملأ كأسا بالنبيذ وشربه فى جرعة واحدة ثم لعق شفتيه وهو يضع كأسه.

– سنرى الآن إذا كان أبونا سيظل محافظا كما كان أم هل سيكون فى وسعى أن اهديه للطرق الحديثة.

ونصحه ياموس قائلا:

– لو كنت مكانك أتأنى. انك كنت دائما متسرعا.

وابتسم سوبك لأخيه بود وكان فى غاية الانشراح ثم قال مداعبا:

– بطئ لكن أكيد.

وابتسم ياموس بدون أن يهتز لذلك وقال:

– هذه افضل طريقة فى النهاية. والى جانب ذلك فأبى كان كريما جدا معنا ولا يجب أن نفعل شيئا يقلقه.

ونظر أليه سوبك بفضول:

– انك تحب أبانا حقيقة؟ انك إنسان ودود يا ياموس. أنى لا يهمنى أحد (بتاتا) إلا سوبك، ليعيش طويلا، واخذ جرعة أخرى من النبيذ.

قال ياموس محذرا:

– كن حذرا.. انك لم تأكل كثيرا اليوم وفى بعض الأحيان عندما يشرب المرء نبيذا. وتوقف فجأة وقد التوت شفتاه.

– ماذا بك يا ياموس؟

– لاشئ، ألم مفاجئ، أنا، لاشئ.. ولكنه رفع يده ليمسح بها جبينه

الذى ملأه العرق فجأة.

- أنت لا تبدو على ما يرام.

- لقد كنت بخير الآن.

- طالما أن أحدا لم يسمم النبيذ. وضحك سوبك لكلماته ومد ذراعه نحو الإبريق ثم تخشب ذراعه وهو ممدود وانحنى جسده إلى الأمام فى تشنج مفاجئ من الألم.

- ياموس. ياموس. أنا أيضا.

كان ياموس ينزلق للأمام وقد انثنى وصدرت منه صرخة مكتومة.

وكان سوبك يتلوى من الألم ورفع صوته:

- النجدة، ابعثوا فى طلب طبيب، طبيب..

وجاءت هينيت تجرى من داخل المنزل.

هل ناديت؟ ماذا قلت؟ ما الأمر..؟

واتى آخرون على صياحها.

كان الإخوان يئنان من الألم وقال ياموس بصوت منخفض:

- النبيذ، سم، ابعثوا فى طلب طبيب..

وصدرت صرخة رقيقة من هينيت:

- مصيبة أخرى. إن هذا المنزل ملعون فى الحقيقة. بسرعة.. أسرعوا ابعثوا للمعبد فى طلب الأب المبجل مرسو الطبيب البارع ذى الخبرة العظيمة.

مشى امحتوب ذهابا وإيابا فى البهو الرئيسى للمنزل وكان ثوبه اللينون الفاخر قذرا ومقرمشا ولم يكن قد استحم أو غير ثوبه متجهما من القلق والخوف.

ومن مؤخرة المنزل كان يسمع صوت بكاء منخفض ومستمر، مساهمة من النساء فى الكارثة التى حلت بالبيت، وكان صوت هينيت يقود الأصوات الأخرى.

ومن غرفة جانبية كان يسمع صوت الطبيب الكاهن مرسو وهو يرتفع بينما يناضل حول جسد ياموس الراقد بدون حركة. وجذب صوته رينسنب التى تسللت بهدوء من جناح السيدات إلى البهو الرئيسى. وقادتها قدماها إلى الباب المفتوح، وتوقفت هناك وهى تشعر ببلسم شاف فى الكلمات الرنانة التى كان الكاهن يتلوها.

- اى ايزيس يا ذات السحر العظيم حررينى من كل الشرور والسيئات والأمور الحمراء، حررينى من لطمة اله ومن لعنة آلهة، من الأموات، من عدو ذكر آو عدو انثى ممن هم ضدى.. وبدرت تنهيدة خافتة من شفتى ياموس.

وفى دخيلة قلبها شاركت رينسنب فى الصلاة.

ايزيس، ايزيس العظيمة، أنقذيه، انقذى اخى ياموس، يا ذات السحر العظيم..

ومرت بخلدها أفكار متضاربة انبعثت من كلمات التراتيل.

من كل الشرور والسيئات والأمور الحمراء.. هذا هو ما أصابنا كلنا فى هذا المنزل، نعم الأفكار الحمراء: الأفكار الغاضبة، غضب امرأة ميتة.

وخاطبت الشخص الذى كان فى ذهنها.

- لم يكن يامـوس هو الذى أذاك يا نوفـريت، ولو أن ساتيبى كانت زوجته فلا يمكنك أن تحمليه مسئولية أفعالها، انه لم يكن أبدا له أي سلطان عليها، ولم يكن لاحد سلطان عليها ساتيبى التى آذتك ماتت. أليس هذا كافيا؟ سوبك مات، سوبك الذى تكلم ضدك فقط ومع ذلك لم يفعل اى شئ يؤذيك قط.

آه يا ايزيس لا تدعى يامـوس يموت، أنقـذيه من حـقـد نوفـريت المنتقم.

ورفع امـحـتـوب بصـره وهو يروح ويجئ بلا وعى ورأى ابنتـه واسترخى وجهه بود.

- تعالى هنا يا طفلتى العزيزة رينسنب.

وجرت نحوه ووضع ذراعه حولها.

- آه يا أبى ما قولهم.

وقال امحتوب بحزن:

- لقد مات فى الفجر. سوبك ابنى القوى الوسيم وتعثر صوته وكف عن الكلام.

- آه إن هذا الأمر شرير وقاس، ألا يمكن عمل شئ؟

- لقد عملنا كل ما يمكن عمله. أعطى عقاقير مقيئة وأعطيت له عصير بعض الأعشاب الفعالة ووضعت له احجبة مقدسة ودعى له دعاء عظيما. ولم ينفع هذا كله. إن مرسو طبيب بارع ولو لم يتمكن من إنقاذ ابنى، فإنها إذن إرادة الآلهة.

ارتفع صوت الطبيب الكاهن فى دعاء عال أخيرا، وخرج من الغرفة وهو يمسح العرق عن جبينه.

واتجه امحتوب تجاهه، حسنا؟

وقال الطبيب بجدية:

– بفضل ايزيس سيعيش ابنك. انه ضعيف ولكن خطورة السم قد زالت. وبدا التأثير الشرير فى الاندثار.

ومضى يقول وهو يغير نبرات صوته ليصبح صوته عاديا.

– من حسن الحظ أن ياموس شرب كمية قليلة من النبيذ المسموم لقد ارتشف نبيذه بينما يبدو أن ابنك سوبك جرعه.

وتأوه امحتوب:

– هذا هو الفارق بينهما. ياموس خجول حذر فى معالجته لكل الأمور حتى الأكل والشرب. سوبك دائما مفرط وكريم، ويا للأسف، متهور.

ثم أضاف بحدة:

– النبيذ كان مسموما قطعيا؟

– ليس هناك اى شك فى هذا يا امحتوب. لقد أجرى مساعدى تجربة على المتبقى منه، ولقد ماتت سريعا كل الحيوانات التى شربت منه.

– ومع ذلك فأنا الذى شربت من نفس النبيذ قبل ذلك بأقل من ساعة ولم اشعر باى سوء.

- لم يكن النبيذ مسموما فى ذلك الوقت بلا ريب، إن السم قد أضيف بعد ذلك.

وضرب امحتوب كفا على كف وقال:

- لا يوجد حى يجرؤ على سم ولدى هنا تحت سقف بيتى. هذا شئ مستحيل. انى أقول لا يوجد حى.

وأحنى مرسو رأسه وبدا وجهه بدون تعبير:

- أنت افضل من يحكم فى هذا يا امحتوب. ووقف امحتوب وهو يحك خلف أذنه بعصبية.

وقال فجأة:

- هناك رواية أريد أن تسمعها وصفق وقال لخادمه الذى جاء يجرى، ائت بالراعى الصغير هنا.

وتحول نحو مرسو قائلا:

- انه ولد فيه شئ من البلة. انه يستوعب ما يقوله له الناس بصعوبة وليس متمالكا لكل قواه العقلية. ورغم ذلك له عينان ونظرة جيدة وفوق ذلك فهو متفان فى الإخلاص لإبنى ياموس الذى يعامله برفق ويحنو عليه.

ورجع الخادم وهو يجر بيده غلاما نحيفا اسود تقريبا يلبس قماشا ملفوفا حول خصره وعيناه فيهما حول ووجه غبى وخائف.

قال امحتوب بحدة:

- تكلم. ردد ما قلته لى.

وطأطأ الغلام رأسه وبدت أصابعه تمسك بالقماش الملفوف حول وسطه.

وصرخ امحتوب:

- تكلم.

وجاءت اسا تتكئ على عصاها وهى تحدق بعينيها الضعيفتين.

- انك ترعب الغلام. خذى يا رينسنب أعطيه هذه الحلوى. هيا يا بنى قل لنا ما رايته.

وحدق الولد فيهما. وفكرته اسا قائلة:

- كان ذلك البارحة عندما تمر أمام الباب، لقد رأيت، ماذا رأيت؟

هز الولد رأسه ونظر جانبا وغمغم:

- أين مولاى ياموس؟

وتكلم الكاهن برفق وحزم:

- إنها رغبة مولاك ياموس أن تخبرنا بالرواية. لا تخف لن يؤذيك أحد. واستتار وجه الغلام.

- إن مولاى ياموس طيب معى. سأفعل ما يريد. وتوقف عن الكلام وبدا أن امحتوب سيتكلم بغضب ولكن نظرة من الطبيب كبحته.

وفجأة بدا الولد يتكلم بعصبية وبسرعة وهو ينظر إلى جانبيه كما لو كان خائفا من أن يسمعه شخص غير ظاهر للعين.

- كنت أجرى بعصاى وراء الحمار الصغير، الذى يحميه (سيت) والذى يثير المشاكل دائما وتعدى بوابة الفناء ونظرت من البوابة نحو

المنزل ولم يكن هناك أحد فى الشرفة. ثم خرجت سيدة من سيدات المنزل إلى الشرفة، ومشت نحو الإناء ومدت يديها فوقه ثم رجعت إلى المنزل كما اعتقد.. أنى لا اعرف لأنى سمعت وقع أقدام واستدرت ورأيت مولاى ياموس قادما من بعيد من الحقول. لذلك مضيت ابحث عن الحمار الصغير ودخل مولاى ياموس الفناء.

صاح امحتوب غاضبا:

- ولم تحذره. لم تقل له شيئا.

وصاح الولد:

- لم اكن اعرف أن هناك شيئا على غير ما يرام. لم أر إلا سيدة تقف هناك وتبتسم وهى تفرد يديها فوق أناء النبيذ. لم أر شيئا.

سال الكاهن:

- من كانت السيدة يا ولد؟

وهز الولد رأسه بدون اى تعبير فى نظراته.

- لا اعرف. لابد أنها إحدى سيدات المنزل لا اعرفهن. أنى أرعى الماشية فى الناحية النائية من الضيعة. كانت تلبس ثوب لينون مصبوغ.

- ربما خادمة؟ وراقب الكاهن الولد. وهز الولد رأسه بتأكيد:

- لم تكن خادمة.. كانت على رأسها باروكة وكانت تلبس جواهر.

- جواهر؟ اى جواهر؟

وأجاب الولد بثقة كمن استرد ثقته، وتغلب على خوفه وهو متأكد جدا وقال:

- عقد به ثلاثة صفوف من اللآلئ، وبينهما اسود من الذهب معلقة بينهما، ووقعت عصا اسا على الأرض وأطلق امحتوب صرخة مكتومة.

قال مرسو مهددا :

- إذا كنت تكذب يا ولد.

- أنها الحقيقة. اقسم أنها الحقيقة. كان صوت الولد مرتفعا رفيعا وواضحا.

ونادى ياموس المريض بصوت ضعيف من الغرفة الجانبية حيث كان راقدا :

- ما كل هذا؟

ومرق الولد من الباب المفتوح وركع بجانب الأريكة التى كان ياموس راقدا عليها.

- سيدى. سيعذبوننى.

- كلا. كلا. أدار ياموس رأسه بصعوبة على المخدة الخشبية.

- لا تؤذوا الغلام، انه ساذج ولكنه أمين، عدونى.

قال امحتوب:

- بالطبع. بالطبع. لا حاجة لهذا انه من الواضح أن الولد قال كل ما يعرفه وأنا لا اعتقد انه يكذب. امض يا ولد ولكن لا ترجع إلى القطعان البعيدة. ابق على مقربة من المنزل لكى نستطيع استدعاءك مرة أخرى إذا احتجنا إليك.

ونهض الولد وألقى نظرة مترددة على ياموس.

- أنت مريض يا مولاى ياموس.

وابتسم ياموس بضعف:

- لا تخف. لن أموت. اذهب الآن، أطع ما قيل لك.

ومضى الولد وهو يبتسم بسعادة، وفحص الكاهن أعين ياموس وجس نبضه ثم أوصاه بالنوم، وخرج مع الآخرين إلى البهو الرئيسى مرة أخرى. وقال امحتوب:

- هل تعرفت على الوصف الذى أعطاه الولد؟

وأومأ امحتوب وبدا على وجنتيه البرونزيتين الداكنة مثل اصفرار المريض.

قالت رينسنب:

- إن نوفريت فقط هى التى كانت تلبس ثوبا من اللينون المصبوغ. إنها موضة حديثة جاءت بها من المدن الشمالية. ولكن هذه الأثواب دفنت معها.

وقال امحتوب:

- والثلاثة صفوف من اللآلئ مع رؤوس الأسود الذهب حليه أعطيتها لها ولا توجد حلية مثلها فى المنزل. كانت غالية وغير مألوفة. إن كل جواهرها باستثناء عقد من اللؤلؤ الأحمر الزائف دفنت معها واحكم غلق المقبرة. ولوح بيديه ما هذا الحقد والاضطهاد. محظيتى التى عاملتها معاملة طيبة وباحترام والتى دفنتها حسب الطقوس الصحيحة ولم ابخل عليها بشئ. لقد أكلت وشربت معها بمودة، والكل شاهد على ذلك لم يكن هناك شيئ تشكو منه، بل فعلت من اجلها اكثر

مما ينبغى وكنت مستعدا إن أفضلها على حساب أولادى. لماذا إذن ترجع من الموت لتضطهدنى أنا وأسرتى؟

قال مرسو بجد:

– يبدو أن المرأة الميتة لا تضمر لك شخصيا شرا.

– إن النبيذ كان غير مضر عندما شربته. من من عائلتك اضر محظيتك المتوفاة؟

قال امحتوب بجفاء: امرأة ماتت.

– هكذا. أتعنى زوجة ابنك ياموس؟

– نعم. وصمت امحتوب ثم انفجر قائلا:

– لكن ما الذى يمكن عمله أيها الأب المبجل؟

– كيف نقاوم هذا الشر؟ إن اليوم الذى أدخلت فيه هذه المرأة إلى منزلى كان يوم شؤم.

قالت كيت بصوتها العميق وهى خارجة من جناح النساء:

– انه كان يوم شؤم حقا. كانت عيناها مغرورقتين بالدموع التى سفحتها وكان على وجهها غير الجميل إمارت قوة وتصميم بارزة، وكان صوتها عميقا وأجش ويرتعش من الغضب.

– كان يوم شؤم عندما أتيت بنوفريت إلى هنا يا امحتوب لكى تقتل أذكى واجمل أبنائك. لقد جلبت الموت لساتيبى ولسوبك ونجا ياموس بأعجوبة، ترى من يكون التالى؟ هل ستبقى حتى على الأطفال، وهى التى ضربت صغيرتى انكا؟ يجب عمل شئ يا امحتوب.

وردد امحتوب كصدا وهو ينظر بتضرع للكاهن:

- يجب عمل شئ.

وأومأ هذا الأخير بهدوء: هناك طرق عديدة يا امحتوب ومتى تأكدنا من الواقع يمكننا المضى قدما. أنى أفكر فى زوجتك المتوفاة (اياشات) لقد كانت امرأة من عائلة ذات نفوذ ويمكن أن تستنجد بذوى النفوذ من الأموات الذين بوسعهم أن يتدخلوا لصالحك والذين لا تقدر عليهم نوفريت.. يجب أن نتشاور معا.

أطلقت كيت ضحكة قصيرة.

- لا تنتظروا كثيرا، إن الرجال دائما سواء، نعم حتى الكهنة. يجب عمل شئ وفقا للقانون والسوابق. لكنى أقول اعملوا بسرعة، أو سيكون أموات آخرون تحت هذا السقف.

واستدارت وخرجت.

وتمتم امحتوب:

- امرأة ممتازة. أم متفانية لأولادها. زوجة مطيعة، لكن سلوكها أحيانا لا يكن كما يجب أن يكون تجاه سيد المنزل. وبالطبع فأنى أسامحها فى مثل هذا الوقت. إننا جميعا مذهولون ولا نكاد نعرف ماذا نعمل. وأمسك رأسه بين يديه.

وقالت اسا: أنا بعضنا قليلا يعرفون ماذا يعملون.

ألقى عليها امحتوب نظرة غاضبة. واستعد الطبيب للانصراف وخرج امحتوب معه إلى الشرفة وتلقى منه التعليمات للعناية بالمريض.

ونظرت رينسنب التى بقيت إلى جدتها بتساؤل.

كانت اسا جالسة وهى ساكنة وكانت عابسة وكان التغير الذى على وجهها غريبا لدرجة أن رينسنب سالت بخجل:

– ما الذى تفكرين فيه يا جدتى؟

– التفكير هو الكلمة المناسبة يا رينسنب فان الأمور التى تجرى فى هذا المنزل غريبة لدرجة انه يجب على المرء التفكير.

– إنها أمور مريعة وتخيفنى. وارتعشت رينسنب.

– إنها تخيفنى أيضا لكن ربما ليس لنفس السبب.

وبحركتها القديمة المألوفة أزاحت الباروكة من على رأسها.

قالت رينسنب: لكن ياموس لن يموت الآن. انه سيعيش.

وأومأت اسا:

– نعم لقد أنقذه طبيب ماهر فى الوقت المناسب ولكن فى مناسبة أخرى قد لا يكون سعيد الحظ مثل هذه المرة.

– أتعتقدين انه ستحدث أمور أخرى مثل هذه؟

– إنى اعتقد أن ياموس وأنت وايبى، وربما كيت أيضا من الأفضل أن تحترسوا جيدا جدا مما تأكلون وتشربون.. دعوا دائما عبدا يذوقه قبلكم.

– وأنت يا جدتى؟

وابتسمت اسا ابتسامتها المتهكمة:

– أنا يا رينسنب امرأة عجوز واحب الحياة كما يستطيع الكبار فقط أن يحيوها بتذوق كل ساعة وكل دقيقة باقية لهم، ولى دونكم جميعا افضل فرصة للحياة لأنى سأحترس اكثر منكم جميعا.

- وأبى؟ بالتأكيد أن نوفريت لن تتمنى له اى شر؟

- أباك؟ لا اعـرف.. لا اعـرف، أنا لا يمكننى حـتى الآن أن أرى بوضـوح. غدا بعد أن أكون فكرت فى كل هـذا سـأتكلم مـرة أخـرى مع راعى الغنم. هناك شئ فى روايته، وتوقفت وهى عابسة ثم وقفت وهى تتنهد واتكأت على عصاها ومضت تخرج قليلا ببطء نحو جناحها.

دخلت رينسنب إلى غرفة أخيها وكان نائما فخرجت بهدوء، وبعد تردد ذهبت إلى جناح كيت ووقفت على عتبة الباب، بدون أن تلاحظها كيت، وجعلت تراقبها وهى تغنى لطفل لينام، كان وجه كيت هادئا وساكنا مرة أخرى، وبدت كعادتها لدرجة أن للحظة خيل لرينسنب أن الأمور المفجعة التى حدثت فى الأربعة وعشرين ساعة الماضية كانت حلما. ثم استدارت ببطء ومضت نحو جناحها الخاص. وعلى منضدة بين أدوات زينتها وأوانيها كانت توجد علبة نوفريت الصغيرة للجواهر. والتقطتها رينسنب وأخذت تنظر إليها وهى فى يديها، إن نوفريت قد لمستها وحملتها، إنها كانت ملكها.

ومرة أخرى جرفت رينسنب موجة من العطف ممزوجة بشعور غريب من الفهم. إن نوفريت كانت تعسة وربما بينما كانت تمسك بهذه العلبة الصغيرة حولت هذه التعاسة إلى حقد وطغينة.. وإلى الآن لم ينفث هذا الحقد.. كان لا يزال يبحث عن الانتقام.. آه كلا بالتأكيد. كلا بالتأكيد.. كلا.. وبطريقة ميكانيكية تقريبا. أدارت رينسنب الزرارين وفتحت العلبة. كانت اللآلئ الحمراء فيها والحجاب المكسور وشئ آخر. فأخرجت رينسنب وقلبها يدق بعنف عقدا من الذهب وفيه اسود ذهبية فى واجهته.

افزع وجود العقد رينسنب كثيرا

وبحركة لا شعورية أعادته بسرعة إلى علبة الجواهر وأقفلتها مرة ثانية. كانت تشعر بفطرتها أن عليها أن تخفى اكتشافاتها، ونظرت خلفها بخوف للتأكد من عدم وجود أى شخص يراقبها.

وأمضت ليلة لم تذق فيها النوم وهى تتقلب على جنبيها بقلق وتغير وضع رأسها على المسند الخشبى الراس على سريرها.

وعندما لاح الصباح قد قررت أنها يجب أن تأتمن أحد على سرها،فلم يكن فى وسعها أن تتحمل مثل هذا الاكتشاف المحير وحدها.

وكانت قد أجفلت مرتين فى الليل وهى تتساءل لو أنها ربما ترى نوفريت واقفة مهددة بجانبها ولكنها لم يكن هناك شئ لتراه.

وأخذت رينسنب العقد الأسود الذهبية من علبة المجوهرات وأخفته فى ثنايا ثوبها اللينون، وما كادت تفرغ من هذا حتى قبلت هينيت وعيناها تلمع بشدة سرورا لان لديها أنباء جديدة.

– تصورى يا رينسنب... أليس هذا فظيعا؟ هذا الولد، الراعى.. نائم نوما عميقا بجوار القمح والجميع يهزونه ويصيحون فى أذنه، والآن يبدو أن لن يصحو أبدا مرة أخرى. انه يبدو انه شرب من عصير الخشخاش. وربما فعل ذلك، لكن إذا كان هذا هو ما حدث فمن أعطاه إياه؟ لا أحد هنا.. أنى متأكدة من هذا، وليس من المحتمل انه قد

شـرب وحـده. آه كـان يجب أن نتـوقع هـذا منذ الأمس. ولمست هينيت إحدى الاحجبة العديدة التى تلبسها:

- ليحـمينا آمـون مـن أرواح الأمـوات الشـريرة. أن الولد روى مـا رآه وكيف رآه، ولذلك رجعت مـرة ثانيـة وسـقتـه عصيـر الخشـخاش لتغلق عـينيـه إلى الأبد. آه أن نوفـريت هـذه قـوية. لقـد سـافـرت كـمـا تعلمين خـارج مـصـر واكـاد اقـسم انهـا تعلمت جـمـيع أنواع السـحـر البـدائى الغريبة. نحن لسنا فى أمـان فى هذا المنزل، لا أحد منا فى أمان. يجب على والدك أن يقدم ثيـران كثيـرة لامون، قطيعـا باكمله إذا لزم الأمـر، ليس هذا وقت يمـارس فيـه الادخار. يجب أن نحمى أنفـسنا ويجب أن نتوسل لوالدتك، هـذا مـا يعتزمه امحتوب.

لقـد قـال الكاهن مـرسـو هذا.. خطاب رسـمى للأمـوات.. إن حـورى مـشـغـول الآن بإعـداده، وكـان والدك يـريد أن يوجـهـه إلى نوفـريت، يستعطفها كما تعلمين يقول (أيتها الممتازة نوفريت ما الشر الذى آذيتك به أبدا، الخ.) ولكن كما يقول الكاهن المبجل مرسو أن الأمـر يحتاج إلى وسـائل أقـوى من هـذا. إن والدتك اياشـات كـانت سـيـدة عظيـمـة، وكـان خـالها هـو الحـاكم وكان أخوها هو السـاقى الأكبـر فى طيبـة، وعـندمـا تعـرف مـا يحـدث لن تسـمح لمجـرد مـحظيـة أن تقضـى على أولادهـا، آه نعم سنحصل على العدل وكما أقول أن حورى يعد لها التماسا الآن.

كـان فى نيـة رينسنب أن تبـحث عن حـورى وتروى له كـيف وجـدت العـقـد ذا الأسـود، ولكن إذا كـان حـورى مـشـغـولا مع الكهنة فى مـعبـد ايزيس فلا آمل فى التفكير فى محاولة مقابلته وحده.

هل يجب أن تذهـب إلى أبيهـا؟ وهـزت رينسنب رأسـهـا بدون اقـتناع

فـان فكرتهـا القـديمة منذ الطفـولة عن قـوة أبيـهـا قـد تلاشت تمامـا، وأدركت تمـامـا كـيـف انه ينهـار سـريعـا فى الأزمـات وان مـا لديه هو جعجعة جوفاء وليس قوة حقيقية، ولو لم يكن يامـوس مريضا لقالت له ولو كانت أنها تشك انه كان سيكون له أية نصائح علمية لها.

انه فى الغـالب سيصر على عـرض الأمـر على امـحتوب، وهذا كما تشعر رينسنب هو مـا يجب أن تتجنبه بكل وسيلة. أن أول شـئ سيفعله امـحتوب هو انه سيـذيع الأمـر على الملأ، وكـان شعـور رينسنب هو انه يجب إبقاءه سرا. ولو أنها كانت لا تعرف السبب فى شعورها هذا. كلا أن ما تحتاج إليه هـو مشورة حورى فانه كالمعتاد دائما سيعرف ما يجب عـمله، وسيـأخـذ منهـا العـقـد، وفى نفس الوقت سـيـزيل عنهـا القلق والحيرة وسينظر إليها بعينيه الطيبتين الجادتين وستشعر فى الحال أن كل شئ على ما يرام..

ولبرهة أحست رينسنب بإغراء لكى تفشى سرها لكيت، ولكن كيت ليست مرضية، فإنها لا تستمع أبدا بانتباه، وربما إذا استطاع المرء أن يبعدها عن أطفالها، كلا هذا لن يفيد أن كيت لطيفة لكنها غبية.

وفكرت رينسنب:

- هناك كامانى.. وهناك جدتى.

كامـانى..؟ كان هنـاك شئ سار فى فكرة تحدثها بهذا لكامـانى، ان بوسعـهـا رؤية وجهه بوضـوح تام فى مـخيلتهـا، وتعبيـره الذى يتغيـر من مرح إلى اهتمـام إلى خشية من اجلهـا.. أو هل هو من اجلها؟. لماذا هذا الشك الخبيث فى أن نوفـريت وكامانى كانا اقرب لبعـضـهـمـا ممـا يبدو ظاهريا؟ لان كامـانى سـاعـد نوفـريت فى حملتها لفصم امحتوب عن

أسرته؟ لقد دافع عن نفسه بقوله انه الآن لم يملك إلا أن يفعل ما أمر به، لكن هل هذا حقيقى؟ انه شئ يسهل قوله وكل ما يقوله كامانى يبدو سهلا وطبيعيا وصحيحا. إن ضحكته مرحة لدرجة أنها تجعلك تريد أن تضحك أيضا.

إن مشيته رشيقة، والطريقة التى يحرك بها رأسه من فوق كتفيه البرنزيين، وعيناه اللتان تنظران إليه، تنظران إليك، وتوقفت أفكار رينسنب بارتباك. إن عينى كامانى مثل عينى حورى. فيهما طيبة وأمان، انهما تتحديان وتطالبان.

كانت أفكار رينسنب قد ألهبت وجنتيها وأبرقت عيناها ولكنها قررت الا تخبر كامانى عن عثورها على عقد نوفريت.

كلا إنها ستذهب إلى اسا. إن اسا قد آثرت عليها أمس فإنها على رغم كبر سنها إلا أنها تفهم الأمور وتتمتع بشعور عملى ذكى لا يملكه سواها فى الأسرة.

وفكرت رينسنب:

- إنها عجوز ولكنها ستعرف.

عند أول ذكر للعقد نظرت اسا حولها بسرعة ووضعت إصبعها على شفتيها محذرة، ومدت يدها وبحثت رينسنب بين ثنايا ثوبها ثم أخرجت العقد ووضعته فى يد اسا.

وامسكت اسا للحظة قريبا من عينيها الكليلتين أخفته فى ثوبها، وقالت فى صوت منخفض وبلهجة آمره، كفانا الآن فمن يتحدث فى هذا المنزل يتحدث إلى ماله إذن، لقد ظللت اغلب الليل مستيقظة أفكر وهناك أمور عديدة يجب عملها.

- اعرف هذا. حسنا دعى والدك يشغل نفسه بأرواح أموات، أن أفكارى مشغولة بأمور هذه الدنيا.. عندما يعود حورى أحضريه إلى هنا. هناك أمور يجب قولها ومناقشتها، وأنا أستطيع أن أثق فى حورى.

- حورى سيعرف ما سيجب عمله.

ونظرت إليها اسا بفضول، انك تذهبين كثيرا لرؤيته فى المقبرة أليس كذلك؟ عما تتكلمان؟

وهزت رينسنب رأسها بإبهام.

- آه.. النهر، ومصر، والطريقة التى يتغير بها الضوء ولون الرمال والأحجار.. ولكننا فى اغلب الأحيان لا نتكلم بتاتا. أنى اجلس هناك فقط فى سلام بدون أصوات عالية وبدون أطفال باكية وبدون ضجيج. بوسعى أن أفكر كما أشاء ولا يقاطع حورى افكارى، وفى بعض الأحيان انظر إلى أعلى وأجده يراقبنى ويبتسم كلانا.. أنى سعيدة وأنا فى أعلى الجبل هناك.

قالت اسا ببطء:

- أنت محظوظة يا رينسنب. لقد وجدت السعادة التى هى فى كل قلوب الناس، والسعادة بالنسبة لأغلبية النساء تعنى الحركة الدائبة والانشغال بالأمور الصغيرة. إنها العناية بالأطفال والضحك والمحادثة مع النساء الأخريات والشجار والحب والغضب مع رجل. إنها مكونة من أمور صغيرة مرتبطة بعضها البعض مثل خرز منظم.

- هل كانت حياتك هكذا يا جدتى؟

– معظمها ولكن الآن وقد أصبحت عجوزا اجلس بمفردى كثيرا، وضعفت عيناى وأمشى بصعوبة فقد أدركت أن هناك حياة داخلية، كما أن هناك حياة خارجية، ولكننى كبرت ولم يعد فى وسعى أن أتعلم طريقتها الصحيحة ولذلك فأنى انهر خادمتى الصغيرة وأتمتع بالطعام الجيد فى المطبخ، وأتذوق كل أنواع الخبز العديدة التى تخبزها، وأتمتع بالعنب الناضج وعصير الرمان. أن هذه الأشياء تبقى عندما تفرغ الأمور الأخرى. إن الأولاد الذين كنت احبهم قد ماتوا. وأبوك ليساعده رع، كان دائما ساذجا، كنت احبه عندما كان طفلا يحبو ولكنه الآن يثيرنى بتصنعه الأهمية.

وأنا احبك اكثر من كل أحفادى يا رينسنب، وعلى ذكر الأحفاد أين ايبى؟ لم أره اليوم ولا أمس.

– انه مشغول جدا بمراقبة تخزين الحبوب. لقد ترك له أبى مسئولية هذا العمل.

وابتسمت اسا:

– هذا سيسير ديكنا الصغير انه سيتبختر وهو ممتلئ باهميته، عندما يأتى ليأكل ابعثى به إلى.

– نعم يا اسا.

– وبالنسبة لبقية الأمر يا رينسنب، الصمت..

– هل كنت تريدين رؤيتى يا جدتى؟

وقف ايبى يبتسم بكبرياء ورأسه مائلا جانبا قليلا وبين أسنانه وردة بيضاء. وبدا عليه السرور بنفسه وبحياته عموما.

وقالت اسا وهى تفحصه بدقة:

– إذا كان فى وسعك أن تمنحنى برهة من وقتك الثمين. ولم تؤثر لهجتها الحادة على ايبى.

– أنى حقيقة مشغول جدا اليوم فان على أن أراقب كل شئ بما أن أبى ذهب إلى المعبد.

– إن الذئاب الصغيرة تعوى عاليا. ولكن ايبى لم يهتز:

– هيا يا جدتى انك بلا ريب لديك اكثر من هذا تريدين قوله لى.

– بالتأكيد لدى اكثر من هذا لأقوله وأولا هذا منزل حزين. إن جثمان أخيك سوبك بين أيدى المحنطين ومع ذلك فوجهك مشرق كما لو كان هذا يوم عيد.

وابتسم ايبى، انك لست منافقة يا اسا فهل تريدين أن أكون أنا هكذا؟ أنت تعرفين جيدا أنى وسوبك لم نكن نحب بعضنا، وكان يفعل كل ما بوسعه ليضايقنى ويحبط خططى. كان يعاملنى كطفل وكان يعهد إلى بكل الأعمال المهينة والصبيانية فى الحقول. وكثيرا ما كان يتهكم ويضحك على وعندما أراد أبى أن يشركنى معه بالاشتراك مع أخوى الكبيرين كان سوبك هو الذى أقنعه بالا يفعل ذلك.

وسالت اسا بحدة:

– ما الذى يجعلك تعتقد أن سوبك هو الذى أقنعه بذلك؟

– لقد قال لى ذلك كامانى.

– كامانى؟. ورفعت اسا حاجبيها وأزاحت باروكتها إلى جانب وهرشت رأسها. كامانى. أنى أجد هذا الآن مهما.

- قال كامانى انه سمع هذا من هينيت، ونحن متفقون جميعا على أن هينيت تعرف دائما كل شئ.

وقالت اسا بجفاء:

- ومع ذلك فهذه المرة كانت هينيت مخطئة. كان من رأى سوبك وياموس انك صغير جدا على الأعمال، ولكن أنا، نعم أنا، التى أقنعت أباك بعدم مشاركتك.

- أنت يا جدتى.. وحدق فيها الصبى بدهشة حقيقية ثم بدا على ملامحه تجهم اسود ووقعت الوردة من بين شفتيه.

- لماذا تفعلين هذا؟ ما شانك؟

- إن شئون أسرتى هى من صميم شئونى.

- واستمع لك والدى؟

- ليس فى أول مرة. لكنى سأعطيك درسا يا ولدى الجميل. إن النساء يحاورون ويتعلمن، إذا كن لم يولدن وهن يعرفن أن يلعبن على ضعف الرجال وقد تتذكر أنى بعثت هينيت بلعبة الشطرنج إلى الشرفة فى المساء الرطب.

- أنى أتذكر. لقد لعبت أنا وأبى معا. وماذا فى ذلك؟

- هذا. لقد لعبتما ثلاث مرات وبما انك اللاعب الأمهر فقد هزمته فى المرات الثلاث.

- نعم... هذا كل ما فى الأمر. إن أباك كمثل كل اللاعبين الضعفاء لم يعجبه هزيمته، خصوصا من مجرد صبى ولذلك تذكر كلماتى، وقرر انك صغير جدا على أن تصبح شريكا.

وحدق ايبى فيها لحظة ثم ضحك، ضحكة غير سارة.

وقال: انك ذكية جدا يا اسا. نعم قد تكونين عجوزا لكن ذكية. بالتأكيد فأنت وأنا أذكياء هذه الأسرة. لقد انتصرت على فى أول مباراة ولكنك سترين أننى سأنتصر فى المباراة القادمة، لذلك خذى حذرى يا جدتى.

– أنى أنوى ذلك وبدورى دعنى أدعوك أنت أن تأخذ حذرك. إن أحد أخويك قد مات والآخر كاد أن يموت وأنت أيضا ابن أبيك، وقد يصيبك ما أصابهم.

وضحك ايبى باستهزاء: لا خوف من ذلك.

– ولم لا؟ أنت أيضا هددت وأهنت نوفريت.

– نوفريت.. كان ازدراء ايبى واضحا.

وسالت اسا بحدة: ماذا يدور برأسك.

– إن لى آرائى الخاصة يا جدتى وأستطيع أن أؤكد لك أن نوفريت والألاعيب روحها لا تقلقنى. دعيها تفعل أقصى ما فى وسعها.

وندت صيحة حادة من ورائه ودخلت هينيت وهى تجرى وتهتف:

– أيها الولد الأحمق، أيها الولد المتهور.. أتتحدى الأموات بعد كل ما ذقناه مما تستطيعه.. ولا تلبس حتى حجابا لحمايتك.

– حماية؟ أنا سأحمى نفسى. ابعدى عن طريقى يا هينيت فان ورائى عملا، إن هؤلاء الفلاحين الكسالى سيعرفون ما يعنى وجود سيد حقيقى لهم.. وأزاح هينيت جانبا وخرج بخطى سريعة.

وقاطعت اسا عويل ونحيب هينيت: استمعى إلى يا هينيت وكفاك

تعجبا من ابيى.. انه قد يعرف ما يفعله وقد لا يعرف.. إن سلوكه غريب جدا لكن وأجيبينى على هذا: هل قلت لكامانى أن سوبك هو الذى اقنع امحتوب أن لا يدخل ابيى فى الشركة؟

وانخفض صوت هينيت إلى نبرتها الباكية العادية:

– أنى بالتأكيد مشغولة جدا فى المنزل لكى وليس لذى وقت لاضيعه بالجرى هنا وهناك وتزويد الناس بالأخبار، وكامانى من دون الناس جميعا. أنى متأكدة من أنى لا أكلمه إلا إذا جاء إلى وكلمنى هو. إن له طريقة لطيفة كما يجب أن تعرفى بنفسك يا اسا، وأنا لست الوحيدة التى تفكر فيه هكذا، آه لا. وإذا أرادت أرملة شابة أن تعقد قرانها من جديد فإنها فى العادة تختار شابا وسيما، ولو أنى لا اعرف ما سيقوله امحتوب فان كامانى مجرد كاتب صغير بعد كل شئ.

– دعك من هو كامانى؟ هل قلت له إن سوبك هو الذى عارض دخول ابيى فى الشركة؟

– حسنا فى الحقيقة يا اسا لا أستطيع أن أتذكر ما قد أكون قلته أو لم اقله. وفى الواقع فأنى لم اذهب لأحد وأقول له شئ. هذا أمر أكيد. ولكن قد تسمع كلمة من هنا وهناك وأنت نفسك تعلمين ما الذى كان يقوله سوبك، وياموس أيضا فى هذا الأمر ولو انه بالطبع لم يكن يتكلم بصوت عال مثله ولا كان يردد هذا بكثرة مثل سوبك، إن ابيى مجرد صبى ولن يصلح هذا أبدا، وقد يكون كامانى سمعه منه وهو يقول هذا وليس منى فأنى لا أثرثر أبدا، ولكن بعد كل هذا فان الإنسان أعطى لسانا ليتكلم به وأنا لست خرساء بكماء.

– أنت بالتأكيد لست كذلك، إن اللسان يا هينيت يكون أحيانا

سـلاحـا. إن اللسـان يمكن أن يسـبب اكـثـر مـن مـوت واحـد. وأمل أن لا يكون لسانك أنت يا هينيت قد تسبب فى موت أحد.

– اسـا! ماذا تقـولين.. ومـاذا يدور فـى رأسك؟ أنى متـأكدة أنى لا أقـول لأحد أبدا كلمة لست مستعدة أن يسمعها أمام العالم اجمع.؟ أنى مخلصة جدا للعـائلة كلها. وعلى استعـداد لان أموت من اجل أى فـرد فيـها. آه انهم لا يقدرون إخلاص هينيت العجوز. لقد وعدت والدتهم الغالية..

وقاطعتهـا اسا بجفـاء: هـا. هـاهـى فرختـى السمينة المطهـوة بالكرات والكرفس.. إن رائحتـهـا بديعة وهـى مطهـيـة كمـا يجب يا انك مـتـفـانيـة لهـذه الدرجـة يا هينيت فـيـمكنك أن تـأخـذى قـطعـة صـغـيـرة من جـانب لعلها تكون مسمومة.

– اسـا!. وصـرخت هينيت، مـسـمـومـة، كـيف يمكنـك أن تقـولـى شيـئـا كهذا وهـى مطبوخة فـى مطبخنا أيضـا؟

– حسنا يجب أن يذوقها أحد احتياطيا. ومن الأفضل أن يكون أنت يا هينيت بمـا انك مـسـتعـدة أن تموتـى من اجل اى فـرد فـى العـائلة. أنى لا أظن أنهـا سـتكون ميـتـة مؤلمة.. هـيا يا هـينيت انظرى كم هـى سـمـينة وشهـية. كلا شكرا فأنا لا أريد أن افقد جـاريتـى الصغيرة فـهى صغيرة ومـرحـة، وأنت قـد تخطيت افضل أيامك يا هينيت ولا يهم كثـيـرا مـاذا يحدث لك. هـيا الآن، افتحى فمك.. ممتازة أليس كذلك؟

أنى لا أقـول، لقد اخـضـر لونك. ألم تـعـجـبك نكـتتـى الصـغـيـرة؟ أنا لا اعتقد أنها أعجبتك. هـا. هـا..

وتمايلت اسا من كثرة الضحك ثم تمالكت نفسها فجأة وبدأت تأكل طبقها المفضل بشهية.

الشهر الثانى من الصيف، اليوم الأول

انتهت الاستشارة فى المعبد وتم أعداد وتدبيج صيغة الالتماس وقد اشتغل فيها بهمة حورى وكاتبان آخران من المعبد.

والان اتخذت الخطوة الاولى ووقع الكاهن أمرا بقراءة مسودة الالتماس.

(إلى روح السيدة الجليلة اياشات).

(هذه الرسالة من زوجك. هل نسيت الزوجة زوجها؟ هل نسيت الام أولادها الذين ولدتهم..؟ ألا تعرف السيدة الجليلة اياشات إن روحا شريرة تطارد أولادها..؟ إن سوبك ابنها قد ذهب إلى أوزوريس مسموما.

(لقد عاملتك بكل احترام فى دنياك وأعطيتك الجواهر والملابس والدهون والعطور ولقد عشنا فى سلام ومودة سويا وعندما مرضت لم ابخل عليك بشئ، وأحضرت لك طبيبا نابغا ودفنت بكل احترام وبالطقوس الأصولية وأعددت كل الأمور التى تحتاجينها فى حياتك المقبلة، الخدم وثيران ومأكولات ومشروبات وجواهر وملابس وحزنت عليك سنوات كثيرة، وبعد سنوات طويلة اتخذت فقط محظية لكى أعيش كما يجب ان يعيش رجل لم يكبر بعد.

(إن هذه المحظية هى التى تقوم بأعمال شريرة ضد أولادك. ألا تعرفين هذا؟ ربما تجهيلنه وبالتأكيد عندما تعرفين ستهرعين لنجدة أولادك.

(هل من الممكن انك تعرفين ولكن الشر مازال مستمرا لان المحظية نوفريت تملك سحرا شريرا قويا؟ لكن بالتأكيد هذا ضد رغبتك يا اياشات. لذلك تذكرى ان لك حق فى حقل القرابين أقارب أقوياء. ابيى النبيل العظيم الساقى الأول للوزير. اطلبى معونته وأيضا خالك ميريتاح القوى العظيم حاكم الولاية بلغيه الحقيقة المخجلة. دعى الأمر ينظر فى محكمته واستدعى الشهود ودعيهم يشهدون ضد نوفريت بأنها فعلت شرا. وليصدر حكم ولتدان نوفريت وليحكم عليها بالا ترتكب شرا بهذا البيت.

(أه أيتها السيدة الجليلة اياشات إذا كنت غاضبة من زوجك امحتوب لأنه استمع لتحريض هذه المرأة الشريرة وهدد بان يظلم أولادك فتذكرى انه ليس وحده الذى يتألم ولكن أولادك ايضا يتألمون. سامحى زوجك امحتوب من اجل أولادك).

وتوقف الكاتب الأول عن القراءة وأومأ مرسو موافقا.

– أنها مكتوبة جيدا ولا اعتقد إننا أغفلنا فيها شيئا.

ونهض امحتوب: انى أشكرك أيها الأب المبجل وستصل قرابينك قبل إن تغرب الشمس غدا، مواشى وزيت وكتان.. هل نحدد اليوم الذى يلى ذلك الطقوس ووضع البلاص المنقوش فى غرفة القرابين التابعة للمقبرة؟

– اجعلها ثلاثة أيام من الآن، فانه يجب نقش الكلام على البلاص والإعداد للطقوس الضرورية.

– كما تشاء. انى مشغول البال واخشى إن تقع اى مصيبة اخرى.

– انى افهم قلقك جيدا يا امحتوب ولكن لا تخف إن الروح الطيبة اياشات ستستجيب بالتأكيد لهذا الالتماس وأقاربها أقوياء ولهم نفوذ

وفى وسعهم إن ينفذوا العدالة حيث تستحق بجدارة.

– لتسمح إيزيس بهذا. انى أشكرك يا مرسو، لعنايتك ولشفاءك لابنى ياموس. هيا يا حورى علينا الكثير الذى يجب عمله فلنرجع الى المنزل. أه إن هذا الالتماس قد أزاح حملا عن ذهنى إن اياشات المبجلة لن تتخلى عن زوجها الحائر.

* * *

كانت رينسنب تترقب حورى عندما دخل الفناء وهو يحمل رزمة أوراق من البردى وجاءت تجرى من البحيرة.

– حورى.

– نعم يا رينسنب.

– هل تاتى معى إلى أسا؟ أنها تنتظرك وتريدك.

– بالطبع. دعينى أرى إذا كان امحتوب..

ولكن ايبى كان قد حاصر أباه وكانا الابن والأب منهمكين فى الحديث.

– دعينى أضع هذه الرزم والأشياء الأخرى وسأتى معك يا رينسنب.

وبدت أسا مسرورة عندما دخلت عليها رينسنب وحورى.

– ها هو حورى يا جدتى.. لقد أتيت به إليك فورا.

– حسنا. هل الجو لطيف فى الخارج؟

– اعتقد ذلك.. وأخذت رينسنب قليلا.

– إذن ناولينى عصاى فانى سامشى قليلا فى الفناء.

كانت أسا قليلا ما تترك المنزل ولذلك كانت رينسنب مندهشة. وقادت المرأة العجوز وهى تسندها بيدها ومضوا عبر البهو الرئيسى إلى الشرفة.

– هل تجلسين هنا يا جدتى؟

– كلا يا بنتى سامشى حتى البحيرة.

كانت أسا تتقدم ببطء ولكن ولو أنها كانت تعرج إلا انه لا يبدو عليها التعب وكانت قدماها قويتين. ونظرت حولها واختارت بقعة بجانب البحيرة كانت فيها زهور وكانت تظللها شجرة الجميز. ثم قالت برضاء بعد ان استقرت:

– هنا نستطيع الآن إن نتكلم بدون إن يسمعنا احد.

قال حورى مستحسنا:

– أنت حكيمة يا أسا.

– إن الكلام الذى سيقال لا يجب إن يعرفه احد سوانا نحن الثلاثة.

انى أثق فيك يا حورى. لقد ظللت معنا منذ إن كنت ولدا صغيرا وكنت دائما مخلصا ودودا وحكيما. إن رينسنب هى احب احفادى إلى ولا يجب إن يصيبها أذى يا حورى.

لن يصيبها أذى يا أسا.

لم يرفع حورى صوته ولكن نبراته والنظرة التى فى عينيه أرضت السيدة العجوز تماما.

هذا قول حسن يا حورى، بهدوء وبلا حماس، ولكن كمن يعنى ما

يقول. والآن ماذا تم اليوم؟وروى حورى مضمون الالتماس واستمعت أسا بعناية.

- استمع الى يا حورى وانظر إلى هذا.. وأخرجت العقد من ثوبها وأعطته له وأضافت:

- قولى له يا رينسنب أين وجدته.. وأخبرته رينسنب.

ثم قالت أسا:

- حسنا يا حورى ما رأيك؟

صمت حورى برهة ثم سال أنت كبيرة وحكيمة ما رأيك أنت؟

- انك يا حورى احد الذين لا يحبون ان يتكلموا بعجلة دون ادلة. انك كنت تعرف منذ البداية كيف ماتت نوفريت أليس كذلك؟

- كنت اشك فى الحقيقة يا أسا. كان مجرد شك.

- بالضبط. وكل ما لدينا الآن مجرد شك ومع ذلك فهنا بجوار البحيرة وبيننا نحن الثلاثة يمكن إن نتحدث عن الشك. ولا نتكلم عنه بعد ذلك. يبدو لى ان هناك ثلاثة تعليلات للأمور المفجعة التى حدثت: أولا إن الراعى صدق وان ما رآه هو فى الحقيقة شبح نوفريت الذى عاد من الموت وان لها رغبة شريرة لتنتقم اكثر من ذلك لجلب الحزن والأسى لأسرتنا. هذا ممكن ويقول الكهنة والآخرون إن هذا ممكن، ونحن نعرف إن الأمراض تسببها الأرواح الشريرة ولكن يبدو لى أنا المرأة العجوز التى لا تميل إلى تصديق الكهنة والآخرون إن هناك احتمالات أخرى.

قال حورى: مثل؟

– لتعترف إن نوفريت قتلت بيد ساتيبى، وانه بعد ذلك بمدة خيل لساتيبى أنها رأت نوفريت وأنها وقعت وماتت نتيجة لخوفها وشعورها بالذنب. ان كل هذا واضح بما فيه الكفاية. ولكن لننظر الآن لاحتمال أخر، وهو انه بعد ذلك أراد احدهم لسبب لا نعرفه بعد إن يتسبب فى موت اثنين من أبناء امحتوب، وهذا الشخص اعتمد على خوف خرافى يسند الجريمة إلى شبح نوفريت، وهو افتراض ملائم بشكل غريب.

وصاحت رينسنب: من يريد قتل ياموس أو سوبك؟

– ليس خادما فانهم لا يجرؤون وهذا يترك لنا أفراد قليلين نختار من بينهم.

– واحد منا؟ لكن كيف يمكن هذا يا جدتى؟

– اسئلى حورى ولاحظى انه لم يعترض.

وتحولت رينسنب نحوه: حورى، بالتاكيد؟

وهز حورى رأسه بجد.

– رينسنب أنت صغيرة وتثقين فى الناس. انت تعتقدين إن كل شخص تعرفينه وتحبينه هو كما يبدو لك.. أنت لا تعرفين قلب الإنسان والمرارة، نعم بل والشر الذى قد يحتويه.

– لكن من، من منهم؟

– لنرجع إلى هذه الرواية التى قالها الراعى.

انه راى امرأة مرتدية ثوب لينون مصبوغ وتضع عقد نوفريت، والان اذا لم يكن هذا شبحا فانه اذن رأى بالضبط ما ذكره –وهذا يعنى أنه

رأى امرأة تحاول متعمدة أن تبدو مثل نوفريت. قد تكون كيت وقد تكون هينيت وقد تكون أنت يا رينسنب وعن هذا البعد قد يكون أى أحد يلبس ثوب امرأة وباروكة صه -دعونى أكمل. ان الاحتمال الأخر هو أن الولد يكذب وأنه روى رواية أوحى له بها أحدهم، وأنه كان يطيع شخصا له الحق فى أن يأمره، وقد يكون غبيا لدرجة أنه لم يدرك النقطة فى الرواية التى أرشى أو خدع عليه ليقولها. إننا لن نعرف أبدا، الآن لان الولد مات -وهذا فى ذاته نقطة هامة. أن هذا يجعلنى أميل إلى الاعتقاد بأن الولد روى رواية علمها إياه شخص ما. ولو كان قد استجوب بعمق كما كان سيحدث اليوم، فانه كان سيتعثر فى روايته، فانه من السهل بقليل من الصبر اكتشاف ما إذا كان الطفل يكذب.

حورى: إذن فانت تعتقدين أن بيننا شخص يدس السم؟

- نعم. الا تعتقد أنت ذلك.

حورى: أنا أيضا أعتقد هذا.

ونظرت رينسنب من واحد إلى الأخر بحسرة.

ومضى حورى يقول: ولكن يبدو لى أن الدافع ليس واضحا.

أسا: أنا أوافق ولهذا فانى لست مرتاحة. أنا لا أعرف من المهدد بعد ذلك.

وقاطعتها رينسنب: لكن أحدنا؟.. وكان صوتها مازال غير مصدق.

وقالت أسا بحزم، نعم يا رينسنب -أحد منا. هينيت أو كيت أو ايبى أو كامانى أو حتى أمحتوب نفسه -نعم أو أسا أو حورى أو حتى- وابتسمت- رينسنب.

حورى: أنت مخطئة يا أسا. يجب أن نحسب أنفسنا.

وكان فى صوت رينسنب ذعر وتساؤل: لكن لماذا؟ لماذا؟

أسا: لو كنا نعرف السبب لعرفنا تقريبا كل ما نريد معرفته اننا نستطيع فقط أن نرتكن على الذين هوجموا. تذكروا أن سوبك لحق بياموس على غير انتظار بعد أن بدأ ياموس يشرب. من المؤكد إذن أن الفاعل كان يريد قتل ياموس، وهناك تأكيد أقل بأن هذا الشخص كان يريد قتل سوبك.

وتكلمت رينسنب بتشكك: لكن من يرغب فى قتل ياموس (أن ياموس بالتأكيد من دوننا جميعا لا أعداء له. أنه دائما هادئ وطيب.

حورى: إذن فمن الواضح أن الدافع ليس حقدا شخصيا وكما تقول رينسنب أن ياموس ليس من طراز الرجل الذى له أعداء.

أسا: كلا أن الدافع غامض أكثر من ذلك. إننا هنا نواجه أما عداوة ضد الأسرة كلها كوحدة أو ان هناك خلف كل هذه الأمور الجشع الذى حذرنا منه بتاح. انه كما يقول حزمة من كل نوع من الشر وعصبة من كل شئ سيئ.

حورى: انى أرى الاتجاه الذى يميل نحوه عقلك يا أسا. ولكن لكى نتوصل إلى أية نتيجة يجب أن نتنبأ بالمستقبل.

وأومأت أسا برأسها بشدة وانحرفت باروكتها على احدى أذنيها. ومع أن مظهرها كان مضحكا إلا أن أحدا لم يشعر بميل للضحك وقالت، تنبأ يا حورى.

وظل حورى صامتا لدقيقة أو دقيقتين وعيناه فيهما تفكير

وانتظرت المرأتان ثم تكلم أخيرا:

- لو كان ياموس قد مات كما كانت النية -إذن لأصبح المنتفعون الأوائل هم أبناء أمحتوب الباقين سوبك وايبى -وبدون شك أن جزءا من الضيعة كان سيخصص لأولاد ياموس ولكن ادارة الارض كانت ستكون بين أيديهم، وبين أيدى سوبك بالأخص. وبلا ريب أن سوبك كان سيصبح أكبر منتفع. وفى الغالب كان سيقوم مقام أمحتوب ككاهن القبر فى غيابه، وكان سيرث هذا المنصب بعد وفاته، ولكن مع أن سوبك كان هو المنتفع الأول إلا أنه لم يكن المذنب لأنه هو نفسه شرب من النبيذ المسموم لدرجة أنه مات. لذلك فعلى قدر ما أستطيع أن أراه فان موت هذين الاثنين كان يفيد شخصا واحدا معينا -فى هذا الوقت- وهذا الشخص هو ايبى... وقالت أسا: موافقة ولكنى ألاحظ يا حورى انك بعيد النظر وانى أقدر معنى جملتك الوصيفة. لكن دعنا نبحث أمر ايبى أنه صغير، ومستعجل وهو من عدة نواح سيئ الطباع. وهو فى سن يبدو له فيها أن أهم شئ فى الحياة هو أن يحصل على ما يريد. ولقد شعر بغضب واستياء من أخويه الكبيرين واعتقد أنه قد استبعد بدون حق من المساهمة فى المشاركة العائلية ويبدو أيضا أن كامانى قال له أشياء بدون حكمة.

- كامانى؟.. كانت رينسنب هى التى قاطعتها، وما كادت تفعل ذلك حتى أحمر وجهها وعضت شفتيها، وأدار حورى رأسه لينظر إليها وشعرت بجرح لا تفهمه من نظرته الطويلة الرقيقة.

ومدت أسا عنقها إلى الأمام وحدقت فى رينسنب وقالت:

- نعم كامانى. أما إذا كان هذا بإيعاز أو لا من هينيت فأمر آخر،

لكن الواقع هو أن ابيى الذى هو طموح ومتعجرف كان يتبرم من سلطة أخويه الاكبر من سلطته، ويعتبر نفسه بدون شك كما قال لى منذ مدة طويلة، الرأس المفكر الذكى فى العائلة.

وكان صوت أسا جافا.

حورى: هل قال ذلك لك أنت؟

- أنه كان من الكرم بحيث أنه أشركنى مع نفسه فى ملكية كمية معينة من الذكاء.

وسألت رينسنب غير مصدقة: أتعتقدين أن ابيى سم ياموس وسوبك متعمدا؟

أنى أعتبر مجرد احتمال. إن ما نتكلم عنه الآن هو الشك. ولا نملك حتى الآن دليلا.. إن الرجال قد قتلوا أخوتهم منذ الأزل، وهم يعرفون أن الآلهة لا تحب هذا، ولكنهم رغم ذلك مدفوعين بالشرور والجشع والحقد. ولو كان ابيى قد فعل هذا فإننا لن نجد من السهل الحصول على ما يثبت ما فعله لان ابيى، وأنا أعترف بهذا، ذكى.

وأومأ حورى ومضت أسا تقول: لكن كما أقول نحن الآن نتكلم تحت الشجرة عن الشك، وسنمضى ننظر إلى كل فرد من الاسرة على ضوء الشك، وكما أقول أنى استبعد الخدم لأنى لا أصدق ولو لدقيقة أن أى واحد منهم يجرؤ على فعل شئ من هذا القبيل. ولكنى لا أستبعد هينيت.

وهتفت رينسنب، هينيت؟ لكن هينيت متفانية لنا جميعا وهى لا تكف عن ترديد ذلك.

- أنه من السهل الكذب كما أنه من السهل الصدق أنى أعرف

هينيت منذ سنوات عديدة. عرفتها منذ أن جاءت الى هنا وهى شابة مع والدتك، وكانت قريبة لها -فقيرة وتعسة وكان زوجها لا يحبها. وكانت هينيت فى الواقع قبيحة- وكان قد طلقها والطفل الوحيد الذى رزقت به مات فى المهد. وجاءت الى هنا وهى تتصنع التفانى لوالدتك، ولكنى رأيت عينيها وهى تراقب والدتك وهى تتحرك فى المنزل وفى الفناء- وانى أقول لك يا رينسنب أنه لم يكن فيهما حب. كلا بل كان فيهما شئ أقرب إلى الحسد المر وأما ادعاؤها بأنها تحبكم فأنا لا أثق فيه.

حورى: قولى لى يا رينسنب. ألا تشعرين بمودة نحو هينيت؟

رينسنب: كلا. لا أستطيع وقد لمت نفسى كثيرا لانى لا أحبها.

– ألا تظنين أن هذا لأنك بالغريزة تعرفين أن كلماتها كاذبة؟ هل أظهرت لك أبدا حبها المزعوم بأى خدمة حقيقية؟ ألم تثر دائما الخلافات بينكم جميعا بالهمس وبترديد أمور من الجائز أن تجرح وتتسبب فى غضب؟

– نعم -نعم- هذا حقيقى.

وضحكت أسا ضحكة جافة.

– ان لك عينا وآذانا فى رأسك يا حورى العظيم.

وناقشت رينسنب: لكن أبى يودها ويصدقها.

أسا -إن ابنى كان وسيظل دائما ساذجا. إن الرجال جميعا يحبون المديح -وهينيت تستعمل العطور فى كل حفل. قد تكون حقيقة مخلصة له وفى بعض الأحيان أظن ذلك ولكنها بالتأكيد ليست مخلصة لأى شخص آخر فى هذا المنزل.

واعترضت رينسنب: ولكنها بالتأكيد لن -لن تقبل. لماذا تريد أن تقتل أى واحد منا؟ ما الخير الذى سيصيبها من ذلك؟

- لا شئ -لا شئ. إما لماذا- فأنا لا أعرف شيئا عما يجرى فى رأس هينيت. ما تفكر فيه وما تشعر به هذا ما لا أعرفه.

ولكن أعتقد أن أمورا غريبة تختمر خلف هذا السلوك المتذلل المتملق، واذا كان هذا صحيحا فان أسبابها لن تفهمها أنت أو حورى أو أنا.

وأومأ حورى، هناك عفن يبدأ من الداخل.. لقد كلمت رينسنب فى هذا مرة.

رينسنب: ولم أفهمك ولكنى بدأت أفهم الآن أفضل من قبل.. لقد بدأ بمجئ نوفريت -لقد رأيت حينئذ كيف أن لا أحد منا مثلما كنت أظن تماما وأخافنى هذا.. والآن... وأتت بيديها بإشارة كمن لا حول لها: كل شئ يخيف.

حورى: ان الخوف هو المعلومات الناقصة، وعندما نعرف يا رينسنب لن يعود هناك خوف.

ومضت أسا تقول: ثم هناك بالطبع كيت.

واعترضت رينسنب: ليست كيت. إن كيت لن تحاول قتل ياموس. هذا شئ لا يصدق؟

قالت أسا: لا يوجد شئ لا يصدق.. على الأقل هذا ما تعلمته فى مجرى حياتى. إن كيت امرأة غبية تماما، وأنا دائما لا أثق بالنساء الغبيات فأنهن خطيرات -أنهن لا يستطعن رؤية شئ إلا محيطهن المباشر وشئ واحد فقط فى وقت واحد. أن كيت تعيش فى قلب عالم

صغير مكون من نفسها وأولادها وسوبك بوصفه والد الأولاد -وقد تفكر ببساطة أن ازالة ياموس سيغنى أطفالها. إن سوبك كان دائما غير مرض فى عين أمحتوب. أنه كان متهورا لا يطيق الرقابة وليس مرنا وكان ياموس هو الابن الذى يعتمد عليه أمحتوب. لكن بموت ياموس كان أمحتوب سيضطر إلى الاعتماد على سوبك. وانى أعتقد أنها سترى الموضوع ببساطة هكذا تماما.

وارتعدت رينسنب، فعلى الرغم منها ادركت أن هذا وصف حقيقى لموقف كيت من الحياة. إن رقتها وحنانها وكل حركاتها الهادئة الحبيبة موجهة لأطفالها والعالم لا وجود له فى نظرها خارج نفسها وأطفالها وسوبك وهى تنظر للعالم بدون فضول أو اهتمام.

وقالت رينسنب ببطء: لكنها بالتأكيد أدركت أنه من الممكن جدا أن يعود سوبك كما عاد عطشانا ويشرب أيضا من النبيذ؟

قالت أسا: كلا لا أعتقد أنها كانت ستدرك هذا فان كيت كما أقول غبية، وهى ترى فقط ما تريد أن تراه -ياموس يشرب ويموت وينسب الأمر للسحر- لسحر فاتنتنا الشريرة نوفريت- أنها ترى فقط شيئا واحدا بسيطا- وليس إمكانيات أو احتمالات عديدة ومتنوعة، وبما أنها لم تكن تريد أن يموت سوبك فلن يخطر ببالها أنه سيعود على غير انتظار.

- والآن مات سوبك وياموس على قيد الحياة كم يكون هذا فظيعا بالنسبة لها إذا كان ما تخمنينه صحيحا.

- انه من الأمور التى تحدث للمرء إذا كان غبيا -فان الأمور تجرى مختلفة جدا عن الطريقة التى يعدها... وتوقفت ثم مضت تقول: والآن نأتى لكامانى.

وشعرت رينسنب أنه من الضرورى أن تقول الكلمة بهدوء وبدون اعتراض: كامانى؟.. ومرة أخرى شعرت بعدم ارتياح وهى تشعر بعينى حورى عليها.

– نعم نحن لا نستطيع أن نستبعد كامانى. لا يوجد لديه دافع معروف لإيذائنا– ولكن ما الذى نعرفه عنه حقيقة؟ انه جاء من الشمال من نفس المكان الذى جاءت منه نوفريت أنه ساعدها –برضائه أو على الرغم منه– من يستطيع أن يعرف– ليغير قلب أمحتوب ضد أولاده. لقد راقبته فى بعض الأحيان وفى الحقيقة فانى لا أفهمه. أنه يبدو لى على العموم شابا عاديا يتمتع ببعض الذكاء، وهو أيضا إلى جانب كونه وسيم له شئ يجذب إليه أعين النساء. نعم إن النساء سيعجبون دائما بكامانى ومع ذلك فأنا أعتقد –وقد أكون مخطئة– أنه ليس من الطراز الذى له تأثير حقيقى على قلوبهن وعقولهن. أنه يبدو دائما مرحا ولا يحمل هما ولم يبد عليه حزن شديد عند وفاة نوفريت. ولكن كل هذه مظاهر خارجية. من يستطيع أن يعلم ماذا يجرى فى القلب البشرى؟ ان الرجل المصمم يمكنه بسهولة أن يلعب دوره. هل كامانى فى الحقيقة يستنكر بشدة موت نوفريت، وهل يسعى لكى ينتقم لها؟ الآن ساتيبى قتلت نوفريت يجب أن يموت زوجها ياموس أيضا؟

نعم وسوبك أيضا الذى هددها وربما كيت التى كانت تضطهدها بطرق حقيرة وايبى الذى كان يكرهها أيضا؟ ان هذا يبدو خياليا ولكن من يعلم؟

توقفت أسا ونظرت الى حورى.

حورى: – من يعلم يا أسا؟ ونظرت إليه أسا بخبث.

– ربما تستطيع أن تقول أنت يا حورى؟ أنك تعتقد أنك تعرف أليس كذلك؟

وصمت حورى برهة ثم قال: نعم أن لى فكرة فى رأسى عمن سم النبيذ والسبب لذلك –ولكنها ليست واضحة تماما الآن– وفى الحقيقة فانى لا أرى.. وتوقف لدقيقة ثم هز رأسه: كلا ليس بوسعى أن أوجه اتهاما محددا.

– اننا نتكلم هنا فقط عن الشك. أكمل يا حورى تكلم.

وهز حورى رأسه: كلا يا أسا. أنها مجرد فكرة معتمة..

ولو كانت صحيحة فان من الأفضل لك إذن ألا تعرفى. ان معرفتك قد تكون خطرا عليك ونفس الشئ ينطبق على رينسنب.

– إذن فان ما تعرفه خطر عليك أنت أيضا يا حورى.

– نعم أنه خطر.. وأعتقد يا أسا أننا جميعا فى خطر –ولو أن رينسنب ربما كانت اقلنا تعرضا للخطر.

ونظرت إليه أسا لبعض الوقت دون أن تتكلم ثم قالت أخيرا: انى على استعداد لبذل الكثير لمعرفة ما فى ذهنك.

ولم يجب حورى فى الحال وقال بعد برهة بدا أنه يفكر خلالها.

– إن المفتاح الوحيد لما فى عقول الناس هو سلوكهم. إذا تصرف رجل بطريقة غريبة وغير مألوفة دون أن يكون على طبيعته.

رينسنب: حينئذ تشك فيه؟

حورى: كلا.. هذا بعينه هو ما أعنيه. إن الرجل الشرير الذى ينوى الشر يدرك هذا ويعرف أنه يجب أن يخفيه بأى ثمن، وهو لا يجرؤ

لذلك أن يتصرف أى تصرف غير عادى.. أسا: رجل؟

– رجل أو امرأة. الأمر سيان.

أسا: حقا.. رمقته بنظرة فاحصة ثم قال: وماذا عنا؟ ماذا عن الشك فينا نحن الثلاثة؟

حورى: هذا أيضا يجب مواجهته. أنا موثوق بى جدا أن العقود وبيع المحاصيل بين يدى، وبوصفى كاتبا أتولى كل الحسابات. فان من المحتمل أن أكون قد زورتها -كما اكتشف كامانى فى الشمال، ثم قد يكون ياموس قد حيره الأمر وبدا يشك ولذلك يكون من الضرورى لى أن أسكت ياموس: وابتسم قليلا من كلامه هذا.

رينسنب: آه كيف يمكن أن تقول أشياء كهذه؟ لا أحد ممن يعرفونك سيصدق هذا الكلام.

أسا: وأنا؟ أين الشك من ناحيتى، حسنا أنا عجوز وفى بعض الأحيان يمرض العقل عندما يكبر ويكره ما كان يحب. ربما أكون قد سئمت احفادى واسعى لتدمير من هم من لحمى ودمى. انه مرض من فعل روح شريرة يصيب أحيانا الكبار.

رينسنب: وأنا؟ لماذا أحاول قتل أخى الذى أحبه؟

حورى: لو مات ياموس وسوبك وايبى فستكونين آخر أولاد أمحتوب، وسيجد لك زوجا وترثين كل شئ هنا، وتصبحين أنت وزوجك أوصياء على أولاد سوبك وياموس. ثم ابتسم وتابع قوله ولكن هنا تحت الشجرة، شجرة الجميز فإننا لا نشك فيك يا رينسنب.

أسا: تحت شجرة الجميز أو فى غير هذا المكان فإننا نحبك.

الشهر الثانى من الصيف، اليوم الأول

قالت هينيت وهى تدخل بضوضاء بينما كانت أسا تعرج داخلة إلى غرفتها.

– إذن فقد كنت خارج المنزل هذا شئ لم تفعليه من سنة تقريبا.. ونظرت لأسا بتساؤل.

أسا:

– إن الكبار لهم نزوات.

– رأيتك جالسة بجوار البحيرة –مع حورى ورينسنب.

– كلاهما مجلسه لطيف. هل هناك شئ أبدا لا ترينه يا هينيت؟

– حقا يا أسا. أنى لا أعرف ما تعنين. كنت جالسة هناك وبوسع العالم أجمع أن يراك.

– لكنى لم أكن قريبة بما فيه الكفاية ليسمعنى العالم أجمع.

وابتسمت أسا واستشاطت هينيت غضبا:

– لا أعرف لماذا أنت قاسية معى لهذا الحد يا أسا. أنك دائما تلمحين لأمور. أنى مشغولة جدا بمراقبة العمل فى المنزل ليتم كما يجب، فليس لدى متسع من الوقت لأسمع أحاديث الناس. ماذا يهمنى ما يقوله الناس.

– هذا ما تساءلت عنه مرارا.

– لو لم يكن لاجل أمحتوب الذى يقدرنى.

وقاطعتها أسا بحدة: نعم لولا أمحتوب..! انك تعتمدين على أمحتوب أليس كذلك؟ ولو جرى أى شئ لامحتوب.

وكان دور هينيت أن تقاطع: لن يجرى شئ لامحتوب.

– كيف تعرفين يا هينيت؟ هل هناك أى أمان فى المنزل؟ ان شيئا ما حدث لياموس وسوبك؟

– هذا حقيقى –سوبك مات. وياموس كاد أن يموت.وانحنت أسا إلى الأمام وسألت: هينيت لماذا ابتسمت عندما قلت هذا؟

– أنا؟ ابتسمت... وأخذت هينيت: أنت تلمحين يا أسا. هل من المحتمل أن أبتسم –فى وقت كهذا وأنا أتكلم عن هذا الأمر الفظيع؟

– أسا: أنى حقيقة شبه عمياء ولكنى لست عمياء تماما وفى بعض الأحيان بحركة من الضوء أو من الجفون أرى جيدا. جيدا جدا. وكثيرا ما يحدث أنه حين يتكلم إنسان مع شخص آخر يعرف أنه لا يرى جيدا فانه لا يحترس ويسمح لنفسه بأن تظهر على وجهه تعبيرات لا يسمح بظهورها فى وقت آخر، ولهذا أسألك مرة أخرى: لماذا ابتسمت بهذا الرضاء الخفى؟

– إن ما تقولينه شنيع ومشين.

– أنت خائفة الآن.

وصاحت هينيت بحدة، ومن ذا الذى لا يخاف وكل هذه الامور تجرى فى هذا المنزل؟ اننا جميعا خائفون –أنى متأكدة من رجوع هذه الأرواح الشريرة لتعذبنا ولكنى أعرف ما حدث.. كنت تتصنتين لحورى.

ماذا قال عنى؟

- ما الذى يعرفه حورى عنك يا هينيت؟

- لا شئ -لا شئ بتاتا. من الأفضل أن تسألى عما أعرفه أنا عنه؟وبدا الاهتمام فى أعين أسا: حسنا ماذا تعرفين؟

ورفعت هينيت رأسها، آه أنكم جميعا تحتقرون هينيت المسكينة. أنكم تظنون أنها قبيحة وغبية، ولكنى أعرف ما يجرى. هناك أشياء كثيرة أعرفها -وفى الحقيقة لا يوجد الا القليل جدا مما يجرى فى هذا المنزل مما لا أعرف.. قد أكون غبية، ولكن أكثر مما يراه الأشخاص الأذكياء مثل حورى.. وحورى لديه طريقة ينظر بها إلى عندما يقابلنى كما لو كنت غير موجودة وكما لو كان يرى شيئا ورائى. شيئا لا وجود له. ان من الأفضل له أن ينظر إلى. قد يعتقد أنى كمية مهملة وغبية -ولكن ليس دائما الأذكياء هم الذين يعرفون كل شئ. أن ساتيبى كانت تعتقد أنها ذكية وأين هى الآن؟ وتوقفت هينيت برهة ثم بدا أن ضميرها ابنها وانكمشت قليلا بوضوح ونظرت لأسا بعصبية.

ولكن أسا كانت تبدو غارقة فى بحر من أفكارها الخاصة وكانت تبدو على وجهها نظرة خوف وصدمة وحيرة وقالت ببطء وبتأمل: ساتيبى..

وقالت هينيت فى صوتها الباكى المعتاد، انى آسفة يا أسا لأنى فقدت أعصابى، وفى الحقيقة فأنى لا أدرى ماذا دهانى. انى لم أعن شيئا مما قلته..

ونظرت أسا اليها وقاطعتها.

- أخرجى يا هينيت. سيان إذا عنيت أو لم تعن ما قلت فان هذا لا

يهم حقيقة. ولكنك نطقت بجملة واحدة أيقظت أفكارا جديدة فى ذهنى.. اذهبى يا هينيت وانى أحذرك كونى حذرة فى كلامك وافعالك. اننا لا نريد وفيات أخرى فى هذا المنزل. آمل أن تفهمى.

* * *

كل شئ يخيف..

وجدت رينسنب هذه الكلمات تصعد إلى شفتيها تلقائيا أثناء المشاورة التى جرت بجوار البحيرة، لكنها لم تبدأ فى إدراك حقيقتها إلا بعد ذلك.

كانت قد بدأت آليا فى الاتجاه إلى الكوخ الصغير لتلحق بكيت وبالأطفال ولكنها وجدت أن خطواتها بدأت تثقل ثم توقفت من نفسها.

ووجدت أنها كانت خائفة من اللحاق بكيت، والنظر إلى هذا الوجه الساكن الجميل لأنها ربما يخيل إليها أنها ترى فيه وجه قاتلة بالسم. وراقبت هينيت وهى تخرج وتدخل بضجة مرة أخرى من الشرفة، ووجدت أن شعورها المعتاد بالنفور قد زاد. وتحولت بيأس نحو باب الفناء، وقابلت بعد ذلك بلحظة ايبى وهو يدخل منه بخطى سريعة ورأسه عالية وعلى وجهه الوقح ابتسامة.

ووجدت رينسنب نفسها تحدق فيه. ايبى طفل الأسرة المدلل، الولد الوسيم العنيد كما تتذكره منذ أن رحلت مع فاى.

– لماذا تنظرين إلى بهذه الطريقة الغريبة يا رينسنب؟ ما الخبر؟

– هل كنت أفعل ذلك.

وضحك ايبى: أنت تبدين فى مثل بلاهة هينيت.

وهزت رينسنب رأسها: ان هينيت ليست بلهاء أنها حاذقة جدا.

- أنها خبيثة جدا وأنا أعرف ذلك. وفى الواقع فأنها عامل مزعج فى المنزل، وأنا أنوى أن أتخلص منها.

وفغرت رينسنب فاها ثم أطبقت شفتيها وهمست:

- تتخلص منها؟

- ما الذى بك يا أختى العزيزة؟ هل رأيت أيضا أرواحا شريرة مثل هذا الصبى الأسود الأبله المسكين؟

- أتعتقد أن كل إنسان أبله؟

- هذا الصبى كان بالتأكيد كذلك. حسنا.. حقيقة أنى ميال الى عدم الصبر على الغباء. لقد عانيت الكثير منه، وأنى لاقول لك أنه ليس مسليا أن ينكب المرء بأخوين بليدين لا يستطيعان أن يريا أبعد من انفهما. والآن وهما بعيدان ولا يوجد الا أبى أمامى فسترين قريبا الفرق. إن أبى سيفعل ما أقوله أنا.

ونظرت رينسنب إليه مرة أخرى. كان يبدو وسيما ومتعجرفا أكثر من العادة وكانت هناك حوله حيوية وشعور بانتصار الحياة. بالحيوية بدا لها أكثر من العادى وبدا كما لو أن شعورا داخليا كان يمده بهذه الحيوية.

وقالت رينسنب بحدة: إن أخوى ليسا كلاهما بعيدين عن طريقك كما تقول. فان ياموس حى.

ونظر اليها ايبى بتهكم وازدراء:

- وأظن أنك تعتقدين أنه سيشفى تماما؟

- ولم لا؟

وضحك ايبى: لم لا؟ حسنا دعينا نقول ببساطة انى اختلف معك فى الرأى. ياموس انتهى. قد يزحف لفترة ويجلس فى الشمس ويتأوه، ولكنه لم يعد رجلا. انه قد شفى من أول مفعول للسم ولكن بوسعك أن ترى بنفسك أنه لا يتقدم عن هذا.

– ولماذا لا يتقدم؟ إن الطبيب قال أنه سيمر وقت قليل يسترد بعده صحته وقوته تماما.وهز ايبى كتفيه: إن الأطباء لا يعرفون كل شئ. أنهم يتكلمون بحكمة ويستعملون كلمات رنانة. لومى نوفريت الشريرة إذا أردت –لكن ياموس أخاك العزيز.. ياموس قضى عليه.

– أولا تخاف على نفسك يا ايبى؟

– أخاف؟ أنا؟ وضحك الفتى وهو يرفع رأسه الجميل.

– إن نوفريت لم تكن تحبك يا ايبى.

– لا شئ يستطيع أن يؤذينى يا رينسنب إلا إذا اخترت أن أجعله يفعل ذلك. انى ما زلت صغيرا ولكنى واحد من الناس الذين ولدوا لينجحوا. أما بالنسبة لك يا رينسنب فمن الأفضل لك أن تكونى فى صفى.. أتسمعين؟ انك تعاملييننى كثيرا كولد غير مسئول، ولكنى الآن أكثر من هذا. ان كل شئ سيظهر، وقريبا لن تكون هناك أرادة إلا ارادتى. قد يصدر أبى الأوامر ولكن ولو أن صوته هو الذى يتفوه بها فان العقل الذى تولد منه سيكون عقلى.

وخطا خطوتين ثم قال وهو ينظر خلفه: لذلك احذرى يا رينسنب أن أكون غير راض عنك؟

وبينما كانت رينسنب واقفة تحدق فيه وهو يبتعد سمعت خطوة خلفها واستدارت لترى كيت واقفة بجانبها.

- ما الذى كان يقوله ايبى يا رينسنب؟

- إنه يقول أنه سيصبح السيد هنا قريبا قالت كيت: أيقول هذا؟ انى أعتقد شيئا آخر.

* * *

جرى ايبى بخفة صاعدا سلم الشرفة، ودخل المنزل وبدأ كما لو أن رؤية ياموس وهو راقد على الأريكة تسره وقال بمرح: كيف حالك يا أخ. ألن نراك ثانية فى المزرعة؟ أنى لا أفهم كيف لم تنهار كل الأمور بدونك؟

وقال ياموس متبرما بصوت ضعيف: انى لا أفهم شيئا بتاتا. ان السم قد طرد من جسمى فلماذا لا أسترد قوتى لقد حاولت المشى هذا الصباح ولم تحملنى قدماى. أنى ضعيف -ضعيف والادهى أنه يبدو أنى أضعف يوما عن يوم.

وهز ايبى رأسه مواسيا: هذا فعلا سيئ. ألا يساعدك الأطباء؟

- ان مساعد مرسو يأتى كل يوم وهو لا يفهم حالتى. أنى أشرب أعشابا قوية. ويصلى للآلهة كل يوم ويعد لى طعاما خاصا مليئا بالغذاء، ويؤكد الطبيب انه ليس ثمة سبب يمنعنى من استرداد قوتى بسرعة، ولكن بدلا من ذلك يبدو أنى أفقد قوتى تدريجيا.

ايبى: هذا شئ مؤسف. ومضى فى طريقه وهو يغنى برفق حتى وصل إلى أبيه وحورى وهما منهمكان فى الحسابات. وأضيئ وجه أمحتوب المتعب القلق لرؤية ولده الأصغر المحبوب: ها هو ايبى ولدى. ما تقريرك عن الضيعة؟

– كل شئ على ما يرام يا أبى. لقد كنا نحصد الشعير. محصول طيب.

– نعم شكرا لرع.. كل شئ حسن فى الخارج، وكم كنت أود أن يكون هذا هو الحال أيضا فى الداخل. ومع ذلك فيجب أن أثق فى اياشات – انها لن ترفض مساعدتنا فى محنتنا. انى قلق على ياموس. فانى لا أفهم هذا– الضعف الذى لا سبب له.

ايبى: إن ياموس كان دائما ضعيفا.

قال حورى بهدوء: هذا ليس صحيحا فان صحته كانت دائما جيدة.

وقال ايبى مؤكدا: إن الصحة تعتمد على روح الرجل. وياموس كان دائما ضعيف الإرادة، وكان يخاف حتى من إصدار الأوامر.

وقال امحتوب: لم يكن الأمر كذلك فى الفترة الأخيرة. لقد أظهر ياموس سلطة كبيرة فى الشهور الأخيرة، وقد أدهشنى هذا، لكن هذا الضعف فى الأطراف يقلقنى، وقد أكد لى مرسو أنه متى انتهت آثار السم سيكون الشفاء سريعا.

وأزاح حورى بعض الأوراق جانبا وقال بهدوء.

– هناك بعض السموم المعروفة التى لا يظهر مفعولها فى الحال وبعنف. أنها سموم غادرة، وتتراكم فى الجسم كمية صغيرة كل يوم. ولا يأتى الموت إلا بعد شهور طويلة من الضعف، والنساء يعرفن هذه السموم –وفى بعض الأحيان يستخدمنها لقتل زوج حتى يبدو كما لو أن موته كان طبيعيا.

واصفر وجه أمحتوب.

- هل تقترح ان هذا -هذا- هو ما أصاب ياموس؟

- انى اقترح أنه مجرد احتمال، ولو أن أحد العبيد يذوق طعمه الآن قبل أن يأكله الا أن هذا الاحتياط لا يعنى شيئا بما أن الكمية فى أى طبق واحد وفى يوم واحد لن يكون لها أثر ضار. وهتف ايبى بصوت عال: هراء -هراء تام. أنى لا أصدق أن هناك مثل هذه السموم. انى لم أسمع عنها قط.

ورفع حورى عينيه: أنت صغير جدا يا ايبى. ولا تزال هناك أمور كثيرة لا تعرفها.

وهتف امحتوب: لكن ما الذى بوسعنا أن نفعله؟ لقد استغثنا باياشات وأرسلت القرابين للمعبد -ولو أنى لم أؤمن أبدا كثيرا فى المعابد. ان النساء هن اللاتى من ذلك؟

قال حورى مفكرا: ليعد طعام ياموس عبد واحد موثوق فيه، وليراقب هذا العبد طوال الوقت.

- لكن هذا يعنى -ان هنا فى هذا المنزل.

وصاح ايبى -هراء- هراء تام.

ورفع حورى حاجبيه وقال: فلنجرب هذا وسنرى قريبا ان كان هراء أم لا؟

وخرج ايبى غاضبا من الغرفة وحدق حورى وراءه وعلى جبينه عبوس وحيرة.

* * *

خرج ايبى من المنزل وهو ثائر لدرجة أنه كاد أن يوقع هينيت أرضا:

أبعدى عن طريقى يا هينيت.. انك دائما تتلصصين وتسدين الطريق.

- كم أنت فظ يا ايبى. لقد تسببت فى إزرقاق ذراعى.

- هذا شئ طيب. لقد سئمت وطرقك الملتوية. وكلما اقترب خروجك من هذا المنزل نهائيا كان هذا أفضل، وسأجعلك ترحلين.

ولمعت عينا هينيت بخبث: إذن فأنت تريد طردى. أليس كذلك؟ بعد كل العناية والحب اللذين وهبتهما لكم جميعا والإخلاص الذى أخلصته للأسرة كلها. ان أباك يعرف هذا جيدا.

- أنى متأكد أنه سمع عن ذلك بما فيه الكفاية. ونحن كذلك. أنت فى رأيى مجرد امرأة لسانها شرير وفاعلة سوء. انت ساعدت نوفريت فى خطتها -هذا ما أعرفه جيدا- ثم ماتت فعدت تتملقيننا مرة أخرى ولكن سترين -فى النهاية سيستمع ابى لى أنا وليس لرواياتك الكاذبة.

- أنت غاضب يا ايبى.. ما الذى أغضبك؟

- دعك من هذا.

- أنت لست خائفا من شئ يا ايبى أليس كذلك؟ ان هناك أمورا غريبة تجرى هنا.

- لا تستطيعين أخافتى أيتها القطة العجوز.

ومضى سريعا خارجا من المنزل. واستدارت هينيت ببطء إلى الداخل، واسترعى انتباهها أنه من ياموس. كان قد رفع نفسه من الأريكة محاولا أن يمشى، لكن قدميه خانتاه فى الحال تقريبا، وكاد أن يقع على الأرض لولا مساعدة هينيت السريعة.

- هاك يا ياموس أرقد مرة أخرى.

– كم أنت قوية يا هينيت. ان المرء لا يعتقد ذلك بالنظر اليك. ووضع رأسه مرة أخرى على مسند الرأس الخشبى. أشكرك. لكن ماذا بى؟ لماذا هذا الشعور كما لو أن عضلاتى قد تحولت الى ماء؟

– إن مـا بك هو إن هذا المنزل مسـحـور، وهذا من عمل هذه الشيطانة التى جاءت إلينا من الشمال. لا يأتى خير أبدا من الشمال. وتمتم ياموس بقنوط مفاجئ، انى أموت. نعم أنى أموت..

وقالت هينيت بعبوس: سيموت قبلك آخرون.

– ماذا؟ ماذا تعنين؟ ورفع رأسه على مرفقه وحدق فيها.

– انى أعرف ما أقوله: وأومأت هينيت برأسها عدة مرات. لن تكون أنت الذى سيموت فى المرة القادمة.. انتظر وسترى.

* * *

– لماذا تتحاشيننى يا رينسنب؟

ووقف كامانى راسخا فى طريق رينسنب مباشرة، واحمر وجه رينسنب، ووجدت صعوبة فى الإجابة، فأنها فى الحقيقة كانت قد استدارت متعمدة للناحية الأخرى عندما رأت كامانى قادما.

– لماذا يا رينسنب..؟ قولى لى لماذا؟

ولكن لم يكن لديها جواب حاضر –ولم يسعها الا أن تهز رأسها دون أن تجيب.

ثم نظرت إليه وهو واقف فى مواجهتها، وكانت تخشى قليلا أن يبدو وجهه مختلفا، وشعرت بسرور غريب عندما وجدته لم يتغير وهو ينظر اليها فى هذه المرة نظرة جادة وبدون ابتسامة على شفتيه.

ولم تستطع أن تقابل نظراته، وأرخت عينيها، فان كامانى كان فى وسعه دائما تحريك مشاعرها، وكان قربه منها يؤثر عليها، ودق قلبها أسرع قليلا.

– اننى أعرف لماذا تتحاشيننى يا رينسنب؟

واستطاعت الكلام: أنا –لم أكن أتحاشاك. انى لم أرك وأنت قادم.

– هذه أكذوبة. كان يبتسم الآن وكان يمكنها إدراك هذا من نبرات صوته.

– رينسنب. رينسنب الجميلة.

وشعرت بيده القوية الدافئة حول ذراعها وفى التو أفلتت منه: لا تلمسنى. لا أحب أن يلمسنى أحد.

– لماذا تحاربيننى يا رينسنب؟ أنت تعرفين جيدا –الأمر الذى بيننا. أنت صغيرة وقوية وجميلة، وأنه لمخالف للطبيعة أن تظلى حزينة على زوج مدى حياتك. سآخذك بعيدا عن هذا المنزل فانه ملئ بالموت وبسحر شرير. ستأتين معى وتكونين فى أمان.

وقالت رينسنب: أفرض انى لا أريد أن أذهب معك؟

وضحك كامانى ولمعت أسنانه القوية الناصعة.

– أنك تريدين الحضور، ولكنك لا تريدين الاعتراف بذلك. إن الحياة طيبة يا رينسنب عندما يكون الزوجان معا. سأحبك وأسعدك وستكونين حقلا جميلا لى.. أنا سيدك –انظرى.. انى لن أعود أغنى لبتاح: اعطنى زوجى الليلة ولكنى سأذهب إلى امحتوب.

وأقول له: أعطنى رينسنب كزوجة. لكنى لا أعتقد أنك هنا فى أمان ولذلك سآخذك بعيدا.. انى كاتب ماهر وبوسعى أن أدخل فى

خدمة أحد نبلاء طيبة العظماء إذا أردت، ولو اننى فى الواقع أحب حياة الريف هنا -الزراعة والماشية وأغانى الرجال وهم يحصدون وقارب النزهة الصغير على النهر. انى أود أن أبحر معك على النهر يا رينسنب، وسنأخذ بيتى معنا. أنها طفلة جميلة وقوية وسأحبها وأكون أبا طيبا لها. هيا يا رينسنب ما قولك؟

ووقفت رينسنب ساكنة. كانت تشعر بقلبها وهو يدق بسرعة، وشعرت باسترخاء يطغى على إحساسها، ولكن مع ذلك كان هناك مع هذا الشعور بالليونة وبالتسليم شئ آخر -شعور بالعداء.

وفكرت: لمسة من يده على ذراعى وأضعف.؟. من أجل قوته.. وكتفيه العريضتين.. وفمه الضاحك.. ولكنى لا أعرف شيئا عن عقله، عن أفكاره، عن قلبه. ولا يوجد بيننا سلام ومحبة.. ماذا أريد..؟ أنى لا أعرف.. ولكن ليس هذا.. لا ليس هذا..؟

وسمعت نفسها تقول هذا، ورنت الكلمات ضعيفة وغير واثقة حتى فى أذنيها.

- انى لا أريد زوجا آخر.. أريد أن أكون وحدى أن أكون نفسى..

- لا يا رينسنب أنت مخطئة. أنك لم تولدى لتعيشى وحيدة. أن أريد لتقول هذا عندما ترتعش فى يدى.. انظرى..؟

وشدت رينسنب يدها.

- انى لا أحبك يا كامانى، وأعتقد أنى أكرهك.

وابتسم: أنا لا أعنى بكرهك يا رينسنب. فان كرهك قريب جدا للحب. سنتكلم فى هذا الموضوع مرة أخرى.

وتركها وهو يتحرك بسرعة وفى مثل رشاقة غزال صغير.

وذهبت رينسنب ببطء إلى حيث كانت كيت والأطفال يلعبون بجوار البحيرة.

وردت رينسنب جزافا عندما كلمتها كيت، ولكن لم يبد على كيت أنها لاحظت هذا، فأنها كالمعتاد كان ذهنها مشغولا جدا بالأطفال حتى لا تنتبه الى أشياء أخرى.

وفجأة قالت رينسنب وهى تقطع السكون: هل اتخذ زوجا أخر؟ ما قولك يا كيت؟

وردت كيت بهدوء وبدون اهتمام: سيكون هذا أفضل كما أعتقد، فأنت قوية وصغيرة يا رينسنب وبوسعك أن تنجبى أطفالا كثيرين.

– هل هذه كل حياة المرأة يا كيت؟ إن أشغل نفسى فى مؤخرة المنزل ويكون لدى أطفال وأن أمضى بعد الظهر معهم تحت شجر الجميز؟

– إن هذا كل ما يهم المرأة وأنت تعرفين هذا بالتأكيد. لا تتكلمى كما لو كنت جارية. إن النساء أقوياء فى مصر –إن الميراث يمر من خلالهن إلى أولادهن وهن منبع الحياة فى مصر.

ونظرت رينسنب مفكرة إلى تيتى التى كانت مشغولة بعمل باقة من الورد لدميتها. وكانت تيتى عابسة قليلا وهى تركز على ما تقوم به. وفى وقت من الأوقات كانت تيتى تشبه فاى. وكانت لها طريقة فى مد شفتها السفلى وإدارة رأسها إلى جانب قليلا مما كان يجعل قلب رينسنب يعتصر من الحب والألم.

ولكن الآن لم يعد فقط وجه فاى غير واضح فى ذاكرة رينسنب،

ولكن تيتى أيضا لم تعد لها هذه الحركات. وفى بعض الأحيان كانت رينسنب تتعلق بتيتى وهى تشعر بأن الطفلة مازالت جزءا حيا من جسدها، وتشعر حيالها بشعور ملكية مثير وكانت تقول لنفسها: أنها ملكى، ملكى كلية.

وفكرت رينسنب وهى تراقبها الآن: أنها أنا -وفاى...

ثم رفعت تيتى عينيها، وابتسمت عندما رأت أمها. كانت ابتسامة جادة ودودة فيها ثقة وسرور.

وفكرت رينسنب: كلا أنها ليست أنا وليست فاى أنها نفسها. أنها تيتى، وهى وحيدة كما أنا وحيدة وكما أننا جميعا وحيدون. ولو كان بيننا حب فسيكون أصدقاء مدى الحياة -لكن ان لم يكن بيننا حب سنكبر ونصبح غرباء. أنها تيتى وأنا رينسنب.

وكانت كيت تنظر إليها بفضول: ماذا تريدين يا رينسنب..؟ أنى لا أفهم؟

ولم تجب رينسنب. فكيف تجسد الكلمات لتقول لكيت الأمور التى لا تكاد تفهمها؟ ونظرت حولها إلى أسوار الفناء وشرفة المنزل المزينة بألوان زاهية، والى مياه البحيرة الهادئة والكوخ الصغير الرشيق، والى أحواض الزهور المنظمة وأوراق البردى. كل شئ فى داخل الأسوار، ولا شئ يخيف، وحولها أصوات البيت المألوفة وهمهمة الأطفال وأصوات النساء العالية فى المنزل ونعير الماشية من بعيد.

وقالت ببطء: ان المرء لا يستطيع رؤية النهر من هنا؟

وبدت الدهشة على كيت: ولماذا يريد المرء أن يراه؟

وقالت رينسنب ببطء: انى غبية. أنى لا أعرف؟

ورأت أمامها بوضوح تام منظر الحقول الخضراء الغنية، وبعدها عن بعد لون وردى فاتح ساحر ولون أزرق يتلاشى فى الأفق ويندمج فيهما لون النيل الفضى.

وأمسكت أنفاسها -ولان الأصوات من حولها تلاشت مع وضوح الرؤية- وحل بدلا منها سكون وشعور غنى بمنتهى الرضاء.

وقالت لنفسها: سأرى حورى إذا ما أدرت رأسى.. سينظر إلى من فوق ورق البردى وسيبتسم لى، وقريبا ستغرب الشمس وسيحل الظلام ثم سأنام.. وسيكون هذا هو الموت.

- ماذا قلت رينسنب؟

وأجفلت رينسنب فأنها لم تدرك أنها تكلمت بصوت عال، ورجعت إلى يقظتها، وكانت كيت تنظر إليها بفضول.

- لقد قلت الموت يا رينسنب. ففيم تفكرين؟

وهزت رينسنب رأسها: انى لا أعرف انى لم أعن شيئا.

ونظرت حولها مرة أخرى. كم هو لطيف هذا المنظر العائلى بالمياه الملتفة للنظر والأطفال يلعبون. وتنفست نفسا طويلا.

- كم المكان هادئ هنا. إن المرء لا يستطيع أن يتصور أى شئ - فظيع - يحدث هنا. ولكن المكان الذى وجدوا فيه ايبى فى الصباح التالى كان بجوار البحيرة وكان منكفئا إلى الأمام ووجهه فى الماء حيث كانت يد قد أمسكت به حتى غرق.

الشهر الثانى من الصيف، اليوم العاشر

جلس أمحتوب منكمشا، وكان يبدو أكبر سنا كثيرا : شيخ محطم على وجهه نظرة حيرة تثير الشفقة. وأتت له هينيت بالطعام ولاطفته وهى تحثه على أكله.

– نعم يا أمحتوب.. هيا يجب أن ترعى صحتك.

– ولماذا أفعل ذلك؟ ما هى الصحة؟ إن ابيى كان قويا –قويا بشبابه وبجماله– والآن يرقد فى حمام من الماء المالح.. ابيى ابنى المحبوب. آخر أبنائى.

– كلا. كلا. يا امحتوب –إن لديك ياموس.. أبنك ياموس الطيب.

– إلى متى؟ لا أنه أيضا مقضى عليه. إننا كلنا مقضى علينا.. ما هذا الشر الذى حل بنا؟ هل كان فى مقدورى أن أعرف أن أمورا كهذه ستحدث لانى أتيت بمحظية إلى منزلى؟ انه أمر معمول به –انه طبقا لقانون الناس والآلهة. فقد عاملتها باكرام؟ فلماذا إذن تحل بى هذه الأمور؟ هل هى أياشات التى تنتقم منى؟ هل هى التى لن تغفر؟ أنها بالتأكيد لم تستجب لالتماسى فان الشر مازال مستمرا.

– كلا كلا يا أمحتوب. لا يجب أن تقول هذا لقد مر وقت قصير جدا منذ أن وضع البلاص فى غرفة القرابين. إلا تعرف كم تستغرق أمور القانون والعدالة فى بلاط الحاكم –وتتأجل أكثر عندما ترفع قضية للوزير؟ ان العدالة هى العدالة فى هذا العالم وفى العالم الأخر

وهى تتحرك ببطء ولكن تسوى الأمور بالحق فى نهاية الأمر.

وهز أمحتوب رأسه بشك ومضت هينيت تقول:

– والى جانب هذا يجب أن تتذكر يا أمحتوب ان ايبى ليس ابن اياشات –انه ابن زوجتك ايبى. فلماذا إذا تشغل أياشات نفسها بشدة من أجله؟ ولكن الأمر يختلف فيما يخص ياموس –سيشفى ياموس لان آياشات ترعاه.

يجب أن أعترف يا هينيت ان كلامك فيه عزاء وسلوى، ويحتوى على الكثير من الحق، فانه صحيح ان ياموس يسترد قوته يوما بعد يوم. انه ابن مخلص وطيب –ولكن آه ويا حسرتاه على ايبى –وعلى رقته– وعلى جماله. وتأوه أمحتوب مرة أخرى.

وولولت هينيت متعاطفة معه: وحسرتاه. وحسرتاه.

– تلك الفتاة الملعونة وجمالها. يا ليت عيناى لم تقع عليها أبدا.

– نعم حقا يا سيدى العزيز أنها حقا من بنات أست وهى متعمقة فى السحر الأسود بدون شك. وسمعت طرقة عصا على الأرض ودخلت أسا البهو وهى تعرج متكئة.

– أليس لأحد فى هذا المنزل أى منطق؟ أليس لديكم شئ أفضل تفعلونه غير الابتهال باللعنات على فتاة مسكينة أعجبتك ومارست بعض النكاية والخبث النسائى، مدفوعة فى ذلك بالسلوك الغبى للزوجات الغبيات لأبنائك الأغبياء؟

– بعض النكاية والخبث –هل هذا هو ما تسمينه يا أسا؟ بعد أن مات اثنان من أبنائى الثلاثة، والثالث يحتضر. آه يا للهول. أمى تقول

لى هذا الكلام.

- يبدو أنه من الضرورى أن يقوله شخص ما بما انك لا تستطيع أن تتفهم الوقائع. أمح من ذهنك هذه الخرافة السخيفة بأن روح الفتاة الميتة هى التى تفعل الشر أن اليد التى أطبقت على عنق ابيى وأبقت رأسه فى البحيرة حتى غرق يد شخص حى، وكذلك اليد التى وضعت السم فى النبيذ الذى شربه ياموس وسوبك.. ان لك عدوا ولكنه فى هذا المنزل يا أمحتوب والدليل هو انه منذ أن أخذت بنصيحة حورى وأصبحت رينسنب هى التى تعد طعام ياموس أو تلاحظ عبدا وهو يعده -من هذا الوقت أخذ ياموس يسترد صحته وقوته يوما بعد يوم. حاول يا أمحتوب أن تكف عن الغفلة والنحيب ولطم وجهك- وهينيت تساعدك كثيرا فى كل هذا.

- آه يا أسئتم الظن بى.

- وكما أقول تساعدك على كل هذا هينيت -أما لأنها مغفلة هى الأخرى أو لسبب آخر.

- ليسامحك رع يا أسا لقسوتك على امرأة وحيدة مسكينة.

ولوحت أسا بعصاها بحركة مؤثرة ومهيبة.

- تماسك يا أمحتوب وفكر فى أن أياشات زوجتك المتوفاة التى كانت امرأة جميلة جدا وليست على فكرة مغفلة قد تستعمل نفوذها من أجلك فى العالم الأخر، ولكن ليس من المنتظر أن يطلب منها أن تفكر بدلا منك فى هذا العالم. يجب أن تعمل شيئا يا أمحتوب لأنه إن لم نفعل فستحدث وفيات أخرى.

- عدو حى؟ عدو فى منزلى هل تعتقدين هذا حقا يا أسا.

– بالطبع لأنه الأمر المنطقى الوحيد.

– لكن إذن نحن جميعا فى خطر.

– بالتأكيد فى خطر، ليس من السحر وأيدى الأرواح ولكن فى الطعام والشراب من أصابع حية تلقى السم فى الطعام والشراب، من إنسان يتسلل خلف فتى رجع متأخرا فى الليل من القرية ويمسك برأسه عنوة تحت مياه البحيرة.

وقال أمحتوب مفكرا. إن هذا يحتاج لقوة.

– ظاهريا يبدو هكذا ولكننى لست متأكدة. إن ايبى كان قد شرب الكثير من البيرة فى القرية وكان فى حالة نفسية ثائرة ومتباهيا، وربما رجع إلى البيت وهو يترنح، وبما انه لا يخاف من الشخص الذى قابله فانه بمحض إرادته أحنى رأسه فى البحيرة ليشرب، وفى هذه الحالة لا يحتاج الأمر لقوة كبيرة.

– ما الذى تحاولين قوله يا أسا. ان امرأة فعلت هذا. لكن هذا مستحيل. إن الأمر كله مستحيل -لا يمكن أن يوجد عدو فى هذا البيت وإلا كنا عرفنا هذا انى كنت سأعرف ذلك.

– هناك شر فى القلب لا يظهر على الوجه يا أمحتوب.

– أتعنى ان أحد الخدم أو عبدا. بل واحد منا.

– واحد منا. أو -أتعنين حورى أو كامانى. لكن حورى فرد من الأسرة وقد اثبت وفاءه واخلاصه وكامانى- انه حقيقة غريب ولكنه من دمنا وقد أثبت وفاءه بتفانيه فى خدمتى، وفوق هذا فقد جاء الى هذا الصباح فقط وحثنى على الموافقة على زواجه من رينسنب.

وظهر على أسا الاهتمام: آه.. أفعل ذلك؟ وماذا قلت؟

– ما الذى كان بوسعى أن أقوله؟ هل هذا وقت مناسب للكلام عن زواج؟ لقد قلت له ما معناه ذلك.

– وما كان قوله فى ذلك؟

– قال أنه فى رأيه أن هذا هو الوقت المناسب للكلام عن الزواج، وقال أن رينسنب ليست فى أمان فى هذا المنزل.

أسا: انى أتساءل.. انى أتساءل بشدة.. وهل هى كذلك؟ لقد ظننت أنها فى أمان، وكان هذا رأى حورى أيضا –لكن الآن..

ومضى أمحتوب يقول: هل يستطيع المرء أن تكون فى بيته أفراح بينما عنده مراسم جنازة فى نفس الوقت؟ أن هذا غير لائق. ان المقاطعة بأكملها ستتحدث فى هذا.

ليس هذا بالوقت الذى تراعى فيه التقاليد وبالأخص حين يبدو أن الحانوتية سيكونون عندنا بصفة مستديمة. إن كل هذا لابد نعمة لهم وهم بلا ريب يرحبون جيدا..

قال أمحتوب وقد تحول تفكيره لبرهة: لقد رفعوا أسعارهم بعشرة فى المائه. هذا ظلم. أنهم يقولون أن العمالة ارتفعت.

– كان يجب أن يخفضوا أجورهم لنا بسبب المعاملة بالجملة.

وابتسمت أسا بعبوس على فكاهتها.

ونظر إليها امحتوب بذعر: يا أمى العزيزة ليس مزاحا.

– ان الحياة كلها مزاح يا أمحتوب –والموت هو الذى يضحك أخيرا. الا تسمع هذا القول فى كل حفلة؟ اشرب وكل وكن مرحا لأنك ستموت

غدا؟ حسنا إن هذا صحيح عندنا هنا- والسؤال فقط هو من الذى سيموت غدا؟

- ان ما تقولينه فظيع -فظيع. ما الذى يمكن عمله؟

- لا تثق فى أحد. هذا هو أول وأهم شئ. ورددت وهى تضغط على الكلمات لتأكيدها.

لا تثق بأحد.

وبدأت هينيت تنتحب: لماذا تنظرين الى؟ انى متأكدة انه إذا وجد شخص جدير بالثقة فهو أنا، وقد أثبت هذا طوال كل هذه السنين. لا تستمع لها يا أمحتوب.

- اهدئى اهدئى يا عزيزتى هينيت -بالطبع أنى أثق فيك. أنى أعرف جيدا قلبك المخلص الحقيقى.

أسا: أنت لا تعرف شيئا ولا يعرف أحد منا شيئا. وهذا هو الخطر علينا.

وتأوهت هينيت قائلة: أنت اتهمتينى.

- انى لا يمكن أن أتهم فليس لدى الدليل أو المعرفة -كل ما لدى هو شك.

ونظر أمحتوب إليها بحدة: أنت تشكين -فى من؟

وقالت أسا ببطء: لقد شككت مرة -ومرة ثانية- ومرة ثالثة. سأكون أمينة. لقد شككت أولا فى ايبى. ولكن ايبى مات، ولذلك فهذا الشك كان خطأ. ثم شككت فى شخص آخر -ولكن فى نفس اليوم الذى مات فيه ايبى روادتنى فكرة ثالثة.

وتوقفت ثم تابعت حديثها: هل حورى وكامانى فى المنزل؟ أرسل فى

طلبهما هنا -نعم، وأرسل فى طلب رينسنب أيضا من المطبخ، وفى طلب كيت وياموس. إن لدى شيئا سأقوله ويجب أن يسمعه كل من فى المنزل.

نظرت أسا حولها إلى العائلة المجتمعة، وقابلت نظرة ياموس الجادة الوديعة، وابتسامة كامانى الدائمة، والاستفسار الممتزج بالخوف فى عينى رينسنب، ونظرة كيت الهادئة الخالية من الفضول، ونظرة حورى الغامضة الهادئة المليئة بالتمعن، ونظرة الخوف الممزوج بالعصبية فى وجه أمحتوب المختلج، والفضول الشره و -نظرة- السرور فى عينى هينيت.

وفكرت: إن وجودهم لا تنبئنى بشئ. انها تظهر فقط المشاعر الخارجية -لكن بالتأكيد إذا كنت على صواب فيجب أن تخون أحدهم أعصابه -وقالت بصوت عال: لدى شئ أقوله لكم جميعا- ولكن أولا يجب أن أوجه حديثى لهينيت وحدها- هنا أمامكم جميعا.

وتغير تعبير وجه هينيت -اختفى الشره والسرور. وبدا عليها الخوف وارتفع صوتها الرفيع معترضا. (أنت تشكين فى يا أسا. كنت أعرف ذلك انك ستقيمين ضدى قضية، ومن أين لى أنا المرأة الضعيفة المحدودة الذكاء ان أدافع عن نفسى؟ سأدان -بدون أن يسمع دفاعى).

وقالت أسا بتهكم: لا ليس بدون أن يسمع ورأت حورى يبتسم.

ومضت هينيت تقول وصوتها يزداد هستيرية:

- لم أفعل شيئا. أنا بريئة.. أمحتوب يا سيدى العزيز انقذنى.. وارتمت على الأرض واحتضنت ركبتيه، وبدا أمحتوب يتهته بحنق بينما كان يربت على رأس هينيت.

- حقا يا أسا أنى أعترض -هذا أمر شائن..

وقاطعته أسا: أنا لم أوجه اتهاما. أنا لا اتهم بدون دليل. ان كل ما أطلبه هو أن توضح هينيت هنا معنى بعض الأشياء التى قالتها.

- لم أقل أى شئ -لم أقل شيئا بتاتا..

أسا: بل قلت أنها كلمات سمعتها بأذنى -وأذناى حادتان جدا حتى لو كانت عيناى ضعيفتين. لقد قلت أنك تعرفين شيئا عن حورى. والآن ما الذى تعرفينه عن حورى؟

حورى: نعم يا هينيت ما الذى تعرفينه عنى؟ أسمعينا إياه.

جلست هينيت على اردافها ومسحت عينيها وبدت متحدية ومشاكسة وقالت: انى لا أعرف شيئا ما الذى يجب أن أعرفه؟

حورى: هذا ما ننتظر أن تخبرينا به.

وهزت هينيت كتفيها: كان مجرد كلام ولم أعن شيئا.

أسا: سأعيد عليك كلماتك. لقد قلت أنك تحتقريننا جميعا، ولكنك تعرفين الكثير عما يجرى فى المنزل -وأنك رأيت أكثر مما يراه الناس الأشد منك ذكاء. ثم قلت هذا- أنه عندما يقابلك حورى وهو ينظر إليك كأن لا وجود لك وكما لو أنه يرى شيئا خلفك -شيئا لا وجود له.

وقالت هينيت بعبوس: انه ينظر الى دائما هكذا كما لو كنت حشرة -شيئا لا يكاد يكون له وجود ولا أهمية له بتاتا.

قالت أسا ببطء: لقد ظلت هذه الجملة فى ذهنى -شيئا خلفى- شيئا لا وجود له هناك. وقالت هينيت: كان يجب أن ينظر الى، ثم مضت تتكلم عن ساتيبى -نعم عن ساتيبى- وكيف أن ساتيبى كانت

ذكية ولكن أين هى الآن؟..

ونظرت أسا حولها: هل يعنى هذا أى شئ لأحد منكم؟ فكروا فى ساتيبى -ساتيبى التى ماتت، وتذكروا أن المرء يجب أن ينظر الى الشخص- وليس إلى شئ غير موجود..

مرت برهة صمت ثم صرخت هينيت. كانت صرخة عالية رفيعة - صرخة رعب خالصة كما يبدو. وصاحت بكلمات غير مترابطة: أنا لم أفعل -انقذنى- سيدى -لا تدعها- لم أقل شيئا- لا شئ.

وانفجر غضب أمحتوب المكبوت وزأر: هذا لا مبرر له. لن أسمح بأن تتهم وتروع هذه المرأة المسكينة. ما الذى لديك ضدها؟ لا شئ بتاتا باعترافك.

وانضم إليه ياموس وقد تخلى عن خجله المعتاد.

- إن أبى محق. لو كان لديك اتهام محدد ضدها فاتهميها به.

قالت أسا ببطء، أنا لا أتهمها. وكانت تتكئ على عصاها، وبدت أنها انكمشت وكانت تتكلم ببطء وبثقل.

وتحول ياموس نحو هينيت بثقة وبلهجة آمرة.

- إن أسا لا تتهمك بالتسبب فى الشرور التى حدثت، ولكن لو كنت أفهمها حقيقة فهى تظن أن عندك معلومات لا تدلين بها. ولذلك يا هينيت فلو كان هناك ما تعرفينه عن حورى أو غيره فالآن حان وقت الكلام. هذا أمامنا جميعا. تكلمى. ما الذى تعرفينه؟

وهزت هينيت رأسها: لا شئ.

- تأكدى مما تقولينه يا هينيت -فالمعرفة خطر.

- أنا لا أعـرف شـيـئـا واقـسم على ذلك -أقـسم بالآلهـة الاينيـد التسعة وبالآلهة مات وبرع نفسه.

كانت هينيت ترتعـد ولم يكن فى نبـراتها رنة من بكائها المعـتاد بل كان يرن صادقا ومتهيبا.

وزفرت أسا بعمق وانحنت للأمام وتمتمت.

- ساعدونى فى العودة لغرفتى.

وهرع حـورى ورينسنب إليـهـا سـريعـا. وقـالت أسـا لست أنت يا رينسنب. انى سآخذ حورى.

واتكأت عليـه وهو يساعدهـا فى الخـروج من الغـرفـة والذهاب إلى جناحها الخاص، ورأت وهى تنظر إليه أن وجهه متجهم وتعس.

وتمتمت: حسنا يا حورى؟

- لقد تصرفت بدون حكمة يا أسا بدون أية حكمة.

- كان يجب أن أعرف.

- نعم -ولكنك خاطرت مخاطرة رهيبة. هكذا. أنت إذن فأنت تفكر مثلى؟

- لقد فكرت فى هذا منذ فترة، ولكن لا يوجد دليل ولا شبه خيال دليل، وحـتى الآن يا أسـا ليس لديك دليل.. إن كل هـذا تفكرين فـيـه فقط فى ذهنك.

- أنى أعرف وهذا يكفى.

- قد يكون فى هذا أكثر من الكفاية.

- ماذا تعنى؟ آه نعم بالطبع.

- احترسى يا أسا.. انك منذ الآن فى خطر.

- يجب أن تحاول أن تتصرف بسرعة.

- نعم. لكن ما الذى نستطيع فعله؟ يجب أن يكون هناك دليل.

- انى أعرف.

ولم يتمكنا من متابعة الحديث فان خادمة أسا الصغيرة جاءت تجرى نحو سيدتها، وتخلى حورى، عنها وعهد بها لرعاية الفتاة واستدار وكان وجهه جادا وفيه حيرة.

ومضت الخادمة الصغيرة تثرثر وتتهمك بضوضاء حول أسا، ولكن أسا لم تكد تشعر بها.. كانت تشعر بالشيخوخة وبالمرض وبالبرد.. ورأت مرة أخرى دائرة الوجوه المنتبهة وهى تتكلم.

نظرة واحدة فقط -ومضة من الخوف والفهم. هل من الجائز أنها مخطئة؟ هل هى واثقة مما رأته..؟ إن عينيها ضعيفتان وبعد كلا..

نعم أنها واثقة. انه التصلب المفاجئ للجسم كله، أكثر من مجرد تعبير كان تصلبا وقسوة وصرامة.. ان كلامها العائم كان له معنى لشخص واحد، ولشخص واحد فقط -وشعورها هذا الذى لا يخطئ، شعورها المميت الذى هو الحقيقة.



الشهر الثانى من الصيف اليوم الخامس عشر

الآن وقد عرض الأمر عليك فما قولك يا رينسنب؟

نقلت رينسنب نظراتها بشك من أبيها إلى ياموس، وشعرت بأن أفكارها متبلدة ومشتتة ثم قالت.

– لا أعرف وخرجت كلماتها بلهجة آلية من بين شفتيها.

ومضى أمحتوب يقول: من المحتمل أن يكون ثمة وقت كبير للمناقشات فى الظروف العادية. ان لى أقارب آخرين، وقد كان بوسعنا أن نختار منهم أفضل زوج مناسب لك، ولكن الحال على ما هو عليه فان الحياة مليئة بالشكوك -نعم إن الحياة محفوفة بالمخاطر.

وتعثر صوته ومضى يقول: إن الوضع الآن يا رينسنب هو أن الموت يواجهنا نحن الثلاثة، ياموس وأنت وأنا. من منا الذى سيهاجم بعد ذلك؟ لذلك يجب على أن أرتب أمورى. إذا حدث أى شئ لياموس فستحتاجين يا ابنتى الوحيدة إلى رجل يقف بجانبك، ويقاسمك ميراثك، ويؤدى الواجبات المتعلقة بضيعتى التى لا تستطيع أن تؤديها امرأة. إذ من يدرى متى أموت؟ لقد دبرت فى إذا كان ياموس لم يعد حيا، ما دامت هذه رغبة ياموس -هه يا ياموس؟

وأومأ ياموس: إن حورى كان دائما صديقا قريبا جدا لى وهو كفرد من أسرتى.

أمحتوب: تماما -تماما. ولكن الواقع هو أنه ليس من الأسرة. إن

كامانى فرد من الأسرة. ولذلك فنظرا لكل الاعتبارات فهو أفضل زوج أمامنا فى الوقت الحاضر لرينسنب: فما قولك يا رينسنب؟

ورددت رينسنب مرة أخرى: لا أعرف وكانت تشعر بإعياء شديد.

- أنه وسيم ولطيف ألا توافقين على ذلك؟

- آه نعم.

وسأل ياموس برفق: لكنك لا ترغبين فى الزواج منه.

والقت رينسنب نظرة شاكرة على ياموس. أنه كان مصمما على ألا ترغم أو تدفع إلى عمل شئ لا ترغبه.

ومضت تقول فى سرعة: فى الحقيقة لا أعرف ما الذى أريد أن أفعله. ان هذا غباء كما أعرف ولكنى غبية اليوم. ذلك.. ذلك من أثر الضغط الذى نعيش فيه.

قال أمحتوب: ستشعرين بالحماية بوجود كامانى بجانبك.

وسأل ياموس أمحتوب: هل فكرت فى حورى كزوج محتمل لرينسنب؟

- حسنا.. نعم هذا احتمال..

- ان زوجته ماتت عندما كان شابا صغيرا ورينسنب تعرفه جيدا وتميل إليه.

وجلست رينسنب كأنها فى حلم بينما كان الرجلان يتكلمان.

ان ما يناقشانه هو زواجها، وياموس يحاول أن يساعدها فى اختيار ما تريده هى، ولكنها شعرت أنها مثل إحدى دمى تيتى الخشبية بدون حياة.

وبعد قليل قالت بجفاء وهى تقاطع حديثهما بدون أن تسمع حتى

ما يقولانه: أنى سأتزوج كامانى ما دمتم تعتقدون أن ذلك أمر طيب.

وأرسل أمحتوب صيحة رضاء، وهرع خارجا من البهو، وجاء ياموس لشقيقته وربت على كتفها.

– هل تريدين هذا الزواج يا رينسنب؟ هل ستكونين سعيدة؟

– ولماذا لا أكون سعيدة؟ إن كامانى وسيم ومرح وطيب.

– أعرف هذا. وكان الشك لا يزال باديا على ياموس وعدم الرضا. ولكن سعادتك مهمة يا رينسنب ولا يجب أن تدعى ابى يدفعك الى شئ لا ترغبين فيه. أنت تعرفين طباعه.

– آه نعم أنه عندما يتشبث بفكرة يجب أن نتقبلها جميعا.

وتكلم ياموس بحزم: ليس هذا ضروريا.. انى لن اتزحزح عن موقفى فى هذا الموضوع إلا إذا كانت هذه رغبتك.

– آه ياموس أنك لا تقف أبدا ضد أبينا.

– ولكنى سأفعل ذلك فى هذا الأمر. أنه لا يستطيع أن يجبرنى على موافقته ولن أفعل ذلك.

ونظرت رينسنب اليه. كم يبدو وجهه المتردد مصمما.

وقالت بامتنان: أنت طيب معى يا ياموس ولكنى فى الواقع لا أذعن لضغط. ان الحياة القديمة هنا –الحياة التى كنت مسرورة انى رجعت إليها– ولت، وسنبدأ وكامانى حياة جديدة معا وسنعيش كما يجب أن يعيش زوجان طيبان.

– اذا كنت واثقة.

- انى واثقة. وابتسمت له رينسنب بود وخرجت من البهو الى الشرفة ومن هناك عبرت الفناء، وكان كامانى يلعب مع تيتى على حافة البحيرة، واقتربت منهما رينسنب بدون أن تبدى أى صوت، راقبتهما بينما كانا لا يزالان لا يشعران بقربها. وكان يبدو على كامانى الذى كان مرحا كعادته أنه يستمتع باللعب مثل الطفلة تماما. ورق له قلب رينسنب وفكرت: أنه سيكون والدا طيبا لتيتى.

ثم أدار كامانى رأسه ورآها ووقف وهو يضحك وقال: لقد جعلنا عروسة تيتى كاهن قبور، وهو يقدم القرابين ويقيم الشعائر فى المقبرة.

وقالت تيتى بجدية أن أسمه مير يبتاح وله ولدان وكاتب مثل حورى: وضحك كامانى وقال:

- أن تيتى ذكية جدا، وهى قوية وجميلة جدا.

وتنقلت عيناه بين رينسنب والطفلة، وقرأت فيهما رينسنب الفكرة التى تدور فى رأسه -الأطفال الذين ستحملهم له فى يوم ما.

وجعلتها نظرته تشعر برجفة هزت مشاعرها -ولكن فى نفس الوقت شعرت بأسف مفاجئ عنيف. أنها كانت تود أن ترى فى هذه اللحظة صورتها فقط فى عينيه. وفكرت: لماذا لا تكون رينسنب هى التى يراها فقط؟

ثم زال الشعور وابتسمت له برفق وقالت:

- لقد كلمنى والدى.

- وهل توافقين؟

وترددت برهة قبل أن تجاوب: انى أوافق.

لقد قالت الكلمة الفاصلة وهذه هى النهاية. إن كل شئ قد اتفق عليه وودت لو أنها لا تشعر بهذا التعب والإجهاد؟

- رينسنب؟

- نعم يا كامانى.

- هل تبحرين معى فى النهر فى قارب نزهة؟ إن هذا شئ كنت أريد دائما أن أفعله معك.

من الغريب أن يقول هذا. فمن أول لحظة رأته فيها فكرت فى شراع مريع والنهر ووجه فاى الضحك. والآن لقد نسيت وجه فاى، وفى مكانه بجانب الشراع والنهر سيجلس كامانى ويضحك فى عينيها.

إن هذا هو الموت. إن هذا هو ما يفعله بك الموت. انك تقول: كنت أشعر بذلك.

ولكنه مجرد قول فانك الآن لا تشعر بشئ. إن الأموات ميتون، وليس هناك شئ يسمى شبهة. ومع ذلك فهناك تيتى، وهناك الحياة، وتجدد الحياة، كما تزيح مياه الفيضان المياه القديمة وتعد التربة للمحاصيل الجديدة.

ما الذى قالته كيت: إن نساء المنزل يجب أن يتحدن؟

ومن تكون غير امرأة من المنزل -سواء كانت رينسنب أو امرأة أخرى فما أهمية ذلك؟..

ثم سمعت صوت كامانى -ملحا ومضطربا قليلا.

- ما الذى تفكرين فيه يا رينسنب؟ أنك تبعدين جدا فى بعض الأحيان.. هل ستأتين معى إلى النهر.

– نعم يا كامانى سأتى معك.

– سنأخذ تيتى أيضا.

* * *

فكرت رينسنب: أنه مثل حلم -المركب والشراع وكامانى، وهى نفسها وتيتى. لقد نجوا من الموت والخوف من الموت- هذه بداية حياة جديدة.

وتكلم كامانى وأجابت كمن فى غيبوبة وفكرت: إن هذه حياتى ولا مفر منها. ثم تابعت تفكيرها بحيرة: ولكن لماذا أقول لنفسى الفرار وما هو المكان الذى أستطيع أن أطير إليه.

ومرة أخرى ارتفعت أمام عينيها الحجرة الصغيرة الصخرية بجوار المقبرة، وهى جالسة هناك وقد رفعت إحدى ركبتيها وأسندت فكها على يدها.

وفكرت: لكن هذا كان شيئا خارج الحياة، وهذه هى الحياة. ولا يوجد منها مفر حتى الموت. وأرسى كامانى القارب ونزلت الى الشاطئ ورفع تيتى من المركب، وتعلقت الطفلة به، وقطعت يدها التى كانت حوله عنقه خيط الحجاب الذى يلبسه، ووقع الحجاب عند قدمى رينسنب والتقطته وكان تمثالا لانكة من الذهب والفضة. وأطلقت صيحة أسف.

– لقد انثنى. احذر قد ينكسر. قالت هذا بينما كان يتناوله منها، ولكنه ثناه أكثر بيديه القويتين وكسره متعمدا الى نصفين.

– ماذا فعلت؟

– خذى نصفا وسآخذ النصف الأخر. ستكون علامة بيننا –إننا نصفان من وحدة واحدة.

ومد يده بها إليها وبينما كانت تمد يدها لتأخذها –مر شئ بذهنها وتنفست نفسا طويلا.

– ماذا بك يا رينسنب؟

– نوفريت.

– ماذا تعنين –بنوفريت؟

وتكلمت رينسنب بثقة وسرعة: الحجاب المكسور فى علبة مجوهرات نوفريت. أنت الذى أعطيته لها.. أنت ونوفريت.. أنى أرى كل شئ الآن. أرى لماذا كانت تعسة. وأعرف من الذى وضع علبة الجواهر فى حجرتى. أنى أعرف كل شئ.. لا تكذب على يا كامانى. أنى أقول لك انى أعرف.

ولم يعترض كامانى، ووقف ينظر إليها بثبات، ولم ترتبك نظرته، وعندما تكلم كان صوته جادا، ولم تكن هناك ابتسامة على وجهه.

– لن أكذب عليك يا رينسنب.

وانتظر برهة وهو عابس قليلا كما لو كان يحاول أن يرتب أفكاره.

– انى من ناحية سعيد أنك عرفت يا رينسنب –ولو أن الأمر ليس كما تظنين تماما.

– أنت أعطيت لها الحجاب المكسور –كما كنت ستعطيه لى– كعلامة على أنكما كنتما نصفين لوحدة واحدة. هذه هى كلماتك.

– أنت غاضبة يا رينسنب. أنى سعيد لان هذا يبين أنك تحبيننى

ولكن مع ذلك يجب أن أجعلك تفهمين. أنا لم أعط الحجاب لنوفريت - بل هى التى أعطته لى... وتوقف ثم تابع حديثه: ربما لا تصدقيننى ولكنها الحقيقة.. انى أقسم أنها الحقيقة.

وقالت رينسنب ببطء: لن أقول انى لا أصدقك.. فقد تكون الحقيقة.

ولاح أمام عينيها وجه نوفريت الأسمر التعس.

ومضى كامانى يقول بحماس مثل فتى: حاولى أن تفهمى يا رينسنب. ان نوفريت كانت جميلة جدا وكنت فخورا وسعيدا. من كان سيكون غير ذلك؟ لكنى لم أحبها قط حقيقة.

وشعرت رينسنب بوخز غريب من الشفقة.. لا.. إن كامانى لم يحب نوفريت -ولكن نوفريت كانت تحب كامانى، وقد أحبته بمرارة ويأس. أنها كانت قد تكلمت فى نفس هذه البقعة مع نوفريت فى ذلك الصباح عارضة عليها صداقتها ومودتها، وهى تتذكر جيدا موجة الكره والتعاسة التى انبثقت من الفتاة فى ذلك الحين.

لقد أصبح سبب ذلك واضحا تماما الان. مسكينة نوفريت - محظية رجل كبير السن- ومتيمة فى حب شاب مرح وسيم مهمل، كان يحبها قليلا أو لا يحبها تماما.

وكان كامانى يقول بحماس: ألا تفهمين يا رينسنب. انى بمجرد أن جئت الى هنا ورأيتك أحببتك. ومنذ تلك اللحظة لم أفكر فى أى شئ آخر؟ إن نوفريت رأت هذا بوضوح.

وفكرت رينسنب، ان نوفريت رأت هذا، وقد كرهتها منذ تلك اللحظة -ولم تشعر رينسنب بميل نحوها.

- لم أكن أرغب حتى فى أن أكتب الرسالة لوالدك. لم أكن أريد أن تكون لى بعد ذلك صلة بمشاريع نوفريت. لكن كان الأمر صعبا -يجب أن تحاولى إدراك أنه كان صعبا.

وتكلمت رينسنب بصبر نافذ: نعم.. نعم.. ان كل هذا لا يهم إن الذى يهم فقط هو نوفريت، فلقد كانت تعسة جدا، وكانت كما أعتقد تحبك كثيرا..

- حسنا.. انى لم أكن أحبها.

- أنت قاس..

- كلا انى رجل فحسب، ولو اختارت امرأة أن تتعس نفسها من أجلى، فان هذا يضايقنى. هذه هى الحقيقة ببساطة -لم أكن أريد نوفريت. كنت أريدك أنت. آه يا رينسنب أنه لا يمكن أن تغضبى منى لهذا السبب.

وابتسمت على الرغم منها.

- لا تجعلى نوفريت التى ماتت تثير المتاعب بيننا نحن الأحياء. انى أحبك يا رينسنب وأنت تحبيننى، وهذا كل ما يهم.

وفكرت رينسنب: نعم هذا كل ما يهم.

ونظرت إلى كامانى الذى كان يقف ورأسه تميل قليلا على جانب، وعلى وجهه الواثق المرح توسل. كان يبدو صغيرا جدا.

وفكرت رينسنب، أنه على حق. إن نوفريت ميتة ونحن أحياء. أنى أفهم الآن كرهها لى -وأنا آسفة لأنها تألمت- لكن لم تكن تلك غلطتى. ولم تكن غلطة كامانى أنه أحبنى ولم يحبها.

إن هذه الأمور تقع.

وجاءت تيتى التى كانت تلعب على شاطئ النهر وشدت يد والدتها.

- هل تذهب إلى البيت الآن؟ أمى -هل نعود إلى البيت؟

وتنهدت رينسنب بعمق وقالت:

- نعم سنذهب إلى البيت.

ومشوا نحو المنزل، وتيتى تجرى أمامهما بقليل وتنهد كامانى راضيا.

- أنت كريمة -كما أنك جميلة يا رينسنب.. إن كل شئ بيننا كما كان، أليس كذلك؟

- نعم يا كامانى. كل شئ كما كان..

وخفض صوته: هناك على النهر -كنت سعيدا جدا، فهل كنت أنت أيضا سعيدة يا رينسنب؟

- نعم كنت سعيدة.

- كنت تبدين سعيدة ولكن كان يبدو كما لو كنت تفكرين فى شئ آخر بعيد جدا. أنى أريد أن تفكرى فى أنا.

- كنت أفكر فيك.

وأخذ يدها ولم تسحبها وغنى برفق جدا وبصوت منخفض.

- إن زوجتى مثل شجرة اللوز..

وشعرت بيدها ترتعش فى يده، وأحس بنفسها السريع وشعر أخيرا بالرضا..

طلبت رينسنب هينيت فى غرفتها.

وجاءت هينيت مسرعة، وتوقفت فجأة وهى ترى رينسنب واقفة بجوار علبة الجواهر المفتوحة والحجاب المكسور فى يدها.

وكان وجه رينسنب غاضبا وحازما.

– أنت التى وضعت علبة الجواهر هذه فى غرفتى، أليس كذلك يا هينيت؟ كنت تريدين أن أجد هذا الحجاب. كنت تريدين أن أعرف فى يوم من الأيام.

– أن تعرفى من معه النصف الأخر؟ أنى أرى أنك عرفت. حسنا أنه من الأفضل دائما أن يعرف المرء، أليس كذلك يا رينسنب؟

وضحكت هينيت بغل وكيد.

قالت رينسنب وغضبها مازال حاميا: أنك تريدين أن تؤلمينى بهذه المعرفة. أنك تحبين إيلام الناس أليس كذلك يا هينيت؟

أنك لا تقولين أبدا شيئا ليس ملتويا يا هينيت، أنت تنتظرين وتنتظرين –حتى يجئ أفضل وقت أنت تكرهيننا جميعا أليس كذلك؟ أنت كنت تكرهيننا دائما.

– ما هذه الأشياء التى تقولينها يا رينسنب أنى متأكدة أنك لا تعنيها.

لم يعد هناك نحيب فى صوت هينيت بل كانت هناك نبرة انتصار خفى.

– كنت تريدين إثارة المتاعب بينى وبين كامانى. حسنا ليست هناك متاعب.

– إن هذا بالتأكيد جميل جدا وغاية التسامح منك يا رينسنب أنت مختلفة تماما عن نوفريت، أليس كذلك؟

– دعينا من الكلام عن نوفريت.

– لا، ربما من الأفضل أن لا نتكلم عنها. أن كامانى سعيد الحظ مثلما هو وسيم أليس كذلك؟

– أعنى أنه كان محظوظا لان نوفريت ماتت فى ذلك الحين. فأنها كان فى وسعها أن تثير الكثير من المتاعب له –مع أبيك. زواجك منه ما كان ليروقها لا لم يكن ليعجبها أبدا وفى الواقع أنى أعتقد أنها كانت ستجد طريقة ما لتوقفه.. انى متأكدة من ذلك.

ونظرت إليها رينسنب بنفور شديد.

أن هناك سما دائما فى لسانك يا هينيت. انه يلدغ مثل الثعبان، ولكن ليس فى وسعك اتعاسى.

– حسنا هذا رائع أليس كذلك؟ انك بلا ريب مدلهة فى الحب. آه، انه لشاب وسيم –وهو يعرف كيف يغنى أغنية حب جميلة لا خوف عليه سيحصل دائما على ما يريده. انى معجبة به حقيقة، فهو يبدو دائما غير متكلف وبدون مواربة.

– ما الذى تحاولين قوله يا هينيت؟

– انى أقول لك فقط انى معجبة بكامانى، وانى متأكدة تماما أنه ليس متكلفا وبدون مواربة أن الأمر ليس تمثيلا بل أن الامر برمته مثل إحدى تلك القصص التى يرويها الرواة فى الأسواق.

الكاتب الفقير يتزوج ابنة السيد، ويقاسمها ميراثها، ويعيشان فى سعادة إلى الأبد رائع.

الحظ الحسن الذى يتمتع به الشاب الوسيم دائما.

– انى محقة.. أنت تكرهيننا.

– كيف تستطيعين أن تقولى هذا يا رينسنب بينما أنت تعرفين كم شقيت مثل جارية من أجلكم جميعا، منذ أن ماتت والدتك؟

ولكن كان ما يزال هناك الانتصار الشرير فى صوت هينيت.

ونظرت رينسنب مرة أخرى إلى علبة الجواهر، وفجأة تأكدت من شئ آخر.

– أنك أنت التى وضعت عقد الاسد الذهبى فى هذه العلبة، لا تنكرى يا هينيت انى أقول لك أنى أعرف. واختفى انتصار هينيت الخبيث وبدت فجأة خائفة.

– لم أستطع أن أمنع نفسى يا رينسنب كُنت خائفة.

– ماذا تعنين بخائفة؟

واقتربت هينيت خطوة وخفضت صوتها.

– أنها هى التى أعطتنى أياه –اعنى نوفريت. قبل أن تموت بقليل. لقد أعطتنى هدية أو اثنتين فأنها كانت كريمة كما تعرفين آه. نعم أنها كانت كريمة. أعتقد أنها كانت تدفع لك بسخاء.

– هذه ليست طريقة معبرة لطيفة يا رينسنب ولكنى سأقص عليك كل شئ. لقد أعطتنى العقد ذا الأسد الذهبى ومشبك الاماتيست وشيئا أو شيئين آخرين. ثم عندما تقدم هذا الصبى بروايته عن رؤيته امرأة تلبس هذا العقد –حسنا لقد خفت. فكرت أنهم ربما ظنوا اننى أنا التى سممت نبيذ ياموس. ولذلك وضعت العقد فى العلبة.

– هل هذه هى الحقيقة يا هينيت؟ هل تقولين الحق أبدا؟

- أنى أقسم أنها الحقيقة يا رينسنب كنت خائفة..

ونظرت رينسنب إليها بفضول: انت ترتعدين يا هينيت أنك تبدين كما لو كنت خائفة الآن.

- نعم أنى خائفة.. ولدى سبب لذلك.

- لماذا؟ قولى لى.

ولعقت هينيت شفتيها النحيفتين ونظرت حولها وبدت عيناها كعينى حيوان طريد.

وهزت هينيت رأسها وقالت فى صوت ليس متأكدا.

- ليس ثمة شئ يقال.

- أنك تعرفين الكثير يا هينيت، وكان هذا دأبك دائما -لقد استمتعت بذلك ولكن الآن الأمر خطير، هذا هو ما يخيفك، أليس كذلك؟

وهزت هينيت رأسها مرة أخرى ثم ضحكت بمكر.

- انتظرى يا رينسنب سيكون السوط فى يدى فى هذا المنزل فى يوم ما -وسأضرب به، انتظرى وسترين.

وشدت رينسنب قامتها.

- انت لن تؤذيننى يا هينيت. لن تدعك والدتى تؤذيننى. وتغير وجه هينيت -وتطايرت النيران من عينيها وقالت: كنت أكره والدتك كنت أكرهها دائما.. وأنت التى لك عيناها. وصوتها -وجمالها وعجرفتها- أنى أكرهك أنت يا رينسنب. وضحكت رينسنب: وأخيرا -أجبرتك أن تقولى هذا.

تعب وحيرة

دخلت أسا العجوز غرفتها وهى تعرج بإعياء. كانت تشعر بإعياء شديد وبحيرة، وأدركت أن السنين أخيرا بدأت تفرض عليها ضريبتها، وكانت حتى هذا الوقت تعترف بالتعب الجسمانى ولكنها كانت لا تشعر بالتعب الذهنى. ولكنها الان كانت مجبرة على الاعتراف بأن الجهد الذى تبذله لكى تظل متيقظة ذهنيا كان يؤثر على قوتها البدنية.

ولو كانت تعرف الآن، كما تعتقد، الشخص الذى ينبعث منه الخطر -فان هذه المعرفة لا تسمح بأى استرخاء ذهنى، بل على العكس أنها يجب أن تحترس أكثر من أى وقت مضى، بما أنها لفتت إلى نفسها الأنظار بتعمد. الدليل، الدليل -يجب أن تحصل على الدليل ولكن كيف؟

إن سنها كما أدركت تخونها هنا -أنها متعبة أكثر من اللازم ولن تستطيع التصرف بسرعة- لكى تقوم بالمجهود الذهنى الخلاق. إن كل ما فى وسعها هو الدفاع -إن تظل متيقظة مترقبة ومحترسة. لأن القاتل- وليس لديها أى وهم من هذه الناحية- سيكون على أتم استعداد ليقتل مرة ثانية.

حسنا، انه ليس فى نيتها أن تكون الضحية التالية. أنها تشعر أكيدا أن السم هو الواسطة التى ستستخدم.. إن العنف ليس معقولا لأنها لا تكون وحدها أبدا، وإنما هى دائما محاطة بالخدم. لذلك سيكون

السم.. حسنا أن بوسعها التصدى لذلك: ستطهو رينسنب طعامها وتحضره لها. ولقد جلبت دلوا من النبيذ إلى غرفتها، وهى تنتظر أربعا وعشرين ساعة بعد أن يذوقه عبد قبل أن تشرب منه لتتأكد من أنه لن يترتب عنه أى نتائج سيئة. وكانت تجعل رينسنب تشاركها فى طعامها وشرابها -ولو أنها كانت لا تخاف على رينسنب بعد وربما لن يكون هناك خوف على رينسنب- أبدا ولكن لا يستطيع المرء أن يتأكد من ذلك.

وكانت تجلس الى حين، بدون حركة تدفع عقلها المتعب إلى ابتكار طرق تثبت بها الحقيقة. أو كانت تراقب خادمتها الصغيرة وهى تنشى وتثنى أثوابها اللينون أو وهى تعيد إصلاح عقودها وسواراتها.

كانت تشعر فى ذلك المساء باعياء شديد، وكانت قد لحقت بامحتوب بناء على رغبته لكى تناقش موضوع زواج رينسنب قبل أن يتكلم هو مع ابنته.

كان أمحتوب قد انكمش متبرما، وقد أصبح خيالا أكثر مما كان، وكان قد فقد ثقته بنفسه وتفاخره، وأصبح الآن يرتكن على إرادة والدته الحديدية وعلى تصميمها.

أما عن أسا فانها كانت خائفة -خائفة جدا- من أن تقول شيئا خطأ. أن أرواحا يمكن أن تفقد نتيجة كلمة غير حكيمة.

وأخيرا وافقت على الزواج كفكرة حكيمة، وقالت ان الوقت لا يسمح للبحث بعيدا عن زوج من بين أفراد الأسرة المهمين وان المهم - بعد كل هذا سلالة المرأة- وان زوج رينسنب سيكون فقط المدير الذى سيدير الميراث الذى سيؤول لرينسنب وأولادها.

ولذلك أصبحت المسألة هى هل هو حورى -رجل أمين وصديق قديم أثبت وفاءه وابن لصاحب أرض صغيره تجاور أرضه -أرضهم- أو كامانى الشاب لقرابته.

ووزنت أسا الأمر بعناية قبل أن تتكلم، فان كلمة خاطئة الآن قد تترتب عنها كارثة.

ثم أجابت وهى تزكى أجابتها بشخصيتها التى لا تقهر، وقالت ان كامانى بدون ريب هو الزوج المناسب لرينسنب وان إتمام هذا الزواج والاحتفالات الضرورية التى تصاحب ذلك -سوف تختصر كثيرا نظرا للأحداث الحزينة الأخيرة- وممكن أن تتم فى بحر أسبوع وهذا إذا كانت رينسنب موافقة. ان كامانى شاب جيد -وهما سيرزقان بأطفال أقوياء، وفوق كل ذلك فهما متحابان وفكرت أسا: حسنا، لقد رميت زهرى، وسنلعب اللعبة الآن. لقد خرج الأمر من يدها، وقد فعلت ما تعتقد أنه الصواب وان كان محفوفا بالمخاطر -حسنا أن أسا تحب اللعب بالشطرنج تماما مثلما كان ابيى يحبه.. إن الحياة ليست مسألة أمان، فعلى المرء أن يخاطر ليكسب.

وعندما رجعت إلى غرفتها نظرت حولها بشك، وفحصت على الأخص دلوا من النبيذ الكبير، وكان مغطى ومقفلا ومبرشما كما تركته، وكانت تبرشمه دائما عندما تترك الغرفة، وكان المفتاح معلقا بأمان حول عنقها.

نعم -انها لن تجازف بأى شكل، وضحكت أسا بخبث ورضاء -انه ليس من السهل قتل امرأة عجوز فان النساء العجائز يعرفن قيمة الحياة -ويعرفن أغلب الحيل أيضا.

ونادت على خادمتها الصغيرة.

- أين حورى؟ أتعرفين؟

وأجابت الفتاة بأنها تظن أن حورى فى الغرفة الحجرية بجوار المقبرة وأومأت أسا برضاء.

- اذهبى إليه هناك وقولى له أن يأتى إلى غدا صباحا عندما يكون أمحتوب ويامُوس فى المزرعة ومعهما كامانى وعندما تكون كيت بجانب البحيرة مع أولادها. هل فهمت هذا؟ ردديه.

ورددته الخادمة الصغيرة بالضبط ثم أرسلتها أسا.

نعم أن خططها جيدة.. إن الاستشارة مع حورى ستكون على انفراد تماما، بما أنها سترسل هينيت فى مهمة إلى كوخ النسيج. وستحذر حورى معا سيحدث، وسيكون بوسعهما أن يتكلما بحرية معا.

وتنهدت أسا بارتياح عندما رجعت الفتاة السوداء ومعها رسالة بان حورى سيفعل كما تشاء. والآن وقد تم إعداد كل شئ شعرت بالإعياء يغمرها مثل الفيضان، وطلبت من الفتاة أن تأتى بوعاء الكريم ذى الرائحة الذكية وان تدلكها. وشعرت براحة من أثر التدليك وخفف المرهم التعب الذى يسرى فى عظامها.

وتمددت أخيرا ورأسها على المخدة الخشبية ونامت وقد سكنت مخاوفها إلى حين.

واستيقظت بعد هذا بوقت طويل وهى تشعر ببرودة غريبة.. إن قدميها ويديها متخدرة وبدون حياة.. انه مثل مخدر يزحف على الجسم كله. أنها تشعر به وهو يشل عقلها وإرادتها ويبطئ ضربات

قلبها.

وفكرت هذا هو الموت.

موت غريب بدون إنذار.

وفكرت هكذا يموت العجائز..

ثم جاءها تأكيد أعمق أن هذا ليس موتا طبيعيا. ان هذا هو فعل العدو وهو يضرب فى الظلام سم..

ولكن كيف؟ ومتى؟ إن كل ما أكلته وشربته -جرب ولم تكن هناك ثغرة خطأ. إذن كيف؟ ومتى؟

وحاولت أسا بآخر قوى ذكائها الضعيفة أن تحل اللغز.. يجب أن تعرف -قبل أن تموت. وشعرت بالضغط يزداد على قلبها- وبالبرودة القاتلة وبتنفسها البطئ المؤلم.

كيف فعل العدو هذا؟

وفجأة تذكرت شيئا... من الماضى.. ذكرى عابرة، وساعدها ذلك على التفهم. جلد خروف محلوق.. قطعة من الشحم لها رائحة. اختبار يجريه أبوها -ليبرهن أن بعض السموم ممكن أن يمتصها الجلد. شحم أغنام ودهون من شحم. هذه هى الطريقة التى وصل بها إليها العدو.. وعاء المراهم ذو الرائحة الذكية الذى لا غنى للمرأة المصرية عنه.. إن السم كان فى هذا.

وغدا -حورى- أنه لن يعرف- أنها لا تستطيع أن تقول له.. لقد فات الأوان.

وفى الصباح هرعت جارية صغيرة خائفة تجرى فى المنزل وهى

تصيح أن سيدتها ماتت وهى نائمة.

* * *

وقف أمحتوب ينظر إلى جسد أسا وكان وجهه حزينا، ولكن لم يكن فيه شك.

لقد قال إن أمه ماتت ميتة طبيعية لكبر سنها وقال: كانت عجوزا - نعم كانت عجوزا.

وقد حان بدون ريب الوقت لكى تذهب لازوريس، وقد عجلت متاعبنا وأحزاننا بوفاتها. ولكن يبدو أن الموت قد جاءها بهدوء، وحمدا لرع.. إن هذه وفاة لم يكن لرجل أو لروح شريرة يد فيها. لم يكن هناك أى عنف انظروا كم تبدو هادئة.

وبكت رينسنب وواساها ياموس، ومضت هينيت وهى تتنهد وتهز رأسها وتقول كيف أن موت أسا خسارة، كم كانت هى هينيت متفانية لها. وكف كامانى عن غنائه، واظهر وجها حزينا كما يجب. وجاء حورى ووقف ينظر إلى المرأة الميتة. كانت هذه هى الساعة التى استدعته فيها، وتساءل عما كان لديها بالضبط لتقوله له.

لقد كان لديها شئ محدد تود أن تخبره به، والآن لن يعرف أبدا.

ولكنه فكر أنه ربما يستطيع أن يخمن.



الشهر الثانى من الصيف، اليوم الخامس عشر

– حورى هل قتلت؟

– أعتقد ذلك يا رينسنب.

– كيف؟ لا أعرف.

كان فى صوت الفتاة حيرة وغم، ولكنها كانت حريصة. كانت دائما يقظة، وكانت تتخذ جميع الاحتياطات. إن كل شئ تأكله أو تشربه كان قد ثبت خلوه من أى شئ ضار.

– انى أعرف يا رينسنب ولكن مع كل فأنا أعتقد أنها قتلت.

– وكانت أحكمنا جميعا، أنها أذكانا. كانت متأكدة أنها لن يصيبها أى شر. حورى انه سحر بلا ريب. سحر شرير من روح شريرة.

– أنت تعتقدين هذا لأنه أسهل شئ ممكن تصديقه. هكذا الناس، ولكن أسا نفسها ما كانت لتصدق هذا. لقد عرفت قبل أن تموت أنه فعل إنسان حى.

– وهل كانت تعرف من يكون؟ نعم. لقد أظهرت شكها بجلاء، وأصبحت خطرا على العدو وواقعة موتها تثبت أن شكها كان فى محله.

– وهل قالت لك، من القاتل؟

– كلا لم تقل لى. أنها لم تشر إلى أى اسم أبدا. ومع ذلك فإن فكرتها وفكرتى كانتا وأنا واثق من هذا نفس الفكرة.

– إذن يجب أن تقول لى يا حورى حتى أحترس.

– كلا يا رينسنب، ان سلامتك تهمنى كثيرا ولن أفعل ذلك.

– هل أنا فى أمان؟

وتغير وجه حورى وقال: كلا يا رينسنب، أنك لست آمنة. لا يوجد إنسان آمن، ولكنك أكثر أمنا مما لو كنت متأكدة من الحقيقة، لانك عندئذ ستصبحين خطرا مؤكدا، وتجب إزالتك فى الحال بغض النظر عن المخاطرة.

– وماذا عنك يا حورى؟ أنت تعرف.

وصحح لها القول: أنى أعتقد أنى أعرف، ولكنى لم أقل شيئا ولم أظهر شيئا. إن أسا كانت غير حكيمة فقد تكلمت علنا وأظهرت الاتجاه الذى يسير فيه تفكيرها. ما كان يجب أن تفعل ذلك. وقلت لها هذا فيما بعد.

– لكن أنت يا حورى.. إذا حدث لك أى شئ..

توقفت. كانت مدركة أن عينى حورى تنظران فى عينيها بجد وعزم ينفذان إلى أعماق عقلها وقلبها.

وأخذ يديها بين يديه وأمسك بهما برفق.

– لا تخافى على يا رينسنب الصغيرة.. إن كل شئ سيكون على ما يرام.

وفكرت: نعم ان كل شئ سيكون على ما يرام إذا كان حورى يقول كذلك. انه لشعور غريب بالرضا والسلام وسعادة كلها غناء وصفاء، فى مثل جمال وبعد المناظر البعيدة التى يراها المرء من المقبرة، هناك لا يوجد ضجيج المطالب الإنسانية والقيود.

وفجأة وبشئ من الفظاظة سمعت نفسها تقول: أنى سأتزوج كامانى.

وأطلق حورى يديها بهدوء وبطريقة طبيعية جدا.

- أنى أعرف يا رينسنب.

- أنهم -إن أبى- أنهم يعتقدون أنه أفضل شئ.

- أنى أعرف.

وابتعد وبدا كما لو أن أسوار الغناء تقترب، وان الأصوات من داخل المنزل ومن الحقول فى الخارج قد علت وأصبحت أكثر ضجيجا.

وكانت فى ذهن رينسنب فكرة واحدة فقط: ان حورى سيذهب..

ونادته بخجل: حورى أين أنت ذاهب؟

- خارجا فى الحقول مع ياموس. إن هناك عملا كثيرا يجب القيام به وتسجيله. إن الحصاد قد انتهى تقريبا.

- وكامانى؟

- كامانى سيأتى معنا.

وصاحت رينسنب: أنى خائفة هنا. نعم حتى فى ضوء النهار. ورغم وجود كل الخدم حولنا ووجود رع وهو يسرى فى السماوات فانى خائفة.

ورجع سريعا: لا تخافى يا رينسنب. أنى أقسم لك أن لا حاجة بك للخوف اليوم.

- ولكن بعد اليوم؟

– إن اليوم يكفى لكى يعيشه المرء، وأنى أقسم لك أنك لست فى خطر اليوم.

ونظرت اليه رينسنب وعبست.

– لكننا فى خطر؟ ياموس وأبى وأنا.. لست أنا المهددة أولا.. أهذا هو ما تفكر فيه؟

– حاولى الا تفكرى فى هذا يا رينسنب. انى أفعل كل ما فى وسعى، ولو أنه قد يبدو لك أنى لا أفعل شيئا.

– أى نعم –ونظرت اليه رينسنب وهى تفكر– نعم هكذا. ان ياموس سيكون الضحية الأولى.. ان العدو قد حاول مرتين بالسم وفشل، وستكون هناك محاولة ثالثة. لذلك ستكون بقربه لتحميه، وبعد ذلك سيحل دور أبى ودورى.

– من الذى يكره أسرتنا الى هذا الحد لكى...

– هس. من الأفضل الا تتكلمى فى هذه الأمور. ثقى بى يا رينسنب، وحاولى أن تمحى الخوف من ذهنك.

ورفعت رينسنب رأسها وواجهته بكبرياء: انى أثق فيك يا حورى. لن تدعنى أموت.. أنى أحب الحياة جدا، ولا أريد أن أتركها.

– لن تتركيها يا رينسنب.

– ولا أنت أيضا يا حورى.

– ولا أنا أيضا.

وابتسما لبعضهما، ثم مضى حورى ليبحث عن ياموس.

جلست رينسنب القرفصاء تراقب كيت.

كانت كيت تساعد الأطفال فى وضع لعب من الصلصال، وكانت تستعين بماء البحيرة وأصابعها مشغولة بما تفعله، وكان صوتها يشجع الولدين الصغيرين المنهمكين بجد فى عملهما. وكان وجه كيت كالمعتاد فيه مودة، وبدون أى تعبير أو جمال، ولم يبد أن جو الموت العنيف والخوف الدائب قد أثرا عليها بالمرة.

كان حورى قد طلب من رينسنب ألا تفكر، ولكن لم يكن بوسع رينسنب مهما كانت ترغب فى ذلك أن تطيع. لو كان حورى يعرف العدو، ولو كانت أسا تعرفه، فإذن لا يوجد سبب لكى لا تعرفه هى أيضا. قد تكون فى أمان أكثر بعدم معرفتها، ولكن لا يوجد إنسان يرضى بذلك. أنها تريد أن تعرف. وهو أمر لابد سهل جدا. سهل جدا.. إن من الواضح أن أباها لا يمكن أن يرغب فى قتل أولاده، ولذلك فيبقى.. من يبقى.. من يبقى؟ يبقى بوضوح وبدون ريب شخصان.. كيت وهينيت. امرأتان.. وبالتأكيد لا يوجد لديهما دافع للقتل.. ومع ذلك فهينيت تكرههم جميعا.. نعم ان هينيت تكرههم بدون ريب جميعا.. لقد اعترفت بأنها تكره رينسنب، ولذلك فلم لا تضمر الكره للآخرين أيضا؟

وحاولت رينسنب أن تتخيل ما يدور داخل عقل هينيت المظلم المعذب. لقد عاشت هنا كل هذه السنين تعمل وتعلن وفاءها وتكذب وتتجسس وتثير المتاعب.. جاءت إلى هنا منذ زمن طويل بوصفها قريبة فقيرة لسيدة جميلة وعظيمة، ورأت تلك السيدة الجميلة سعيدة بزوجها وأطفالها، أما هى فتخلى عنها زوجها ومات طفلها الوحيد.

نعم قد يكون هذا هو ما حدث. مثل جرح من رمية رمح رأته مرة رينسنب. لقد شفى بسرعة ظاهريا، ولكن كان غير نظيف من الداخل، وسرى فيه المرض، وورم الذراع، ثم جاء الطبيب وتلا تلاوة ملائمة ثم غرس سكينا صغيرا فى الذراع المتورمة الجامدة، وكان كما لو أن جسرى قد انهار، وانبثق من الذراع سيل من سائل له رائحة كريهة.

وربما كان هذا هو ما حدث لعقل هينيت. حزن وجرح اندملا بسرعة، وسم يتقيح تحت الجرح، ويتزايد ويصبح تيارا قويا من الحقد والضغينة.

ولكن هل تكره هينيت أمحتوب أيضا؟ كلا بالتأكيد.. أنها منذ سنوات ترفرف حوله وتتملقه، وهو يثق فيها تمام الثقة بالتأكيد.. إن هذا التفانى لا يمكن أن يكون تظاهرا كلية؟

وإذا كانت متفانية له هل من الممكن أن تصيبه عمدا بكل هذا الحزن والخسارة؟

آه، ولكن لنفرض أنها كانت تكرهه هو أيضا، وأنها كانت تكرهه دائما؟ وأنها كانت تتملقه متعمدة لكى تبرز ضعفها؟ وهب أن أمحتوب هو أكثر الذين تكرههم؟ إذن ما الذى يسر عقلا مريضا شريرا أكثر من هذا، أن يرى أولاده يموتون الواحد تلو الآخر؟

– ماذا بك يا رينسنب؟

كانت كيت تحدق فيها، إن منظرك غريب.

ووقفت رينسنب وقالت: انى أشعر كما لو كنت سأتقيأ.

وكان هذا من ناحية حقيقيا، فان الصورة التى تخيلتها قد أثارت

فيها شعورا قويا من الغثيان، وتقبلت كيت كلماتها بمعناها الظاهرى.

– انك قد أسرفت فى أكل البلح الأخضر، وربما لم يناسبك السمك.

– كلا.. كلا أنه ليس شيئا أكلته، بل أنه هذا الجو الفظيع الذى نعيش فيه.

– آه هذا... وكانت لهجة كيت باردة لدرجة أن رينسنب حدقت فيها مستغربة.

– لكن ألست خائفة يا كيت؟

– كلا.. لا أظن ذلك، لو حدث أى شئ لامحتوب فسيحمى حورى الأولاد. ان حورى أمين وسيحافظ لهم على ميراثهم.

– ياموس هو الذى سيفعل ذلك.

– أن ياموس سيموت أيضا.

– كيت، أنت تقولين هذا بمنتهى الهدوء. ألا يهمك هذا بالمرة. أعنى موت ياموس وأبى؟

وتمعنت كيت برهة ثم هزت كتفيها.

– أننا امرأتان معا فلنكن صادقتين. لقد اعتقدت دائما أن امحتوب غير عادل ومستبد. لقد تصرف تصرفا شائنا فى مسألة محظيته، وتركها تقنعه بأن يحرم لحمه ودمه من الميراث. انى لم أحب أمحتوب أبدا، وأما ياموس فانه نكرة، وكانت ساتيبى تحكمه فى كل شئ. وأخيرا بعد أن رحلت بدأ يعطى الأوامر ويتسلط. انه سيفضل أولاده على أولادى دائما، وهذا أمر طبيعى، ولذلك فان مات فأن هذا أفضل

لأولادى، هكذا أرى الأمــور.. إن حـورى ليس لديه أولاد وهو عـادل. إن كل الذى جرى مقلق ولكنى كنت افكر أخيرا أن من الأرجح أنه خير ما يحدث.

- ان بوسـعك أن تتكلمى هكذا يا كيت -بهـذا الهـدوء والجـمـود- بينمـا كان زوجك الذى كنت تحـبينه هو أول القـتلى.. وبدأ على كيت تغير خفيف غير واضح، وألقت نظرة على رينسنب بدا فيها تهكم ما.

- انك مثل تيتى تماما فى بعض الأحيان يا رينسنب، وفى الحقيقة أن المرء قد يقسم أنك لست أكبر منها سنا.

- أنت لست حزينة على سوبك. انى لاحظت هذا.

- هيا يا رينسنب لقد فعلت كل ما تمليه التقاليد.. انى أعرف كيف يجب أن تتصرف أرملة ترملت حديثا.

- نعم.. هذا كل مـا هنالك.. لذلك، هـذا يعنى أنك لم تكونى تحـبين سوبك؟

وهزت كيت كتفيها: ولماذا أحبه؟

- كيت أنه كان زوجك، وقد رزقت منه بـأطفـالك... ولانت تعـابيـر وجـه كـيت، ونظرت إلى الولدين الصـغـيـرين المنهـمكين فى اللعب بالصلصـال، والى حيث كـانت انكا تتبـختـر وهى تغنى لنفسـهـا وتلوح بقدميها الصغيرتين.

- نعم لقـد وهبنى أطفـالى، وانى لأشكره على ذلك، ولكن مـاذا كـان بعـد كل هذا؟ كـان رجـلا وسيـمـا مـتبـاهيـا، رجـلا يقصـد دائمـا نسـاء أخريات. انه لم يتخذ زوجة كما تقضى التقاليد ويأتى بها إلى المنزل،

امرأة متواضعة تنفعنا جميعا. كلا بل كان يذهب إلى المنازل ذات السمعة السيئة، ويصرف فيها بإسراف ويشرب أيضا، ويطلب أغلى الراقصات. وكان من حسن الحظ أن أمحتوب كان يقتر عليه.

وأنه كان عليه أن يقدم حسابا عسيرا عن المبيعات التى كان يتولاها فى المزرعة. فما الحب والاحترام الذى يجب أن أكنه لرجل من هذا الطراز؟ وما قيمة الرجال على أى حال؟ أنهم ضروريين لإنجاب الأطفال. هذا كل ما هنالك. ولكن قوة الجنس فينا نحن يا معشر النساء.. إننا نحن يا رينسنب الذين نورث أطفالنا كل ما نملك. أما عن الرجال فلينجبوا وليموتوا... وكان الاحتقار والازدراء اللذان يملأن صوت كيت يرتفعان مثل نبرات آلة موسيقية، وكان وجه كيت القوى القبيح قد تبدل.

وفكرت رينسنب بحسرة: أن كيت قوية، ولو كانت غبية فان غباءها من النوع الراضى على نفسه. أنها تكره وتحتقر الرجال، وكان يجب أن أعرف، فقد لمحت مرة قبل ذلك لمحة من هذا.. هذه الصفة المهددة نعم أن كيت قوية..

وبلا شعور سقطت نظرة رينسنب على يدى كيت، كانتا تعصران وتعجنان الصلصال.. يدان قويتان فيهما عضلات، وبينما كانت رينسنب تراقبهما، وهما تعجنان الصلصال فكرت فى ايبى، وفى يدين قويتين تدفعان رأسه فى الماء، وتمسكان به هناك بدون رحمة.. نعم أن بوسع يدى كيت أن تفعلا ذلك.

وتعثرت الفتاة الصغيرة أنكا ووقعت على الشوك، وصرخت، فهرعت إليها كيت والتقطتها، وأمسكت بها على صدرها وهى تدندن

لها وكان وجهها الآن كله حب وحنو.

وهرعت هينيت من الشرفة: هل هناك شئ..؟ إن الطفلة صرخت عاليا لدرجة أنى فكرت أنه ربما -وتوقفت وقد ظهرت عليها خيبة الأمل، واكتأب وجهها المغلول الخسيس المتوجس لحدوث كارثة.

ونقلت رينسنب بصرها من المرأة للاخرى.

حقد فى وجه، وحب فى وجه آخر، وتساءلت من منهما الأكثر شناعة؟



الشهر الثانى من الصيف، اليوم السابع عشر

كان اليوم التالى هو ليلة الاحتفال بالقمر الجديد، وكان أمحتوب مضطرا للذهاب إلى المقبرة لكى يقدم القرابين، وتوسل ياموس لأبيه أن ينوب عنه فى هذه المناسبة، ولكن أمحتوب لم يتزحزح عن موقفه، وتمتم بما يبدو لان تمثيلا ضعيفا لطريقته القديمة، كيف اتأكد من أن الأمور تجرى كما يجب ما لم أقم بها بنفسى؟ هل تخليت أبدا عن واجباتى؟ ألم أصرف عليكم جميعا واسندكم جميعا.

وتوقف صوته: جميعا؟ جميعا؟ آه انى انسى ولدى الشجاعين - ابنى سوبك الوسيم، وابنى ايبى وابنتى العزيزتين - أنتما ما زلتما معى ولكن إلى متى..؟ إلى متى؟

ياموس:- لسنوات عديدة كلما نأمل.. كان يتكلم بصوت عال كما لو كان يكلم رجلا أصم.

- آه؟ ماذا؟ وكان يبدو على أمحتوب انه فى غيبوبة ثم قال فجأة وبدهشة: إن هذا يتوقف على هينيت، أليس كذلك؟ نعم انه يتوقف على هينيت.

- وتبادل ياموس ورينسنب النظرات وقالت برفق ووضوح: انى لا أفهمك يا أبى.

وتمتم أمحتوب بشئ لم يسمعاه، ثم رفع صوته قليلا ولكن عينيه ظلتا بليدتين وخاويتين وقال: ان هينيت تفهمنى، وهى كانت دائما

تفهمنى، وهى تعرف كم ان مسئولياتى كبيرة -وعظيمة. نعم كم هى كبيرة.. ودائما الجحود.. لذلك يجب أن يكون هناك عقاب.. إن هذا كما اعتقد من المبادئ المعمول بها، يجب أن تعاقب الغطرسة.. إن هينيت كانت دائما متواضعة ومخلصة وستكافأ..

وشد قامته باهتمام: أنت تفهم ياموس.. يجب إن تنال هينيت كل ما تريده.. إن أوامرها يجب أن تطاع.

- ولكن لماذا يا أبى؟

- لانى أقول هذا. لأنه إذا حصلت هينيت على ما تريد فلن تحدث وفيات أخرى..

وأومأ برأسه فى حكمة ثم مضى - تاركا ياموس ورينسنب يحدقان فى بعضهما فى استغراب وخوف.

- ماذا يعنى هذا يا ياموس؟

- لا أعرف يا رينسنب، وفى بعض الأحيان اعتقد إن أبى لم يعد يعرف ما يقوله أو ما يفعله.

- لا - ربما لا، ولكنى أعتقد يا ياموس أن هينيت تعرف جيدا ما تقوله وما تفعله. أنها قالت لى منذ فترة قصيرة، أنها قريبا سيكون فى يدها السوط فى هذا المنزل.

ونظرا إلى بعضهما ثم وضع ياموس يده على ذراع رينسنب:

- لا تغضبيها. أنت تظهرين شعورك بوضوح أكثر من اللازم يا رينسنب. أسمعت ما قاله ابى؟ إذا فعلنا ما تريده هينيت- لن تكون هناك وفيات أخرى..

كانت هينيت جالسة القرفصاء فى أحدى غرف المخازن وهى تعد أكواما من الملاءات. كانت ملاءات قديمة، وأمسكت بعلامة على أحد الأطراف وقربتها من عينيها.

وتمتمت، أياشات، ملايات اياشات، ومكتوب عليها تاريخ السنة التى جاءت فيها إلى هنا- هى وأنا معا.. هذا منذ زمن طويل. انى أتساءل هل تعرفين الآن فيما تستعمل ملاياتك يا اياشات؟... وتوقفت فى وسط ضحكة، وأجفلت عند سماع صوت جعلها تنظر خلفها.

كان يا موس.

- ماذا تفعلين يا هينيت؟

- إن المحنطين يحتاجون إلى ملايات أكثر. لقد استعملوا أكواما من الملايات. استعملوا أربعة مئة كوم أمس فقط. انه لشئ فظيع كمية الملايات التى تستهلكها هذه الجنازات. سنضطر لاستعمال هذه الملايات القديمة. أنها من صنف جيد ولم تستهلك كثيرا. أنها ملايات والدتك يا ياموس. نعم ملايات والدتك..

- من سمح لك باستعمالها.

وضحكت هينيت: إن أمحتوب قد عهد إلى بكل شئ وليس على أن اطلب إذنا. انه يثق فى هينيت العجوز المسكينة، وهو يعرف أنها ستفعل كل شئ طبقا للأصول. لقد قمت بأغلب الأمور فى هذا المنزل لمدة طويلة واعتقد - الآن- انى سأنال جزائى.

- يبدو ان هذا هو ما سيحدث يا هينيت: وكان صوت ياموس معتدلا.

- إن أبى يقول - وتوقف: إن كل شئ يتوقف عليك.

- هل قال ذلك (حسنا ان هذا شئ يسرنى الاستماع إليه - ولكن ربما لا تعتقد أنت ذلك يا ياموس).

- حسنا - انى لست متأكدا تماما.. وكان صوت ياموس مازال معتدلا، ولكنه كان يراقبها عن قرب.

- اعتقد انه من الأفضل أن تتفق مع أبيك يا ياموس فإننا لا نريد أى - متاعب أخرى، أليس كذلك؟

أنا لا أفهم تماما. اتعنين - إننا لا نريد أية وفيات أخرى.

- ستكون هناك وفيات أخرى يا ياموس. أى نعم.

- من التالى الذى سيموت يا هينيت؟

- ولماذا تعتقد أنى أعرف هذا؟

- لانى أعتقد انك تعرفين الكثير. انك مثلا كنت تعرفين إن ابيى سيموت.. أنت ذكية جدا يا هينيت، أليس كذلك؟

- وشمخت هينيت وقالت: إذن فقد بدأت تدرك هذا الان. انى لم أعد هينيت الغبية المسكينة. انى هى التى تعرف.

- ماذا تعرفين يا هينيت؟

وتغير صوت هينيت وأصبح منخفضا وحادا.

- انى أعرف ان بوسعى أخيرا أن أفعل ما أريده فى هذا المنزل، ولكن يكون هناك من يمنعنى. ان أمحتوب يركن إلى. وانت ستفعل مثله- هه يا ياموس؟

- رينسنب؟

وضحكت هينيت ضحكة سعيدة وخبيثة.

- لن تكون رينسنب هنا.

- أتعتقدين أن رينسنب هى التى ستموت فى المرة التالية.

- ما الذى تظنه أنت يا ياموس؟

- انى انتظر لاسمع ما الذى ستقولينه أنت.

- ربما عنيت فقط أن رينسنب ستتزوج - وترحل.

- ما الذى تعنين يا هينيت؟

- وضحكت هينيت:

- لقد قالت أسا مرة أن لسانى خطر. ربما هو كذلك.. وأطلقت ضحكة رفيعة وهى تتمايل على كعبيها.

- حسنا يا ياموس ما قولك؟ هل سأفعل أخيرا ما أريده فى هذا المنزل؟

وتفحصها ياموس لبرهة قبل إن يقول:- نعم يا هينيت، أنت ذكية جدا. ستفعلين ما يحلو لك.

واستدار ليقابل حورى الذى آتي من البهو الرئيسى والذى بادره بالقول: ها أنت ذا يا ياموس.. إن أمحتوب ينتظرك فقد حان الوقت للذهاب للمقبرة.

وأومأ ياموس.

- انى آت.. وخفض صوته.. حورى انى أعتقد إن هينيت مجنونة - أنها بالتأكيد ممسوسة من الشياطين. ولقد بدأت اعتقد أنها هى المسئولة عن كل هذه الحوادث.

- وتوقف حورى برهة قبل أن يقول بصوته الهادئ المنعزل.

- أنها امرأة غريبة - وأعتقد أنها شريرة.

وخفض ياموس صوته أكثر: حورى انى أعتقد إن رينسنب فى خطر؟

- من هينيت؟

- نعم.. لقد لمحت توا إن رينسنب قد تكون هى التالية- للرحيل.

ووصل اليهما صوت أمحتوب متبرما: هل سأنتظر طوال اليوم؟ ما هذا السلوك. لم يعد أحد يهتم بى، لا يعرف أحد ما احتمله. أين هينيت؟ ان هينيت تفهمنى.

وجاءت ضحكة هينيت الرفيعة من داخل المخزن.

- هل تسمع هذا يا ياموس؟ هينيت هى التى تفهمه.

وقال ياموس بشراسة: نعم يا هينيت - انى أفهم. انت التى بيدك النفوذ والقوة - أنت وأبى وأنا- نحن الثلاثة معا.

ومضى حورى ليلحق بأمحتوب، وقال ياموس بضع كلمات لهينيت التى أومأت وقد أضيئت عيناها بانتصار خبيث.

ثم لحق ياموس بحورى وأمحتوب، وأعتذر عن تأخره، ومضى الرجال الثلاثة إلى المقبرة.

* * *

مر اليوم بطيئا على رينسنب.

كانت قلقة تمشى ذهابا وإيابا من المنزل للشرفة ثم للبحيرة، ثم ترجع مرة أخرى للمنزل.

ورجع أمحتوب إلى المنزل فى منتصف النهار، وبعد أن أكل وجبة طعام خرج إلى الشرفة، ولحقت به رينسنب، جلست ويداها حول ركبتيها، وهى تنظر من حين لآخر إلى وجه أبيها، وكان لا يزال عليه ذلك التعبير المتحير التائه، ولم يتكلم كثيرا، وتنهد مرة أو مرتين.

وفى مرة تنبه وسأل عن هينيت، ولكن فى هذا الوقت بالذات كانت هينيت قد ذهبت بالملايات للحانوتية، وسألت زينسيب أباها: عن ياموس وحورى وأين هما..؟

– ذهب حورى لحقول الكتان البعيدة، فهناك جرد، وياموس فى المزرعة. وان كل شئ يقع الآن على عاتقه.. يا للحسرة على سوبك وايبى.. ولدى.. ولدى الوسيمين..

وحاولت رينسنب أن تصرف باله بسرعة.

– الا يستطيع كامانى أن يراقب العمال؟

– كامانى؟ من هو كامانى؟ ليس لى ابن بهذا الاسم؟

– كامانى الكاتب الذى سيصبح زوجى.

وحدق فيها.

– أنت يا رينسنب (ولكنك ستتزوجين فاى)؟

وتنهدت ولم تقل شيئا آخر. فقد بدا انه من القسوة أن تحاول رده الى الحاضر.

ومع ذلك فبعد فترة وجيزة تنبه من نفسه وهتف فجأة: بالطبع. كامانى.. انه ذهب ليصدر بعض التعليمات لرئيس العمال فى معمل البيرة. يجب أن اذهب والحق به.

ومضى بخطى سريعة وهو يتمتم لنفسه بطريقته القديمة، ولذلك شعرت رينسنب ببعض السرور.

ربما إن الغلالة التى رانت على عقلة مؤقتا - ونظرت حولها وبدأ أن هناك اليوم شرا فى السكون الضارب حول المنزل والفناء. كان الأطفال فى الجانب البعيد من البحيرة، ولم تكن كيت معهم، وتساءلت رينسنب أين هى.

ثم خرجت هينيت الى الشرفة، ونظرت حولها ثم جاءت تسترق الخطى نحو رينسنب، وكانت قد رجعت إلى طريقتها القديمة المتواضعة.

- كنت انتظر حتى أجدك وحدك يا رينسنب.

- لماذا يا هينيت؟

وخفضت هينيت صوتها.

- لدى رسالة لك من حورى؟

- ماذا يقول؟ كان صوت رينسنب متحمسا.

- انه يطلب منك الصعود إلى المقبرة.

- الآن؟.

- كلا. كونى هناك قبل ساعة من الغروب. هذه هى الرسالة وهو يطلب منك أن تنتظريه إذا لم يكن هناك. حتى يأتى. وهو يقول إن الأمر مهم.. وتوقفت هينيت - ثم أضافت: طلب منى أن انتظر حتى تكونى وحدك لأقول هذا وأن لا يسمع احد ما أقوله.

وتسللت هينيت مرة أخرى بعيدا.

وشعرت رينسنب بأن حملا أزيح عنها. شعرت بسرور لفكرة ذهابها الى هدوء وسلام المقبرة، وبالسرور لأنها سترى حورى، وسيكون بوسعها أن تكلمه بحرية، وكان الشئ الوحيد الذى يدهشها هو انه عهد برسالته لهينيت.

ورغم ذلك فمع إن هينيت خبيثة فقد نقلت الرسالة بامانة.

وفكرت رينسنب: ولماذا أخاف من هينيت فى أى وقت؟ انى أقوى منها.

وشدت قوامها بكبرياء وشعرت بشبابها وبالثقة وبانها حية حقيقية.

* * *

بعد أن أبلغت هينيت الرسالة ذهبت مرة أخرى لغرفة تخزين الملايات وكانت تضحك فى سرها بهدوء. وانحنت على أكوام الملايات غير المنظمة، وقالت وهى تخاطب الملايات بسرور، - سنحتاج للكثير منك قريبا. هل تسمعين يا اياشات؟ أنا السيدة هنا الآن، وانى أقول لك ان ملاءاتك سيلف بها جثمان آخر. وجثمان من يكون؟ هئ.. هئ أنت لم تستطيعى إن تفعلى الكثير؟ أنت وخالك الحاكم. العدالة؟ ما هى العدالة التى تستطيعين أقامتها فى هذا العالم؟ اجيبينى على ذلك؟.

صدرت حركة من خلف بالات اللينون، وادارت هينيت رأسها فى نصف دائرة.

ثم رميت عليها قطعة عريضة وكبيرة من القماش كتمت فمها وانفها، ولفت يد قوية لا تلين القماش حول جسمها مثلما يلف جثمان ميت حتى سكنت حركتها.

الشهر الثانى من الصيف، اليوم السابع عشر

جلست رينسنب فى مدخل الغرفة الحجرية وهى تحدق فى النيل غارقة فى حلم غريب، وكان يبدو لها أنه مر وقت طويل منذ اليوم الذى جلست فيه هنا أول مرة بعد رجوعها لمنزل أبيها بقليل. وكان هذا هو اليوم الذى أعلنت فيه بمرح أنه لم يتغير شئ، وان كل شئ فى البيت كان تماما كما تركته عندما غادرت المنزل منذ ثمانى سنوات.

وتذكرت الآن كيف أن حورى قد قال لها أنها هى نفسها لم تعد رينسنب، نفس تلك التى رحلت مع فاى، وكيف أنها أجابت بثقة أنها سترجع كما كانت، وتكون كذلك بعد قليل. ثم مضى حورى يتحدث عن التغيرات التى تحدث من الداخل من عفن ليس له أثر خارجى ظاهر.

وكانت الآن تعرف شيئا مما كان يجرى فى باله عندما قال هذا الكلام. انه كان يحاول أن يعدها فانها كانت عمياء ومطمئنة لدرجة كبيرة –وكانت تتقبل بسهولة أفراد عائلتها كما يبدو ظاهريا.

ولم تتفتح عيناها إلا بقدوم نوفريت... نعم قدوم نوفريت.. انه كان محور كل شئ.. لقد جاء الموت من نوفريت.

وبصرف النظر عما إذا كانت نوفريت شريرة أم لا، فأنها بالتأكيد قد جلبت الشر معها.

والشر مازال فى وسطهم.

لآخر مرة حاولت رينسنب أن تتخيل إن روح نوفريت هى السبب فى

كل شئ.

ونوفريت الخبيثة الميتة..

أو هينيت الخبيثة الحية.. هينيت المحتقرة المتملقة..

وارتعشت رينسنب، وتحركت، ثم نهضت ببطء على قدميها. أنه لا يمكنها انتظار حورى أكثر من ذلك.. أن الشمس على وشك الغروب. وتساءلت بدهشة لماذا لم يأت؟

ونهضت ونظرت حولها، وبدأت تنزل الطريق نحو الوادى.

كانت ساعة الغسق هذه ساكنة جدا.. ساكنة وجميلة -كما فكرت- ماذا أخر حورى؟ لو كان قد جاء لكان فى وسعهما على الأقل أن يقضيا هذه الساعة معا..

لن تكون هناك ساعات كثيرة مثلها، ففى المستقبل القريب عندما تصبح زوجة كامانى.

هل ستتزوج كامانى حقا؟ وبنوع من الصدمة حررت نفسها من حالة القبول المتبلد التى خيمت عليها لفترة طويلة، وشعرت كنائم يصحو من حلم محموم. لقد وافقت على كل ما عرض عليها وهى فى حالة ذهول من الخوف وعدم الاطمئنان.

ولكنها الآن رجعت إلى طبيعتها، وأصبحت رينسنب مرة أخرى، ولو تزوجت كامانى فسيكون ذلك لأنها أرادت أن تتزوجه، وليس لان عائلتها رتبت هذا الزواج. كامانى بوجهه الوسيم الضاحك أنها تحبه أليس كذلك؟ ولهذا ستتزوجه.

فى ساعة المساء هنا فى أعلى الجبل يكون الوضوح والحقيقة بدون

بلبلة أفكار. أنها رينسنب تمشى هنا فوق العالم بدون خوف، صافية على حقيقتها أخيرا.

ألم تقل مرة لحورى أنها يجب أن تنزل من هذا الطريق وحدها خلال الساعة التى ماتت فيها نوفريت -وأنه بصرف النظر عن كونها خائفة أم لا، فأنها مع ذلك يجب أن تمشى وحدها؟

حسنا هذا هو ما تفعله الآن. إن هذه هى تقريبا الساعة التى انحنت فيها ساتيبى وهى فوق جثمان نوفريت، وهى أيضا نفس الساعة تقريبا التى مشت فيها ساتيبى بدورها فى هذا الطريق. وفجأة نظرت خلفها -لترى القدر يلحق بها.

وحدث هذا فى نفس هذا المكان تقريبا. ما الذى سمعته ساتيبى ليجعلها تنظر خلفها فجأة؟

خطوات؟

خطوات.. لكن رينسنب تسمع الآن خطوات تتبعها وهى نازلة على الطريق. وشعرت بقلبها يقفز من الخوف فجأة. انه حقيقة إذن أن نوفريت كانت هناك خطوات خلفها تتبعها...

وطغى عليها الخوف. ولكن لم تتباطأ فى خطاها، ولم تهرع إلى الأمام أيضا. أنها يجب أن تتغلب على الخوف مادام ليس فى عقلها أى عمل شرير تندم عليه.

وتماسكت واستجمعت شجاعتها، وأدارت رأسها وهى ما تزال تمشى.

ثم شعرت بفرح شديد. إن ياموس هو الذى يتبعها. ليست روحا من

الأموات وإنما شقيقها بنفسه. أنه كان بلا ريب مشغولا فى غرفة القرابين فى المقبرة، وخرج منها توا بعد أن مرت من أمامها.

توقفت وأطلقت صرخة صغيرة سعيدة.

- آه يا ياموس كم أنا سعيدة لأنه أنت.

كان آتيا نحوها بسرعة. وكانت قد بدأت تقول جملة أخرى -ترد بها مخاوفها الساذجة- عندما تجمدت الكلمات على شفتيها.

ليس هذا ياموس الذى تعرفه -الأخ الرقيق الطيب- أن عينيه تلمعان بشدة، وهو يلحق شفتيه الجافتين بلسانه بسرعة، ويداه ممدتان قليلا أمامه ملتويتان قليلا والأصابع تبدو كمخالب.

انه ينظر إليها، والنظرة التى فى عينيه واضحة. أنها نظرة رجل سبق له القتل، وسيقتل مرة أخرى. وهناك على وجهه قسوة مفترسة ورضاء شرير. ياموس -العدو الخفى كان ياموس. تحت قناع الوجه الرقيق الطيب- يوجد هذا.

كانت تفكر ان أخاها يحبها -ولكن لا يوجد حب فى هذا الوجه المفترس غير الادمى. وصرخت رينسنب -صرخة بائسة ضعيفة. كانت تعرف إن هذا هو الموت.. لا توجد لديها قوة توازى قوة ياموس. هنا حيث وقعت نوفريت، وحيث الطريق ضيق ستقع هى أيضا لتموت. - ياموس- كانت استعطافة أخيرة- وفى هذا النداء باسمه كان الحب الذى أحبت به دائما هذا الأخ الأكبر، ولكنه كان استعطافا بلا فائدة. وضحك ياموس ضحكة صغيرة سعيدة رقيقة لا إنسانية فيها، ثم هرع إلى الأمام، ويداه القاسيتان اللتان تشبهان المخالب مثنيتان كما لو أنهما تتوقان للالتفاف بشدة حول عنقها.

وتراجعت رينسنب نحو واجهة الجبل ويداها ممددتان فى محاولة يائسة لتفاديه. ان هذا الرعب.. الموت -ثم سمعت صوتا.. صوتا موسيقيا خافتا له رنين.. ومرق شئ يصفر فى الهواء، وتوقف ياموس وترنح، ثم وقع بصرخة قوية إلى الأمام على وجهه عند أقدامها، ونظرت ببلاهة إلى عمود السهم ذى الريش.

* * *

ياموس.. ياموس..

رددت رينسنب الاسم المرة تلو المرة، وقد شلتها الصدمة. كانت كما لو كانت لا تستطيع أن تصدق هذا.. كانت خارج الغرفة الحجرية الصغيرة وكان ذراع حورى لا يزال حولها. ولم يكن فى وسعها الآن أن تتذكر كيف قادها صاعدا بها الطريق مرة أخرى. إن كل ما كان بوسعها أن تفعله هو ترديد اسم أخيها فى تلك النبرات المبهورة من الدهشة والرعب.

وقال حورى برفق: نعم ياموس طوال الوقت.. ياموس.

– ولكن كيف (لماذا؟ وكيف يمكن أن يكون هو) أنه قد سم نفسه وكاد أن يموت.

– كلا لم يكن هناك مخاطرة من أن يموت. أنه كان حذرا جدا فى كمية النبيذ الذى شربه.. أنه ارتشف منه ما يكفى ليمرض وبالغ فى آلامه -انها كانت الوسيلة الوحيدة التى يعرفها ليبعد الشك عنه.

– ولكن لم يكن فى وسعه أن يقتل ايبى. انه كان ضعيفا لدرجة أنه لم يكن يقدر على الوقوف على قدميه.

- وهذا أيضا كان تمثيلا. ألا تتذكرين أن مرسو كان قد أعلن أنه بمجرد التخلص من السم سيسترجع قواه بسرعة. لقد حدث هذا فى الواقع.

- لكن لماذا يا حورى؟ هذا ما لا أستطيع فهمه -لماذا؟

وتتهد حورى: هل تتذكرين يا رينسنب انى تكلمت معك مرة عن العفن الذى يأتى من الداخل؟

أنى أذكر هذا وفى الواقع كنت أفكر فى هذا الحديث هذا المساء.

- لقد قلت مرة أن مجئ نوفريت أتى بالشر وهذا ليس حقيقيا. إن الشر كان موجودا هنا ومختبئا فى صدور أهل المنزل. إن كل ما فعله مجئ نوفريت هو أنه أخرجه من الظلمات إلى النور، ووجودها محا الاختباء. تحولت أمومة كيت الرقيقة إلى أنانية لنفسها وصغارها - سوبك لم يعد الشاب المرح الجذاب بل أصبح الضعيف المتباهى الأجوف. ايبى لم يعد صبيا مدللا وجميلا، بل بدأ كولد أنانى ذى مكائد -وبدأ يظهر السم بوضوح من خلال وفاء هينيت المزعوم. ساتيبى ظهرت كجبانة وامحتوب نفسه.

- انى أعرف -انى أعرف. وارتفعت يدا رينسنب لعينيها: لا حاجة لكى تخبرنى.. لقد اكتشفت هذا تدريجيا بنفسى.. لماذا تقع هذه الأمور؟ لماذا يأتى العفن كما تقول من داخل المرء وهز حورى كتفيه من الذى يستطيع أن يعرف؟

قد يكون أنه يجب أن يكون دائما هناك نمو -وان المرء إذا لم ينم ويصبح أحكم وأطيب وأعظم فان النمو يجب أن يكون من الناحية الأخرى، فينمى الخصال الشريرة، وقد تكون الحياة التى عاشوها

مغلقة جدا، ولا مكان فيها للخيال.

أو قد يكون أنه شئ معد، مثل آفة محاصيل، وان واحد أصابته العدوى ثم انتقلت للآخرين.

– ولكن ياموس كان يبدو دائما كما هو.

– نعم وهذا هو أحد الأسباب التى جعلتنى يا رينسنب اشك. فان الآخرين كان يسكنهم التنفيس نتيجة لطباعهم، ولكن ياموس كان دائما خجولا، ومن السهل التحكم فيه، ولم تكن لديه أبدا الشجاعة لكى يثور. كان يحب أمحتوب، ويعمل جهده ليرضيه، وأمحتوب كان ينظر إليه كشخص حسن النية، ولكنه غبى وبطئ وكان يحتقره.

وكانت ساتيبى أيضا تعامل ياموس بازدراء. امرأة مسيطرة. وبدأ شعوره الخفى بالحنق الذى كان يشعر به يزداد تدريجا، وكان كلما بدأ أكثر وداعة كان غضبه الخفى يزداد.

ثم فى الوقت الذى كان ياموس يأمل فيه انه سيحصد ثمار عمله وجهده، وانه أصبح شريكا لأبيه، وتقدر جهوده جاءت نوفريت، وكانت نوفريت، وربما جمال نوفريت، هو الذى أشعل الشرارة الأخيرة. أنها هاجمت رجولة الإخوة الثلاثة. أنها أصابت سوبك فى الصميم باحتقارها له كمغفل، وأثارت أيبى بمعاملته كطفل شرس بدون أية رجولة، وأظهرت لياموس أنه أقل من رجل فى نظرها. إن لسان ساتيبى قد دفع ياموس أخيرا إلى الانفجار، وحدث ذلك بعد مجئ نوفريت. كانت تهكماتها وتعبيرها له بأنها أرجل منه هما اللذان على هذا الطريق -وهو غير متمالك أعصابه- فرماها من فوق الجبل.

– ولكن ان ساتيبى هى...

- كلا كلا يا رينسنب هذا هو الخطأ الذى وقعتم فيه جميعا. أن ساتيبى رأت الحادثة من الوادى، والآن هل تفهمين؟

- ولكن ياموس كان معك فى المزرعة.

- نعم كان معى فى الساعة الأخيرة، ولكن ألا تدركين يا رينسنب أن جثمان نوفريت كان باردا؟ لقد مسست وجنتها بنفسك، وظننت أنها وقعت منذ لحظات قليلة قبل ذلك -ولكن هذا كان مستحيلا.

أنها كانت ميتة منذ ساعتين على الأقل، ولولا ذلك لكان وجهها تحت هذه الشمس الحامية لا يمكن أن يكون باردا. ان ساتيبى رأت الحادثة، وظلت قريبة وهى خائفة ولا تدرى ماذا تفعل، ثم رأتك قادمة وحاولت أن تبعدك.

متى عرفت هذا يا حورى؟

- لقد خمنت سريعا، وكان سلوك ساتيبى هو الذى أفهمنى ذلك. كان من الواضح أنها تعيش فى فزع مميت من شخص ما -وتأكدت بعد هذا بقليل أن ياموس كان هو الشخص الذى تخافه.. لقد توقفت عن تعاليها عليه، وبدلا من ذلك أصبحت متحمسة لطاعته بكل طريقة. أنها كانت كما ترين صدمة فظيعة لها، فان ياموس أشد الرجال وداعة والذى كانت تحتقره هو فى الواقع قاتل نوفريت. وقلبت هذه الواقعة عالم ساتيبى، فأنها مثل أغلب النساء كانت جبانة، وياموس الجديد هذا -أرعبها، وبدأت من جراء خوفها تتكلم وهى نائمة، وسرعان ما أدرك ياموس أنها خطر- والآن يا رينسنب يمكنك أن تدركى حقيقة ما رأيته بعينيك فى ذلك اليوم. لم يكن ما رأته ساتيبى وسبب وقوعها شبحا -أنها رأت ما رأيته أنت اليوم- رأت فى وجه الرجل الذى يتبعها

٠-زوجها- نيته فى إن يرميها إلى أسفل كما رمى المرأة الأخرى. وتراجعت إلى الخلف خوفا منه ووقعت. وعندما تفوهت بكلمة نوفريت وهى تحتضر، كانت تحاول أن تخبرك أن ياموس قتل نوفريت.

وتوقف حورى برهة ثم مضى يقول: إن أسا عرفت الحقيقة من ملاحظة لا علاقة لها إطلاقا بالموضوع أبدتها هينيت. إن هنينيت اشتكت من انى لا أنظر إليها، ولكنى انظر إلى شئ خلفها لا وجود له. ومضت بعد ذلك تتحدث عن ساتيبى، وفى غمضة عين رأت أسا كيف أن الأمر كله أبسط بكثير مما كنا نظن. إن ساتيبى لم تكن تنظر إلى شئ وراء ياموس. إن الذى رأته هو ياموس نفسه. ولكن تختبر أسا فكرتها -أدخلت الموضوع بطريقة عائمة لا تعنى شيئا لاى واحد إلا لياموس. وله وحده فقط إذا كان ما تشك فيه هو الحقيقة، وأدهشته كلماتها، وكان رد فعله لها للحظة فقط كافيا لها لتعرف أن ما تشك فيه هو الحقيقة. ولكن ياموس عرف عندئذ أنها تشك، وأنه بمجرد أن وجد شك فان الأحداث الأخرى ستبرر تماما حتى الرواية التى رواها الراعى- وهو صبى مخلص له، ومستعد إن يفعل أى شئ يأمره به مولاه ياموس -لدرجة أنه ابتلع دواء فى تلك الليلة دواء ضمن عدم يقظته مرة أخرى.

- يا حورى أنه من الصعب أن أصدق أن ياموس فعل هذه الأمور. مقتل نوفريت، نعم بوسعى أن افهم هذا ولكن لماذا كل هذه الجرائم الأخرى؟

- من الصعب أن أوضح لك يا رينسنب.. ولكن بمجرد أن ينفتح القلب للشر -يزدهر الشر مثل الزهور بين القمح، وطوال حياته ربما كان ياموس لديه ميل للعنف، ولم يستطع أن يقوم به. كان يحتقر دوره

الوديع فى الحياة، وأعتقد أن قتله لنوفريت أعطاه شعورا بالقوة. وأدرك هذا من سلوك ساتيبى أولا.. ساتيبى التى كانت تسيطر عليه وتوبخه أصبحت الآن وديعة ومرعوبة، واستيقظت فيه كل المظالم التى كان يشكو منها.. مثلما رفع ذلك الثعبان رأسه فى هذا الطريق فى ذلك اليوم -إن سوبك وايبى، أحدهما أكثر وسامة والآخر أذكى منه- لذلك يجب أزاحتهما، وهو ياموس سيكون المتحكم فى المنزل، والسلوى والركيزة الوحيدة لأبيه. وتضاعف شعور اللذة بالقتل عنده بمقتل ساتيبى وأحس بأنه أصبح أقوى من جراء هذا وبعد ذلك بدأ عقله يختل -ومنذ ذلك الوقت تملكه الشر كلية.

وأنت يا رينسنب لم تكونى غريمة، وكان ما يزال بوسعه أن يحبك، ولكن فكرة أن زوجك سيشاركه فى المزرعة لم يتمكن من احتمالها، وأعتقد أن أسا وافقت على فكرة الزواج من كامانى من أجل غرضين - أولا أنه إذا قتل ياموس مرة أخرى فان الذى سيهاجمه سيكون كامانى على الأرجح- وعلى أى حال فأنها كانت تثق انى سأحميك، والفكرة الثانية -لأن أسا كانت امرأة جسورة- كانت تريد أن تتعجل الأحداث، وكان ياموس مراقبا منى- وكان لا يعرف انى أشك فيه، ومن الممكن الإمساك به متلبسا.

- كما فعلت. آه يا حورى كم خفت عندما نظرت خلفى ورأيته.

- انى أعرف يا رينسنب، ولكن كان لابد من ذلك. وطالما أنى ألازم ياموس فأنت آمنة بدون شك، ولكن يمكن أن يستمر هذا الوضع إلى الأبد. وكنت أعرف أنه لو اتيحت له الفرصة ليلقى بك من فوق الطريق الجبلى فى نفس المكان فانه لن يدعها تمر، وان هذه الحادثة ستحيى من جديد الإيضاحات الخرافية للميتات السابقة.

– إذن فان الرسالة التى جاءت بها إلى هينيت لم تكن منك.

وهز حورى رأسه.

– لم أبعث إليك بأية رسالة.

– لكن لماذا هينيت –وتوقفت رينسنب وهزت رأسها.

أنى لا أستطيع أن أفهم دور هينيت فى كل هذا.

وقال حورى مفكرا: انى أعتقد أن هينيت تعرف الحقيقة. وكانت تلمح لياموس بها هذا الصباح، وهو شئ من الخطر القيام به. انه استعملها ليجذبك الى هنا، وهو أمر راق عندها القيام به –بما أنها تكرهك يا رينسنب.

– وبعد ذلك –انى أتساءل؟ إن هينيت قد تعتقد أن ما تعرفه سيعطيها قوة، ولكنى لا أصدق أن ياموس كان سيدعها تعيش طويلا، وربما حتى الآن. وارتعدت رينسنب وقالت:

– إن ياموس كان مجنونا، وكانت الأرواح الشريرة تتملكه، ولكنه لم يكن هكذا دائما.

– كلا ومع ذلك– أتتذكرين يا رينسنب كيف رويت لك قصة ياموس وسوبك وهما طفلان، وكيف أن سوبك ضرب رأس أخيه فى الأرض وأن والدتك جاءت وهى شاحبة ترتعد وقالت: إن هذا خطر. انى أعتقد يا رينسنب أن ما كانت تعنيه هو انه من الخطر القيام بمثل هذه الأفعال ضد ياموس. وتذكرى انه فى اليوم التالى مرض سوبك –وظنوا أنه من جراء أكل فاسد. انى أعتقد يا رينسنب أن والدتك كانت تعرف شيئا عن الغضب الغريب المكبوت الذى كان يكمن فى صدر ابنها

الصغير الوديع، وكانت تخشى أن يثار هذا الغضب فى يوم ما.

وارتعشت رينسنب وقالت: ألا يوجد شخص كما يبدو؟

وابتسم لها حورى وقال: نعم فى بعض الأحيان. إن كامانى وأنا يا رينسنب على ما أظن كما تعتقدين فينا.. كامانى وأنا.. وقال الكلمات الأخيرة بلهجة ذات معنى، وفجأة أدركت رينسنب أنها تقف فى لحظة اختيار فى حياتها. ومضى حورى يقول: ان كلينا يحبك يا رينسنب، وأنت تعرفين هذا بلا ريب.

وقالت رينسنب ببطء: ومع ذلك فأنت تركت ترتيبات زواجى تمضى قدما ولم تقل شيئا -ولا حتى كلمة واحدة.

- كان هذا من أجل حمايتك، وكانت هى فكرة أسا أيضا. كان على أن أظل متباعدا وغير مهتم حتى أستطيع أن ألاحظ ياموس بلا انقطاع وألا أثير عداوته، وأضاف حورى بتأثر يجب أن تفهمى يا رينسنب ان ياموس كان صديقى منذ عدة سنوات وكنت أحبه. وحاولت أن أدفع أباك لكى يعطيه المكانة والسلطة التى كان يريدها وأخفقت فى ذلك. أن كل ذلك جاء بعد فوات الأوان، ولكنى ولو انى كنت مقتنعا فى نفسى أن ياموس قتل نوفريت إلا أنى حاولت ألا أصدق هذا، ووجدت له حتى تبريرات لفعلته. ان ياموس صديقى التعس المعذب كان غاليا جدا على، ثم جاء موت سوبك وايبى وأخيرا موت أسا.. وعرفت حينئذ أن الشر الذى فى ياموس قد تغلب على الخير، ولذلك لقى ياموس موته على يدى ميتة سريعة وبدون ألم تقريبا.

- الموت -دائما الموت.

- كلا يا رينسنب أن الذى يواجهك اليوم هى الحياة وليس الموت.

مع من ستتقاسمين حياتك؟ مع كامانى أو معى أنا؟

وحدقت رينسنب أمامها عبر الوادى وحتى ضوء النيل الفضى.

وأمامها ارتفعت بوضوح صورة كامانى بوجهه الباسم فى ذلك اليوم وهو فى واجهتها فى القارب وسيما مرحا وقويا.. وشعرت مرة أخرى بدمائها تخفق لقد أحبت كامانى فى تلك اللحظة. أنها تحبه الآن وبوسع كامانى أن يحل محل فاى فى حياتها.

وفكرت رينسنب سنكون سعداء معا - نعم سنكون سعداء.. سنعيش معا ونسعد ببعض، وسيكون لنا أطفال جمال أقوياء. ستكون هناك أيام مليئة بالعمل.. وأيام للنزهة عندما نبحر على النهر. وستصبح الحياة مرة أخرى كما عرفتها مع فاى.. وما الذى أستطيع ان أطلبه أكثر من هذا؟ ما الذى أريده أكثر من هذا؟

وأدارت وجهها ببطء شديد نحو حورى. كانت كمن يسأله سؤالا بدون كلام.

وأجاب كما لو انه فهمها: عندما كنت طفلة كنت أحبك. كنت أحب وجهك الجاد والثقة التى كنت تأتين بها الى وتطلبين منى ان أصلح لعبك المكسورة. ثم بعد غيبة ثمانى سنوات رجعت مرة أخرى، وجئت الى هنا، وذكرت لى الأفكار التى تدور برأسك. ان عقلك يا رينسنب ليس مثل عقل بقية أفراد أسرتك.. انه لا يدور حول نفسه وحول جدرانه الضيقة.

ان عقلك مثل عقلى، انه ينظر عبر النيل، ويرى عالما يتغير وأفكارا جديدة - يرى عالما كل شئ فيه ممكن لمن اوتوا بعد النظرة والشجاعة.

– أنى اعرف يا حورى، أنى أعرف وقد شعرت بهذا معك، ولكن ليس كل الوقت، وستكون هناك أوقات لا أستطيع إن اتبعك فيها، وسأكون وحيدة فى هذه الأوقات.

وتوقفت وهى لا تجد الكلمات التى تعبر بها عن الصراع الذى يدور بفكرها. أنها لا تعرف كيف ستكون الحياة مع حورى، فانه برغم رقته وحبه لها سيظل فى بعض النواحى غامضا. أنهما سيشاركان فى أوقات جميلة وغنية معا – ولكن ماذا عن حياتها العادية؟

ومدت يديها بحركة لا شعورية نحوه.

– آه يا حورى قرر لى ماذا افعل؟

وابتسم لها للطفلة رينسنب التى كانت تتكلم ربما لآخر مرة كطفلة، ولكنه لم يمسك يدها.

– انى لا أستطيع ان أقول لك ما يجب ان تفعليه بحياتك يا رينسنب – لانها حياتك أنت – وأنت فقط التى يمكن ان تقرر.

وأدركت عندئذ أنها لن تتلقى مساعدة. لن يلتجئ لحواسها كما فعل كامانى ان حورى فقط لمسها، ولكنه لم يلمسها.

وبدا الخيار أمامها فجأة فى ابسط صورة – الحياة السهلة او الحياة الصعبة. لقد شعرت عندئذ بإغراء قوى ان تستدير وتنزل عبر الطريق الملتوى الى الحياة العادية السعيدة التى تعرفها من قبل والتى خبرتها مع فاى. أنها حياة آمنة – مشاركة فى مباهج وأحزان الحياة وبدون اى شئ تخشاه غير الشيخوخة والموت.

الموت.. إن أفكارها قد دارت دورة كاملة من الحياة للموت. إن خاى

قد مات، وكامانى ربما سيموت ووجه مثل وجه فاى سيزول ببطء من ذاكرتها.

ونظرت عندئذ الى حورى وهو واقف فى سكون بجانبها. وفكرت أنه شئ غريب انها لم تعرف أبدا حقيقة وجه حورى.. انها لم تشعر ابدا بالحاجة لتعرف. وتكلمت عندئذ، وكانت نبرة صوتها هى نفس النبرة عندما أعلنت قبل ذلك أنها ستمشى فى الطريق فى الغروب وحدها.

– لقد اتخذت قرارى يا حورى: انى سأشاركك حياتك – معك فى السراء والضراء حتى يدركنا الموت وشعرتْ بسعادة جديدة مفاجئة وذراعاه حوله، ووجهه على وجهها، وكانت ممتلئة بشعور جذل ملئ ببهجة الحياة.

وفكرت اذا مات حورى فلن انسى ان حورى أغنية فى قلبى الى الأبد.. وهذا يعنى انه لم يعد هناك موت.

